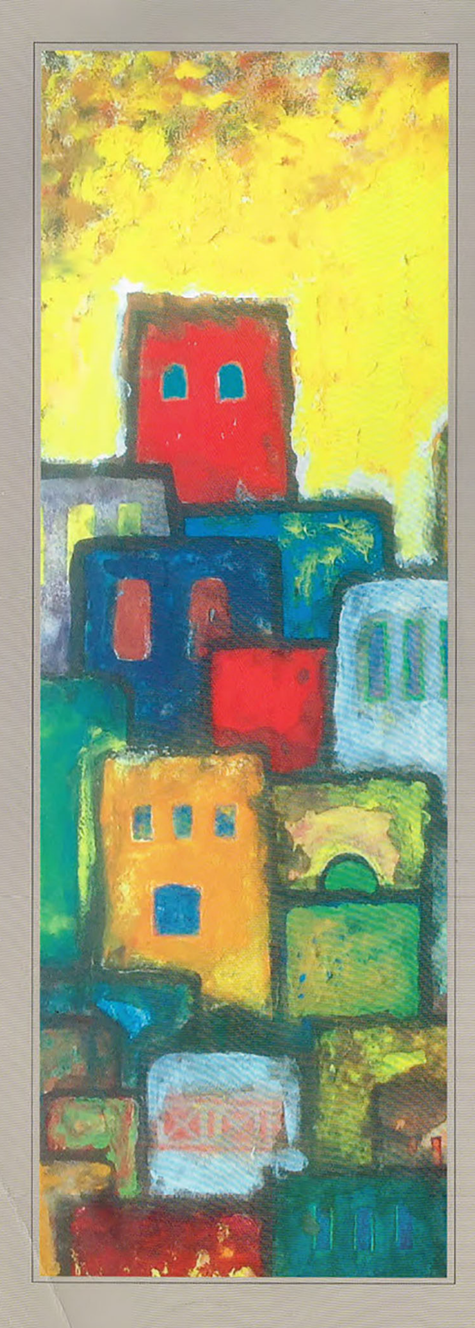
عيون المعاصرة

حسين الواد

روائح المدينة

-2-



دار الجنوب

عيون المعاصرة

يدير هذه السلسلة توفيق بكار

روائح المدينة

-2-

حسين الواد

روائح المدينة

-2-

دار الجنوب

المؤلّف : حسين الواد
عنوان الكتاب : روائح المدينة
لوحة الغلاف : محمّد المصمودي
الناشر : دار الجنوب
شارع خير الدين باشا ـ عمارة «المونبليزير»
الطابق السادس ـ B-63
مونبليزير تونس 1073
الهاتف : 850 903 71 ـ الفاكس : 857 903 71
البريد الإلكتروني : contact@sudeditions.com
موقع الواب : www.sudeditions.com
Sud Editions
ر د م ك ISBN : 978-9938-01-082-4
الطبعة الأولى

تقديم السّلسلة

أن نتجذّر في العصر ذلك ما يأمرنا به واقعنا العسير . وإنّنا ما لم نَسَتجِبْ لهذا الأمر فنتشبّع بروح الحاضر لمشلولون سياسيا وحضاريا عُجّزٌ أمام التحدّيات القاتلة. وليس مآلنا أن نكون مطمعا للاستعمار الجديد يفترسنا بضراوته التكنولوجية أو متحفا اثنولوجيا لإمتاع متذوّقي العتيق أو لوحة فلكلورية لتسلية السواح. فلا بدّ أن نُعَدِّلُ حياتنا على ساعة العصر حتى نخرج من سلبيّة المفعول به ـ تاريخيا ـ إلى ايجابيّة الفاعل ونثبت حضورنا دوليّا وعلى حدّ السّواء في مراكز النّفوذ ومواطن الخلق، خلق الأشياء والقيم والعلوم والفنون. فهو شرط وجودنا الأكمل في هذا العالم الذي نحن منه ولا نملك اليوم أن نؤثّر في سيره بملء وزننا. فَلْنخترع أنفسنا من جديد، وإنّه إن اقتضى ذلك منّا أن نخلع عنا الرجل القديم فلا يقتضي أن ننسلخ من هويّتنا لِنغتربَ في الآخرين. فالحداثة أن نستوعب أسباب التقدّم في كافة المجالات حتى ننّمي مجتمعاتنا تنمية شاملة ونفجّر فيها طاقات الخلق المدفونة تحت ركام الفقر والظلم والعدوان، بحيث نصبح قادرين على المساهمة الناشطة ـ بطرافة شخصيّتنا ـ في صياغة مصير العالم .

هذا الاهتمام الـمُلِحُّ هو الذي أملى على دار الجنوب للنشر أن تُقْدِمَ

بِفُتُوَّتِهَا على إصدار سلسلة خاصة تُعنى بنصوص أدبنا الحديث وتحمل اسم "عيون المعاصرة» بكل ما في "العيون» من الإيحاءات. فعلى مدى قرن من الوجود -انطلاقا من أوائل النهضة إلى اليوم ـ قام الأدب العربي الحديث ـ نصّا بعد نصّ ـ صرحا من الكلام نَحَتَهُ الذهن العربي على تعاقب الأجيال من تطلّعاتنا وتراجعاتنا وانجازاتنا وخيْباتنا وثباتنا وحيرتنا وصوابنا وأخطائنا في مواجهة المصير منذ أن أفَقْنَا بين الأوجاع على عنف التاريخ. وهو أدب يخبرنا عن نفسنا في مسيرتنا المتعرّجة خلال الزمن الحديث متى عرفنا كيف نُحْكِمُ معه الحوار واستطعنا أن نستمدّ منه ـ جدليا ـ ما به نواصل بأكثر استبصار وجدوى طريقنا نحو مجتمع مُتقدّم.

و ستهتم "عيون المعاصرة».بما اشتهر واستقر من تآليف كبار أدبائنا وبما هو جديد من عطاء الحاضر المتدفّق فَتُقدّم لكل نص تنشره بمقدّمة من إنشاء خيرة نُقّادنا ـ مغربا و مشرقا ـ تكشف أبعاده وتوظّفه ـ قوّة فعّالة ـ في صراعاتنا الراهنة من أجل وجود أفضل.

و"عيون المعاصرة» آفاق طليقة لا يَحُدُّها حدّ إذ هي مؤمنة بحُريّة الخلق والتعبير مُتفتِّحة على رياح الفكر العربي أينما كان المهبّ ولا تشترط في الإنتاج إلا أن يكون من صميم الإبداع وفي صميم القضايا يُثري شخصيّتنا ويدفع إلى الأمام. فتلك عقيدتها وهو التزامها الوحيد، وستفي.

توفيــق بكــار   **محمد المصمودي**

تونس 1979

إضاءة

قبل صدور " روائح المدينة" ببضعة أشهر حلّ الرّاوي الحفيد بالمنزل الذي كان جدّه يملكه في مدينتنا ويقيم فيه. كان والده قد طلب منه رفعَ الوثائق الشخصية والأغراض التي لها -في تقديره- قيمة،وإخلاء المنزل إثر التفريط فيه بالبيع. كان الراوي الحفيد شابا حديث عهد بالتخرّج من بعض مدارس الهندسة الفرنسية يتقن اللسان العربي.

قضى الشاب بمسكن جدّه زهاء الأسبوع متفرّغا للمكتبة فالأثاث والمواعين التي كانت به قد أصابها البلى فلم تعد تساوي شيئا. اتصل، في الأثناء، بمن بقي من معارف جدّه على قيد الحياة وخاطبهم في شأن الكتب فأشاروا عليه بأن يهبها إلى المكتبة العمومية بالمدينة. لكنه وجد الأمر على درجة من التعقيد ،فإهداء الكتب إلى المؤسسات العمومية يقتضي المرور بإجراءات إدارية كثيرة وشديدة البطء فأعدّ في ذلك توكيلا لواحد من أصحاب والده. أما سائر الوثائق فقد جمعها في صناديق وأرسلها على عنوانه في باريس.

بلغه، في الأثناء، أن شيخا من أصحاب جدّه القدامى يسعى، لدى دار للنشر، إلى إصدار مخطوطة كان قد تسلمها من الجد قبَيْل وفاته بقليل للنظر فيها. لم يعترض على ذلك واكتفى بإبداء الرغبة في الحصول منها على بعض النسخ.

جرت، بعد ذلك، مراسلات بين الراوي الحفيد ودار النشر عن طريق الشيخ الذي كان يسعى إلى إصدار المخطوطة. كانت تلك المراسلات

تتعلق بالترخيص بالنشر وعقوده. وعندما استخرجت من الطبعة الأولى نسخ تجريبية وتوصل الراوي الحفيد بواحدة منها، هاتف دار النشر قائلا: " للرواية بقية لم أرها في المطبوعة . ثم انقطعت أخباره . لم يردّ على المراسلات الكثيرة التي كان الناشر والشيخ، صاحب الراوي، قد بعثا بها إليه.

بعد صدور الطبعة الأولى بأكثر من ستة أشهر نزل الراوي الحفيد بمدينتنا. أبلغ الناشر والشيخ صاحب والده أنه كان قد اضطرّ إلى السفر إلى إحدى البلدان الشرقية للتفاوض في عقد للشغل بها فظل فيها ثلاثة أشهر وأنه لم يحصل على المراسلات العادية إلا عند رجوعه إلى باريس. أما الأخرى المسجلة فقد رجعت لمرسليها، وقال:

"عثرت في الوثائق والملفات التي تركها جدي وأخذتها معي على نسخة مخطوطة من "روائح المدينة". نظرت فيها فبدت لي أضخم بكثير من المطبوعة. جعلت أقارن بين النسختين المنشورة والمخطوطة التي كانت في الكرتون فعثرت على ملف من الورق غير المقوّى به فصلان لم يظهرا في النسخة المطبوعة وأوراق أخرى".

تأملنا في محتوى الملف، وكان الراوي الحفيد قد أمدّنا بنسخة مصوّرة منه، فلاحظنا أن الأول كان مكتوبا بخط واضح نظيف. أما الثاني فكانت به تشطيبات كثيرة وحواش متعددة وفقرات باهتة جدا ممّا يدلّ على أنها قد كتبت بحبر ملوّن أو غير غامق، فاستنتجنا أن صاحبه لم يفرغ منه.

أخذنا نتساءل عن الأسباب التي دعت المؤلف إلى عدم إدراج هذين الفصلين في المخطوطة التي كان قد سلمها إلى صديقه. إذا كان عدمُ الفراغ من الفصل الثاني يبدو سببا وجيها لعدم إدراجه في النسخة

التي اعتمدت في الطباعة فهو لا ينطبق على الفصل الأول. **أما إذا كان** السبب هو الخوف مما قد يجرّه عليه الفصل الأول الذي ظل **مخطوطا** من متاعب فما الذي جعله لا ينظف المخطوطة التي نشرت من كثير من الألفاظ النابية والفقرات القبيحة المؤذية؟ ذهبت بنا الحيرة إلى حدّ التساؤل عمّا إذا كان الراوي قد نوى، عند إطلاع صديقه على النسخة التي سلمه إياها، نشرها. خاطبنا صديق الراوي في ذلك. فقال: "لم يحصل بيننا كلام في النشر. طلب مني فقط أن أنظر فيها. وعندما كان ما كان اتخذت القرار بالنشر".

الحقيقة أن الأمر كان محيّرا.

لكننا احترنا أكثر من ذلك كله في القرار الذي نتخذه بشأن هذين الفصلين. ننشرهما أم لا ننشرهما؟ وإذا نشرناهما أنبحث لهما عن موقع في النسخة الأولى ندرجهما فيه بين ثناياها أم ننشرهما خارجها؟ وما الذي نصنعه بالفصل الثاني وهو كثير التشطيب والهوامش؟ ألا يدخل نشر الفصلين في النسخة التي صدرت تشويشا على الترتيب الذي وضعه صاحبها أو ينتهك بنيتها؟ لاحظنا مثلا أن حجم كل فصل من هذين الفصلين أكبر بكثير من أحجام الفصول التي تم نشرها. لم تكن البنية بالأمر الذي يشغل ،فهي ظاهرة من الظواهر الفنية لا غير رفعت من شأنها ثقافة من الثقافات.

بعد تقليب النظر على وجوهه استقر الرأي على نشر الفصلين في مجلد منفصل. أما الفصل الأول فننشره كما هو، وأما الثاني فقد سمحنا لأنفسنا بأن نقوّم ما يستحقّ التقويم من عبارته. رأينا أيضا أن ننشر الحواشي وأن نستغني عن المشطب عليه إلا إذا بدا محتاجا إلى إشارة فإننا قد نبهنا عليه.

كان العثور على هذين الفصلين قد دعانا إلى المقارنة بين المخطوطتين(التي اعتمدت في الطبعة الأولى والتي كانت بحوزة الراوي الحفيد) فعثرنا على اختلافات بسيطة جدا عدا الموضع الذي وردت فيه صيغتان لفعل واحد، صيغة بالحبر الأصلي وأخرى بقلم الرصاص، والصيغة التي بقلم الرصاص هي التي نشرت، لذا أبقينا عليها ونشرنا الثانية بالهامش مشفوعة بتنبيه.

المؤلف والناشر

1

أنا لا أنشط إلا نشاطا فاترا جدا للحديث عن رائحة أخرى أصبحت شديدة التضوّع بمدينتنا فالحديث عن الفساد، كالفساد نفسه، خبيث الإيذاء معدي النتن. ولولا أن أكون مقصرا في حق أهل مدينتي بالغضب لهم وعليهم لطول ما صبروا على جميع ما ابتلوا به ما كنت أجرؤ على أن أعرض بذكرٍ لهاته الرائحة التي ضاقت بها صدورُهم حتى اختنقت منهم الأنفاس وعشيت البصائر وتكدّرت الخواطر ووهنت العزائم فهمّوا بأن يضجّوا فرفعوا، من كان منهم مؤمنا يلجّ في التلويح بإيمانه ومن لم يكن، إلى السماء، أيديهم ورؤوسهم متضرّعين إلى الله أن يرفعَ عنهم هذه البليّة النكراء التي لم يستطيعوا لها ردّا. إنها رائحة غريبة عمّا عرف أهل مدينتي من عجيب الروائح فهي، في ما يقولون ويعيدون مبالغين ومقتصدين، منذ خيّمت عليهم ورشّتهم بنتنها ملحقة بهم في حياتهم فسادا يعسر منه الخلاص ، جيفة، دخيلة وقحة، متعجرفة، جلفة، رعناء، جشعة، غشوم، متغطرسة، بذيئة، لا

يحيط بها وصف أو تؤديها عبارة.

بدأت هذه الرائحة في التسرّب إلينا- حسب المؤرخ الحزين- بُعَيْدَ أن أهلّت علينا دولةُ العهد الجديد بميمون طلعتها. (الخلاف بين النابهين في مدينتنا ومؤرّخهم يكمن في أنهم يرون الماضي إمّا دائمًا أفضلَ من الحاضر فهم يحكّمون الأموات في شؤون الأحياء أو، دائمًا أسوأ منه فهم يضحكون من سذاجة الماضين في انتظار مستقبل لا يهلّ، بينما هما عنده هو سيان. كان كثيرا ما يقول: "تتغيّر الفواعل والمفاعيل وتظل االأفعال على حالها ما لم نخرج من منظومة الحلال والحرام والعنف الخيّر والعنف الشرّير. تزعمون أن التاريخ يتقدّم ويرتقي أو أنّ عهوده الفضلى قد خلفتموها بعيدا وراءكم. ألا بئس ما تصنعون بأنفسكم. ما أراكم، وأقسم بربّ العزّة كما تقسمون، إلا في بطن الوهم تتعفّنون").

كان الفرحُ بمقدم هذه الدولة غامرا فانشرحت الصدور وعمّ الاستبشار ولمعت العيون وتطلّقت الأسارير مفترّة عن واسع الابتسام. كان الفرحون بمقدم هذا العهد يقولون وقد نفخوا صدورهم وشمخوا بالأنوف: "ما زال في هذا البلد رجال. نساؤنا لم تعقر بعد". لكن المؤرخ الحزين جعل يقول وهو يقلّب النظر في جريدة أوردت أسماء أعضاء الحكومة الجديدة: "التركيبة مُفَبْرَكة[1]. ما من يد تقدر على أن تصافح أختها. أما وجدوا للسباق الذي يعدّونه جديدا سوى هذه الخيول الخَلقة؟ أيدخل في ذهن عاقل أن الانقضاض على الدولة يفتح للحرية بابا أَو نافذة؟" أشاح عنه الناس بوجوههم وعاتبوه ثم نعوا عليه إطلاق لسان الرّيبة في كلّ شيء وجعلوا يقولون: "سلاطة لسانه- الله

1 - مغشوشة لا تتلاءم مكوّناتها، اللفظة دخيلة من الفرنسية.

يهلكه- لا يسلم منها أحد. حتى الذين لم يحرّكوا بعدُ ساكنا لم يفلتوا من نتن منطقه". وعندما نحَر الموسرون وجلّ متنفّذي العهد البائد الذبائح ،ورقص الراقصون والراقصات على أنغام المزامير والدفوف والطبول وصدحت الحناجر بـ"بالروح بالدمّ، نفديك يا تغيير" ومُدّت الموائد ونصبت المآدب أصرّ معظم أهل المدينة على أن يصيبوا منها عدا ما كان قد سبقهم منها إلى البيوت. انحسرت رائحة التوجّس والقلق والحيرة التي كان المؤرخ الحزين قد أثارها باضطرابه، وانطلقت عجاجة أخرى مزغردة رعبوبا مفعمة بروائح العود والندّ والجاوي والخزامى والزعتر والعرار والدّاد تنشرها في كل مكان، وتضمّخت الشعور والأجسام بالمقطّر من روائح الزّهور.

بدأت مرحلةُ التمكّن مفعمة بالآمال العريضة والطّويلة. كلّ يمنّي النفس بما كان يطلب فلا يلحق، ويصنع من مواجده مَشْموما من الفرح يرشقه فوق أذنه نكاية في المؤرخ الحزين وشماتة مستفزة بأفكاره القلقة. سمعوه يعلّق على أعضاء الحكومة الجديدة بقوله، بعد كلام طويل في أنه لا يستقيم في الأذهان ولم يعرف في التاريخ أن الجنرالات يصنعون "الثورات" أو يطيقون لها رائحة:"إذا انعدمت حرية التعبير، وهي مما لا يقدر الجنرالات على الصبر عليه من فرط ما تضيق بها صدورهم، أحلّت الدولة الولاء فوق الكفاءة، وتلك أمّ الكبائر. أمّا الدول فلكلّ منها، مهما كانت، رجال، بمقاييسها هي، يهرولون وراءها. وأمّا الشعوب فلا يسعى في ركابها إلاّ طامع في وطءٍ أو امتطاء"، فغضبوا عليه، صاروا لا يكلّمونه إلا بالإشارات الدالة على العَتَهِ وفساد الطوية.

شرعت هذه الروائح الجديدة التي لم يبتدع بعد نوابغُنا لها اسما

في التضوّع شيئا فشيئا. كانت، أوّل عهدها بنا، ترفّ خفيفة لطيفة ليّنة لا تتبيّنها إلا الأنوف الواسعة المرهفة تهتدي، بعد المشقة، إليها اهتداء فتتنسّمها وتميّزها من بين جميع ما كانوا يطلقون على روائحه تسميات من قبيل "جسّ النبض" و" التمسيح على النسيج" و"الشمّ قبل التّقبيل والتّعنيق" و"التّجميش" و"التّسخين" وصريح" الفلورت"[2]، ثم خشنت وغلظت فصارت إذا صكتهم بنتنها اختلفت خطاهم وخرّوا، بعد حبس الأنفاس وسدّ الخياشيم، صرعى يفحصون الأرض بأرجل لم تعد تثير غبارا.

انتشر، أوّل ما انتشر، فجأة بين الناس، أنّ صالح قاسم، والد "فتحي شهوات" و"نعيم النّمس" و"سالم كاناسوكر" وكمشة من البنات لا يذكرهن أحد، أصبح من أقرب المقربين من صُنّاع العهد الجديد. رفع بعض السذّج من أهل مدينتنا رؤوسَهم وجعلوا، يوم السوق الأسبوعية، يقولون كلما شاهدوا فيها أجوارا لنا يكرهوننا حسدا لنا على التحاق مدينتنا بمصاف المدن:"ما يعرف الخليقة إلا من خلقها. رآنا، من عليائه، نأتي بالاستقلال فلا نجني منه إلا طلق الصّرف فعدّل من موازينه. أوعز لصالح بأن يكون في الموقع الصالح. سِوَانا، البائدون مع النظام البائد، ألقمهم الحجر".

كان قاسم غير معروف في مدينتنا، رغم إقامة أسرته الدّائمة في حارة العمشان، فقد كان يشتغل بالحاضرة موظفا حكوميا لا يعرفُ أحد

---

2 - لم يهتد علماؤنا الأفذاذ إلى مقابل لهذه اللفظة، عزا بعض الخبثاء ذلك إلى أن المقدمات في هذا المجال لا تقف، عندنا، دون الولوج إلى الموضوع وإلى أن الولوج إلى الموضوع لا يحتاج إلى مقدمات، فكانوا ينطقونها مصحّفة حتى اكتسبت من الدلالات ما لا يوجد في قاموس.

على وجه الدقّة المؤسسة التي كان ينتسب إليها أو الوظيفة الذي كان يشغلها. كان يأتي المدينة مرة كل شهر أو كل أسبوعين فيتجّه رأسا، بعد المرور على الجزارين وباعة السمك والخضر والغلال والفواكه، إلى داره فلا يتركها إلا ليستقلّ سيارة أجرة، ترجع به إلى الحاضرة التي كان قد جاء منها. كان كأيها الناس يعيش نصف حياة أو أقل من ذلك بكثير. أمّا أولاده فكانوا معروفين، يسمّيهم الناس "أولاد قاسم"، يتندّرون بهم.

كان أكثرهم شهرة "الفتحي شهوات". اكتسب هذه التسمية لأنّه كان، منذ كان صبيا، ما رأى شيئا في يد غيره ورغب فيه إلا تمكّن منه بكاء حادّ يصحبه شهيق وعويل. يسأله الناس عمّا به فيقول " اشتهيتها" ويشير إلى الشيء الذي تاقت نفسه إليه. لاحظ الناس أنّ نوبة البكاء التي كانت تتمكّن منه وتستبدّ به بعيدة كلّ البعد عن الافتعال والتمثيل فأصبحوا، إشفاقا عليه، يمكّنونه من معظم ما كان يحرّك شهواته على ذلك النّحو العجيب. صاروا يستظرفونه ويقولون له معابثين: "إياك أن تشتهي أكبر مما يتسع له فمك. نخاف أن تختنق". أحيانا يقول بعضهم لبعض على سبيل المداعبة: "ما نخشى إلا أن يشتهي يوما نيكنا". ظل الفتحي مسترسلا في شغل الناس بشهواته إلى أن شبّ فوظّفه والده، قبل أن يسطع نجمه، حاجبا (فرّاشا) في إدارة المالية.

لا يعرف أهل مدينتي الطفل الثاني، وكان اسمه "نديم"، إلا بالنّمس. كان دائما يبدو غائبا عمّا حوله، كالتّائه. لم يتجاوز في دراسته الثالثة من التعليم الابتدائي. تردّد على كثير من الورش ليحذق صنعة من الصناعات فلم يفلح في شيء. كان خبيث الطويّة مهملا سارقا غشاشا مع تظاهر بالحياء إذ كان يكاد لا يتكلم. انتهى به الأمر صبيّ

خدمات في ورشة عصرية لصيانة السيارات وإصلاحها، ينظف المكان ويجلب الشاي والقهوة وسائر ما يعرض من صغير الحاجات. ١

أمّا "سالم" فقد اكتسب كنية "كاناسوكر" في المدرسة الابتدائية. كان المعلم يُلقي، في مادة الأشياء والوسط، درسا عن "قصب السكّر" عندما رفع سالم إصبعه وقال: "ينبت كثيرا بجنائننا، قرب السبخة". ضحك المعلم وقال: "أبدا. هذا مستحيل". تعنّت سالم وأصرّ وقال: "أقسم لك بجاه الوليّ صالح يا سيدي. لدينا منه الكثير". عاد المعلم إلى النفي فقال سالم: "آتيك منه، إذا شئت، بأطنان". كادت المسألة تقف عند هذا الحدّ لو لم يثرها تلميذ آخر بعد أيام بقوله: "سيدي. سيدي. لم يأتنا سالم بقصب الكاناسوكر". قال المعلم: "أنّى له ذلك وهو لا ينبت في أرضنا". قال سالم بإصرار: "آتيكم به بعد عطلة الأسبوع". كان قد أسقط في يده.

حصل على قصبة من ذلك النوع الرديء الذي ينبت بالمستنقعات قرب سبختنا، وثقبها بإبرة وحشاها بمسحوق السكر. وفي ساعة الدرس قدّمها للمعلم عيّنة من قصب السكّر الذي ينبت كثيرا بمدينتنا. قال المعلم: "هذه قصبة، لكنها ليست من قصب السكّر" فقال سالم: "بلى. هي كذلك. ألا ترى، يا سيدي، أنّ النّمل قد ثقبها البارحة بحثا عن السكّر الذي فيها". ألحق المعلم بسالم يومها عقابا بالغا. وعندما خرج التلاميذ راجعين إلى بيوتهم، انتظمت منهم وراء الصبيّ جماعة جعلت توقّع بالضرب على الحقائب والألواح "كاناسُوكر... كذّاب". لم يبق أحد بالمدينة لم يسمع بالنادرة أو يتندّر بها. لم يعد سالم إلى المدرسة. ظل بحارته مرابطا بالطريق ينتظر أن يقدّم للنساء خدمة من الخدمات البسيطة التي كانت تعرض لهن، لكنّه كان إذا انفرد بطفل من

أطفال المدارس تفنّن في إيذائه. وعندما شبّ أصبح يبيع الخضروات على حاشية من السوق البلدية.

انتشر، في مدينتنا، الخبر بأنّ صالح قاسم انتقل من خطة "كابورال" التي كان يشغلها إلى "كومندان"[3]. قالوا: كان وفيًّا جدّا خدوما أمينا ومتفرّغا تفرّغا تامّا لعَمله. فطن أحد رؤسائه إلى أنه صبور كتوم فاختص به وألحقه بالمصالح الخاصة جدّا التي كان يدعى إلى السهر عليها واستخلصه لخدمته. وعندما كانت الخطة تحبك لمقدم العهد الجديد كان صالح قاسم في الموقع المناسب في الوقت المناسب يقدّم الخدمات التي اعتاد عليها: جلب قوارير الماء المعدني وإعداد القهوة والشاي والسعي بين يدي رئيسه. لم يكن أهل مدينتي يقدرون على تبين الخطة التي كان فيها أو التي ارتقى إليها، ولكنهم كانوا يصرّون على أنّه أصبح "كومندان" بقرار رئاسي. تجادلوا في ذلك بمحضر المؤرخ الحزين، كانوا ينتظرون منه تدخّلا يرفع اللبس، لكنه ظلّ صامتا. استفزّه بعض الناس بقوله: "وأنت يا حضرة المؤرخ ما رأيك؟" فجرش رأسه مليا وقال: "اجعلوه مشيرا أو فريقا أريح لكم ولهذه الألقاب التي لا تعرفون معانيها".

ما كاد الخبر يشيع وينتشر وتتضوّع رائحته ويتنسّمها مدير إدارة المالية حتى طلب فتحي شهوات وقال له بعد التهنئة بما كان والده قد استحقّه عن جدارة من عظيم الترقية: "من اليوم فصاعدا، أفردنا لك مكتبا خاصا بك. لم تعد مطالبا باحترام التوقيت أو ملازمة المكتب". أراد فتحي أن يشكر فجعل المدير يستعظم ويعتذر وينوّه بصنعة التغيير.

3- الكابورال، في الخطط العسكرية، هو العريف والكومندان هو المقدم أو الآمر.

بدأ الفتحي يتردد على والده بالحاضرة. ثم أصبح يطيب له الجلوس في مقهى النخلة، بعد اجتثاث نخلتها وبناء نافورة في المكان الذي كانت فيه وتبليط أرضيتها وتحويل دكّاناتها إلى فضاءات تنتشر فيها طاولات مستديرة من حديد حولها كراس حديدية وقبل أن تقوّض بنايتها تماما لتتحول إلى عمارة في طابقها الأول مقهى صغير و "فاست فود". في هذه الجلسات كان الفتحي شهوات يلمّح إلى أنّ مناصب عليا بالدولة والمراكز الحسّاسة توشك على أن تحصل فيها تحويراتٌ وأنّ رؤوسا تسعى للإطاحة برؤوس لتحلّ محلها. أشعر الملازمين لطاولته، وكانوا قد بدؤوا يكثرون، أنّه أصبح قريبا من مصادر الخبر. تزاحم على مجلسه متصيّدو الأخبار: للشماتة بمتنفذي العهد البائد والتندّر بصُوَرٍ من الأذى الذي يعتقدون أنه ينتظرهم والاستعداد للتقرّب من الجددً تحسبا للفوز ببعض الغنائم. سقطت عن الفتحي كنية "شهوات"، لم تعد تذكر إلا في غيابه، وحلّت محلها عبارة "سي الفتحي" تنطق بتفخيم مفتعل لا يتناسب مع طبيعة أصواتها.

كان أهل مدينتنا كثيرا ما يستشهدون بالمَثَل الذي كانوا لا يذكرونه إلا متندّرين مستنكرين مستهجنين هازئين مع القسم بأغلظ الأيمان على أن أجوارنا الذين يمقتوننا كثيرا ما يعملون به، "بوس الكلب من فمّه حتى تقضي شُورِك[4] منّه"، غير أنهم كانوا، في نطاق التكتّم والسّتر، لا يتوانون عن بوس الكلاب من أفواهها وغير أفواهها. المهمّ ألا يسمع بذلك أو يراه أحد. فما كاد ينتشر أنّ " سي الفتحي" أصبح قريبا من مصادر الخبر ويشتد الزحام على طاولته بمقهى النخلة حتى هيّأ صاحبُها ركنا فيها، جعله خاصا بمجلس زبونه المبجّل.

4- الشور هو الغرض المطلوب.

كثر الذين يعرضون على سي الفتحي، عند منصرفه، مرافقته إلى باب داره. كان كلّ منهم يتطلّع، بكثير من اللهفة، إلى الفرصة التي ينفرد فيها به ليهمس له كلاما يختمه بتقديم بيانات عن المطلوب مشروحا شرحا ركيكا ضافيا في ظرف من الظروف الصفراء التي كانت تستعمل عندنا في المراسلات الرسمية. كانوا في الكلام الذي يهمسون له به يُفيضون في معنيين يحرصون على أن يبالغوا فيهما إلى حدّ المغالاة. يكشفون في الأول، بكثير من التفاصيل المملّة، عن فساد الناس وعسر الحال وشدّة المعاناة والعجز التامّ عن المواجهة أو الاستمرار في التحمّل. كانوا يختمون كلامهم في هذا المعنى الأول بقولهم: " لولا أن قتل الإنسان نفسه حرام في الشريعة ودليل ملموس على الجبن في هذه الدنيا الكلبة، كان الواحد انتحر وارتاح ". وأمّا الثاني فكانوا يكشفون فيه عن الصبر والتكتّم وعزّة النفس والعزوف التام عن اللجوء إلى من يظلّ إلى الأبد يلاحقهم بالمنّ عليهم. وعند تقديم الظرف كانوا يقولون: " ما اتجهنا إلى غيرك، يا سي الفتحي، ولا قصدناه. ما نبغي المعروف إلا منك. ما يقدر عليه سواك لا يساوي عُشُرَ ما تقدر أنت عليه. أكلُّ مَن يسوّد وجهَه يصبح فحّاما؟ قيمة المعروف في مصدره ".

استطاع " فتحي شهوات" أن يلبّي بعض المطالب القليلة من قبيل تشغيل بعض العاطلين والعاطلات عن العمل من حملة الشهادات العليا في خطط أدنى بكثير مماّ تؤهّلهم له شهاداتهم، والحصول على بعض التراخيص تافهة القيمة. كان ذلك، حسَب ما كان يعلنه، لوجه الله فازداد إقبال الناس عليه اتساعا. كثر المتزاحمون على مجلس سي الفتحي. أصبح لا يرجع إلى بيته إلا وقد تورّمت جيوبه بالمطالب والخطابات. وعندما تورّمت بعض الظروف بالأوراق النقدية استصفى

له خاصّة من أصحابه ووضع لكل خدمة سعرا يُدفع نصفه مقدّما "بالميت" والنصف الثاني بعد الإنجاز.

شاهد المؤرخ الحزين الناس يتزاحمون على الرّكن الذي كان يجلس فيه الفتحي شهوات بمقهى النخلة فقال للذين كانوا حوله: "كنت دائما أقول لكم إنهم قد تدجّنوا وذلّوا حتى أصبحوا عبيد العصا. انظروا، تأمّلوا جيدا كيف تصنع الضحيّة جلاّدها. ما أبرعهم في تحويل الفئران إلى جبال". نقل هذا الكلام لسي الفتحى فأوصى أصحابه بالمؤرخ خيرا سابغا وانقطع عن التردد على مقهى النخلة. أصبح له مجلس خاص يستقبل فيه روّاده بدار جديدة فرشها على طراز عصري فخم. في تلك الأثناء هجمت عصابة من أوباش اللصوص على المؤرخ الحزين فكسرت له ضلعين وهشّمت أنفه فلم يعد قادرا على شمّ الروائح من بعيد.

تولىّ إدارة المالية مديرٌ جديد من الذين كانوا يعتقدون، اعتقادا راسخا، في القيم التي لقنوها في المدارس فضائلَ لا تختصّ بمكان أو بزمان، فأبدى صرامة في التقيّد باللوائح والقوانين. كان يقول: " دولة القانون ملزمة بإجراء القوانين على الجميع". سأل عن " الفتحي" فقيل له إنّ المدير السابق كان قد أكرمه بالترقيات والإعفاء من الحضور. قال: "هذا لا يجوز. يفتح علينا أبواب التسيّب. ينتهك هيبة الدولة". وأرسل في طلبه. قال له عندما مثل بين يديه : " الأفضل لك، يا سي الفتحي، ولسير العمل بالمؤسسة والصالح العام أن تطلب تفرّغا للشّأن الخاص قابلا للتجديد. نحن على أتم الاستعداد للموافقة عليه حالا". لم يقل الفتحي شيئا ولكنه تجاهل المسألة. أرسل المدير، بعد أيام، خطابا يلفت فيه نظر الحاجب " فتحي قاسم" لغياباته المتكرّرة ويدعوه إلى

تسوية وضعه قبل نهاية الشهر. يبدو أنّ حزم المدير قد وجد صدًى طيّبا عند رؤسائه فسارعوا بنقله إلى بلدة نائية بها إدارة مالية تردّت فيها الحسابات لبعدها عن الحاضرة. جعل أتباع سي الفتحي والمتزلفون له ينشرون، بنبرات هازئة، أنها " ترقية" عظيمة تستحقها كفاءته. سمع المؤرخ الحزين بالنازلة فحرص، رغم العلل التي بدأت تنخره، على أن يزور ذلك المدير في بيته. استلطف له وتأسّف طويلا على تخريب المواهب النيّرة وانتهاك القوانين وقال، مازحا:" يبدو أنك لم تعدّل بعد ساعتك على إيقاع العهد الجديد. أخشى أن يحسبوها من الخردوات". ضحك المدير، وكان يحزم أمتعته للرحيل، ونهض واقفا كمن يبحث عن شيء حتى إذا عثر عليه ابتسم وقدّم للمؤرخ قلما فاخرا كان يحتفظ به. تأمّل المؤرخ الحزين القلم مليا وقال:" إيه. انتظرته طويلا. لم يأت إلا بعد فوات الأوان".

جعلت دائرة أعمال "سي الفتحي" تتوسّع وتتوسّع حتى شملت معظم أوجه النشاطات الحساسة بالمدينة وغير الحساسة. أصبحت العمليات البسيطة والكبيرة تمرّ به، وازدادت، مع الأيام، الظروف التي كانت ترد عليه تورّما بالأوراق النقدية. تسابق مدراء الفروع البنكية بالمدينة إلى التقرب منه بنصائح في الاستثمار كانوا يُسْدونها له وقروض ميسّرة كانوا يعرضونها عليه لتطوير ما كانت الدولة قد اضطرت، تحت ضغط صندوق النقد الدولي، إلى التفريط فيه من ممتلكات الشعب لصالح القطاع الخاص حدًّا من المصاريف الزائدة. أصبح "سي الفتحي" فجأة يعدّ من أثرى الأثرياء لا بالمدينة وحدها بل بالجهة كلها.

لم يكن نعيم النّمس غافلا عما بدأ أخوه يمرح فيه من خيرات، فارتفعت عينه إلى أن ينال منها نصيبا. أحاطت به طائفة من الأتباع

بدأت تتحرّك وتضطرب، غير أنها جعلت تدعس على المجالات التي كان أتباع أخيه الفتحي قد نسجوا فيها شباكهم، من تشغيل أو وعد به إلى دسّ للأنف في صفقات البيع والشراء وتدخّل في النوازل والقضايا والحصول على التراخيص وتخفيض الضرائب وسائر ما يدخل في باب المصالح والخدمات. أصبح نعيم كثير التردد على الحاضرة لمقابلة والده. كان يدفع له، في كل مرة، بقائمة في التدخلات التي كان يطلبها. أدّى ذلك إلى حصول تصادم بين الأخوين سرعان ما بدأ يتحوّل إلى صراع شرس على الفرائس. كان ذلك، حسب أهل مدينتي، بمناسبة اشتراء أحد المقيمين بالخارج من أبناء مدينتنا سانية " أم الحمام" الشهيرة. كان المشتري قد اشتغل طويلا في أحد البنوك العالمية، وعندما رغّبه إخوته في شراء هذه السّانية استجاب حرصا منه على نفعهم وتمتين الصلة بالمدينة التي نشأ فيها وشفاء للنفس ممّا كان قد اقترفه الحاج جريّد من مخزيات[5]. كان الرجل عارفا بطبيعة الصفقات التي تُعقدُ في العالم المتخلف، فعبّر عن استعداده لأن يدفع لسي الفتحي نسبة مئوية من سعر السانية. لكن إخوة المشتري، وكانوا واقفين على إتمام الصفقة، قد تفاجؤوا بأعوان سي نعيم يطالبونهم بنصيب سيّدهم. رفعوا لأخيهم الخبر فأرسل إلى الفتحي من يعلمه بإبطال الصفقة وأوصاه بأن يقول له حرفيا: " تكبير اللّقم يغصّص، يضرّ بالصحة ويقطع الشهوات". غضب الفتحي، عندما بلغه هذا الكلام، غضبا شديدا وأتى أخاه في مجلسه فأسمعه بمشهد من أعوانه " وسخ الأذنين". قال أهل مدينتنا شامتين متندّرين : صادفت امرأةُ نعيم، وهي قليلةٌ صخَّابة شديدة التهوّل في اللباس والزينة، امرأةَ الفتحي، وهي مُسْتخسَّة جدّا، في عرس فقالت

5- ورد ذكره في روائح المدينة.

لها:" يا هاملة يا عريانة، يا بنت الحفيانة، ما زلت بـ"حرّاثك"[6] حتى دفعت به إلى قطع أرزاقنا؟". قالت الثانية:" أنا هاملة وبنت الحفيانة يا جوعانة يا فاسقة. نسيت أن أباك كان يريّش الدجاج في الرّحبة؟ " قالوا: "كاد الحفل يفسد من فرط ما انتشر فيه من بذاءة نتنة".

ارتقت النازلة، عندما لاكتها الأفواه وتناولتها بكثير من التزيّد والتنميق، إلى صالح قاسم فنزل على أولاده كالقضاء. قال غير واحد إن سالم كاناسوكر هو الذي طار إلى والده بالعاصمة وقصّ عليه خبر الواقعة. كان سالم قد حصل، بطريقة ملتوية، على لِزْمة الأسواق بالمدينة، مكّنه منها بطرق ملتوية رئيس البلدية، فأصبح المزوّد الوحيد لصغار التجار. ذاق طعم المال وتلفّع برائحته وبدأ يفكر في إقامة مجمع للأسواق عملاق. خاف من أن تتأثر مشاريعه من الخصومة التي اشتعلت بين أخويه فتسرّع في الحصول على قرض كبير وسّط فيه متنفّذا جديدا ذا صحبة قديمة برئيس الوزراء واتجه إلى أبيه يحثه على تدارك الأمر برأب الصدع بين الأخوين قبل أن يأكل أحدهما الآخر. حلّ صالح قاسم بالمدينة بعد الغروب. جاءت به سيارة آية في الفخامة. دعا أولاده إلى بيته فقرّعهم ساعة. خصّ ولده سالما بكثير من الشتائم ناعيا عليه لجوءه إلى مَن لا شأن أو وزن له. قال نافخا حنكيه:" لو دعوتُه إلى أن يمسح لي حذائي كان يلبّى فرحا مسرورا". عندما كان يُسمعهم ما يقال ولا يقال عن خرقهم في التضييق على الناس وابتزازهم لهم رفع نعيم النمس رأسه وقال:"الناس الكلّ تعرف أنه (وأشار بسبابته إلى فوق) يأكل ولا يشبع . أقاربه أصبحوا كالجراد، يأتون على الأخضر واليابس. أترضى لنا، وأنت من أنت، أن نبقى في صفوف المتفرجين؟"

6- كناية عن الزوج وهي من فصيح لغتنا.

زجره والده بلفظة نابية ورماه بمنفضة كانت أمامه لم تصبه ثم تماسك وقال: " أحدّد لكل منكم المجال الذي يتحرّك فيه. وأيّ اعتداء أو تجاوز أو خطأ لا يلومنّ الواحد منكم إلا نفسه. والله والله، أدمّركم جميعا. هذا العهد خاطرنا برؤوسنا من أجله. أريد، وافهموا هذا جيدا، أن تأخذوا الناس بكثير من الحكمة. كلما كنتم لطافا معهم وغيّبتم عنهم "الغرزة"[7] ذهلوا وتاهوا عما تريدون.

أبقى للفتحي على مجاله وجعل لنعيم النمس قطاع الميكانيك بما في ذلك شركات التأمين وقطع الغيار وورشات الصيانة والإصلاح بشتى أنواعها. وجعل لسالم كاناسوكر لزمة الأسواق ورخص البناء والمتاجرة في العقارات والخزن والتسويق. قالت البنات، وكان قد تناهى إليهن خبر اللقاء فأسرعن جاريات: " لم يبق لنا إلاّ... (العبارة قبيحة جدا) نقعد عليه في الشمس". انتحبن ورفعن الصوت نائحات. قال صالح قاسم: " حرّكن أصحاب الرّكب الثقيلة، "مهارسكن"[8]، لكن في غير المجالات التي ذكرتها لإخوتكم، عليهم بمجال الاتصال مثلا".

سمع المؤرخ الحزين بهذا الاجتماع التاريخي فقال، في مقهى رضاب الهضاب، في أطراف المدينة بعيدا عن عيون كثيرة كان يوقدها وراءه متعلّقون شُدَاة بأذيال العهد الجديد : " ما أظننا إلا بصدد الانتقال إلى عهد جديد فعلا، فبعد أن جرّبت البشرية الملكية والأرستقراطية والبرجوازية والبيروقراطية والكليانية والنظم الأمنية ومشتقاتها جميعا، ها قد بدأنا ندخل في عهد الدولة الأوباشية. ما استمرأنا في ظل دولة

7- من غرز، أثبت الشيء في شيء آخر كالخيط في الثوب لإحداث عقدة خفيّة جدا. لها في المجاز استعمالات كثيرة تجتمع في الاحتراس والتعمية والتضليل لإدراك الغايات والمقاصد.

8- جمع مهراس، كناية أخرى عن الأزواج غير الموفقين إلا في أداء وظائفهم البيولوجية.

الاستقلال والسيادة طعم الاستبداد وألفناه حتى أضاف إليه عهدكم الزاهر هذا الفساد. استعدوا لاستمراء الطعمين. استعينوا عليهما بالسواك الحار أو البوخة أو قليل من الألكول والبصل".

نقل هذا الكلام إلى قاسم في عرينه بالحاضرة بعد مسخه بكثير من التزويق البذيء فأوعز لبعض الأجهزة بضرورة ترويض هذا المعتوه حتى يسكت عن التجريح في الدولة ويكف عن الولغ في أعراض رجالها. افتقد الأفراد القلائل الذين ظلوا يُقْبِلون على الطاولة التي كان يلازمها المؤرخ الحزين فسألوا عنه، فقيل لَهم: " أما بلغكم الخبر؟ المسكين هاجت عليه لوثة في المخ حتى كبرت به في إحدى المدن الشاطئية فجعل يسب البلاد وأهلها أجمعين. هجم عليه بعض الصعاليك يريدون به شرا. لو لم يفتح عليه الله بسي الفتحي ورجاله كان قد هلك لا محالة أو غيبته بعض السجون... انتزعه من بين أنياب الفيل. أمر بأخذه إلى أفضل المصحات بعد أن شهد بأنه يعرفه ويعرف أنه، وإن كان مسكونا بإحدى الأرواح الشريرة، غير مؤذ. بلغنا أنه يتحسن. سي الفتحي يسأل عنه كل يوم. لا يكفّ عن التوصية به. قال:"أرسله على حسابي، إذا دعت الحاجة، إلى أشهر المصحات العالمية المختصة في علاج الهلواس". همس بعض الناس لبعض أن المؤرخ شوهد فعلا بمطعم بإحدى المدن الشاطئية ثم بلغهم أن فرقة مختصّة في ما لا يعرف أحد قد قبضت عليه وساقته إلى مقر من مقراتها الخفية. ثمة من زعم أن أعوان الفرقة قد عنفوه. سأل عنه أصحابه رجال الأمن بمركزي الشرطة والحرس بمدينتنا والمدن الشاطئية المجاورة فلم يفيدوهم بشيء واضح. أرسل آخرون إلى الفتحي شهوات من أخبره بأن المؤرخ مفقود وأن أصحابه قلقون عليه فقال:" لا خوف عليه. المسألة تحت السيطرة. أمر

المؤرخ يعنيني أنا قبل أيّ أحد. أبناء المدينة كلهم في عهدتي". بعد أيام نشر أتباع الفتحي الخبر الذي تناقله الناس بكثير من الارتياب. قالوا إن المؤرخ أفرط في السكر فتفوّه بكلام بذيء في مسؤولين كبار بالدولة. ظهر المؤرخ بعد أكثر من شهر. زاره، في بيته، جمع كبير من الناس. وعندما اختلى به بعض المقربين منه وسألوه عن الخبر قال:" شيء لا أحب أن أذكره. حادث بسيط أتمنى أن يكون معناه فيه لا يتعدّاه إلى ما هو أكبر منه". لكن الذين يعرفونه جيدا لم تفتهم حالة التحطم التي أصبح فيها. ظل بضعة أشهر كمن ينوء بهمّ ثقيل لا يفصح عنه.

تقاسم أولاد قاسم القطاعات التي حددها لهم أبوهم وأوصاهم بأن يتنازلوا، من حين لآخر، عن بعض الفتات للبنات. قال لهم:" ما هنّ إلا أخواتكم". أصبح لا يدخل خيط في إبرة في مدينتنا إلا وفي جيوب آل قاسم منه أجزاء.

أقبل الفتحي شهوات على شعره يسرّحه بأفخر أنواع الجَال ويضع نظارات سوداء من أشهر الماركات وسوارا في معصمه الأيمن وسلسلة ذهبية في عنقه وخاتما من الألماس في بنصر يسراه ويلبس البدلات الفاخرة المستوردة من أشهر بلدان الأناقة الفخمة، وكان منتفخ الخدين مدلوق البطن نامي المؤخرة قصيرا بالنسبة إلى أخويه، فسماه بعض الخبثاء " حُزُقَّه" لكنّ التسمية لم تسر فللتاريخ أحكامه في ترسيخ تسمية " الشهوات". كانت قد كبرت به حتى أصبح لا يرى شيئا يعْجبه إلا أمر أتباعه بالجدّ في الحصول عليه.

اتجهت شهواته إلى السيارات الفاخرة فاشترى منها أنواعا لم تشاهد بمدينتنا. ثم انتقلت إلى الدور الشهيرة التي كان يتوارثها الأعيان والأثرياء حتى فسّر ذلك بعض المتبحرين في علم النفس بتعقّده من

البيت الزريّ الذي كان يقطن به في زقاق ضيق بحارة الشملان. انتقل، بعد ذلك، إلى اشتهاء المتاجر والعمارات والمصانع والورش فكلب في الاستحواذ عليها. تندّر الناس، بين إعجاب واستنكار، أن أتباعه كانوا يأتون صاحب الدار أو العمارة أو المتجر أو المعمل فيقولون له:" ثمة مَن يرغب في..." ويذكرون الملكية باسمها أو موضعها أو اختصاصها. يظل المخاطَب متحيّرا لا يقدر على الكلام فيقولون له:" ما لك يا سي فلان؟ البيع والشراء قد أحله الله. ما عليك إلا أن تذكر السعر. المال موجود والحمد لله. حقوقك مضمونة ألفا في ألف". فإذا جمع شجاعته وقال:" ليست للبيع" قالوا له :" فكّر في الأمر مليّا. خذ راحتك. نمرّ عليك لاحقا. نصيحة لوجه الله، لا تطل التفكير". فإذا تمسّك بالرفض تردّد على مجلسه أو المجالس التي يشهدها من كان يسهب في الشكوى من عبث الزمان وشراسة الجور والقهر والظلم مستشهدا من ألوان المصائب التي نزلت على الذين سوّلت لهم أنفسهم التعنّت والممانعة ومعاكسة أولاد قاسم وسائر المتنفذين في رغباتهم بما يكفي قليلُه لأن يزرع الرعب الأزرق في أشد الناس رباطة جأش. يقلّب المتحرّز بالرفض تلك الحكايات في ذهنه ويحمد الله على أن بعض الشرّ أهون من بعض ويسارع إلى التفريط فيما طلب منه التفريط فيه.

كثر الكلام المنوّه والمندّد بجرأة هذا القرش الذي سطع نجمه في مدينتنا حتى حيكت الأساطير حول طول يده وتدفق الأموال عليه من كل صوب. استولى على " الدار الحمراء"[9]. قيل له عندما اتجهت إليها شهوته إنها مسجلة في " التراث" فضحك واستظهر أعوانه بما ينزع عنها هذه الصّفة. زارها متفقدا لها رفقة جمع من كبار المهندسين ثم

9- ورد ذكرها في روائح المدينة.

أمر بتقويضها. تصدّعت من التقويض دور كانت تجاورها فاشتراها من أصحابها وشيد في الفضاء الذي حصل عليه عمارة بدت في تلك الحارة القديمة نشازا شديد البذاءة.

بدأ التخوّف المشوب بالحسد ينتاب بعض الناس فرفعوا صوت التضجّر من هذه الآفة، لكنهم كانوا كالمجمعين على أنه لا حول لهم ولا قوة أمام دواليبها الكاسحة.

كانوا بين توجّس وحسَد وإعجاب، يستشهدون على دهائه بالكيفية التي حصلت بها سانية " العُوسْجَه" في ملكيته. كانت هذه السّانية تقع في قطب هنشير " المحاميد". كان هذا الهنشير في عهد البايات، حسب المؤرخ الحزين، أرضا خلاء شاسعة مهملة تمتلئ بالسكّوم والطرفاء والسدر والخروب الجالي والأفاعي والثعابين والثعالب والذئاب والخنازير. وعندما جرّب البايات، في إخضاع العباد وهتك الأعراض والإغارة على الممتلكات والفتك بخصومهم من أبناء عمومتهم، سياسة إجلاء القبائل والعروش عن المواطن التي كانت تتحصّن بها بالجبال والصحاري وتشريدهم في البلاد طولا وعرضا، بعد إحراقها وتخريبها، حتى لا يلجأ إليهم أحد من العصاة أو الطامعين في الحكم، نزل فخِذ من "المحاميد" غير بعيد من مدينتنا التي لم تكن وقتها مدينة. سمع بهم ابن نبيه من أبناء "القِيَاد" المعطلين عن الخدمة، وكان هذا الابن قد استعان بعلاقات والده القديمة وببعض الرشاوى فحصل على تلك الأرض المهملة التي تكاد لا تصلح إلا للمرعى في أقرب أطرافها من العمران، فأسرع إلى شيوخ المحاميد وعرض عليهم العمل مغارسة في أرضه. زار الشيوخ الأرض وتشاوروا أياما، وقبلت طائفة منهم العرض فاستقرت على حاشية منها أقامت فيها مضاربها.

ظل الرجال والنساء والصبية أعواما كثيرة يستصلحون تلك الأرض تحت عين صاحبها. حفروا آبارها الأربع وغرسوا ثلاثة أرباعها زيتونا وأشجارا مثمرة، وجعلوا الربع الأخير للزراعات الفصلية والرقيقة. وعندما أثمرت الأشجار وأعطى الغرس خيراته، وفى ابن القائد بوعده، على أن يظل المحاميد وأبناؤهم قوامين على أراضيه. وهبهم شريطا من الزياتين التي كانت تطوّق السانية من الجهات الأربع، وأمرهم بأن تكون بيوتهم في الجهة التي تحاذي الجادة العامة قبل أن يتمّ تعبيدها. كان التدبير عنده أنّ ما منحهم إياه أرض مشجرة مبذولة للمارة عرضة للسرقة والنهب وأن إقامتهم بها تجعل منهم حزاما عازلا يحمي سانيته. أقام ابن القائد في أرضه قصرا جميلا كان يقيم فيه بضعة أشهر من كل سنة. لم يلحق " العُوسْجَه"، وهو الاسم الذي كانت تتسمى به زوجة ابن القائد المعطل عن الخدمة فأطلقه على أرضه تلك إكراما لها وتيمّنا بما كان يلقاه منها من صنوف الموافقة وحسن المعاشرة، أيُّ ضرر في مختلف العهود الكالحة التي مرت بها البلاد من شمالها إلى جنوبها، بل استفادت منها جميعا وازدادت حسنا على حسن.

كان أولاد ابن القائد المعطل عن الخدمة في نباهة أبيهم، يكثرون من الإحسان إلى المحاميد ويتملقون كل صاحب نفوذ مهما كان باستضافته وتطويقه بالهدايا درءً لشرّه. جلبوا لتلك الأرض من غريب الأشجار والأزهار من أقاصي العالم ما جعلها مشهورة وجنّة من الجنان. كانوا يستضيفون فيها أعيان اليهود وبعض الفرنسيين والأجانب فيقيمون لهم فيها الولائم الفاخرة والحفلات الخاصة.

كان يطيب للمؤرخ الحزين أن يقول، كلما جرى لتلك السّانية ذكر:" شاهدت بالمتحف بباريس، عند زيارتي لها، لوحة زيتية رسمها

فنّان إيطالي مشهور على النطاق العالمي سماها "الزيتونة". كانت تلك اللوحة قد رسمت بالعوسجة. ذكر لي بعض الثقاة الخبيرين بتاريخ المدينة أنه نزل بها ضيفا فارتاح لها فجعل إقامته فيها بضعة أسابيع. كنت أتأملها وإحساس ملموس يغمزني بأني في تلك السانية نفسها حتى كأن نسيمها كان ينعشني عندما أقبلت كوكبة من العجائز يحففن بإحدى الدليلات الضّالعات بمعرفة الفنون. جعلن يتأملنها مندهشات مصغيات، بكثير من الانبهار، إلى المرأة العالمة وهي تقول: "استلهمها الفنان من زياتين إسبانيا وأضاف إليها خصائص زياتين إيطاليا. حزم الضوء هذه الوافدة من لا مكان تمتزج بحزم أخرى منه تنطلق من الأرض فتشعّ بها الأوراق والأغصان. استقرّ مزيج الأضواء كلها على الجذع فأصبح كالمنبعث منه نورا على نور". اقتربتُ من ذلك الوفد وقلتُ: " اسمحن لي، سيداتي الفاضلات، تقديرا للحقيقة، أن أؤكّد لكنّ أن هذه اللوحة رُسمت في مكان أعرفه معرفة جيّدة. هذه الشجرة التي ترينها في اللوحة ما زالت قائمة ببلادنا". نظرت العجائز إلي مندهشات برهة. هممن بالانصراف مترفعات على فضولي الأخرق، فجعلتُ أقول:" نزل هذا الرسام ضيفا على أجدادنا وأقام في الضيعة التي بها هذه الزيتونة، وفيها رسمها. انظرن أيتها السيّدات إلى جذع الشجرة كيف اكتسب من خفيف حمرة الأرض الصهباء شعلة من لهب تبدو كامنة تحت قشرته. والظل، تأمّلن جيدا كيف جعله معلّقا في الهواء. هل رأيتنّ ظلا لا يستلقي على الأرض. والأرنب الآبد في مرقده هل فطنتنّ إليه قريبا من قطعة نبات النّجم الملتف بعضها على بعض عند منبت الجذع، فهو لا يكاد يُرى. ونبات النّجْم نفسه هل رأيتنّ كيف جعل الرسامُ أعاليه واقفة مشرئبة بأعناقها إلى السماء.

اللوحة يا سيداتي عبادة للجمال وصلاة خاشعة لروعة الحسن. الحسن نور والنور..." . مطّت المرأة شفتيها استخفافا بكلامي ودعت مرافقاتها إلى التحوّل إلى لوحة أخرى فظللت بمكاني متسمّرا تجيش بقية الجملة في وجداني دون أن تكتمل[10].

آلت " العوسجة" إلى أحد أولاد أحفاد القائد المعطل عن الخدمة. أصبح، عندما عاكسته الأيام، يتعاطى تجارة لا يفلح فيها. كان معتزّا بالأصول التي يتحدّر منها، يعتدّ بها ويمعن في التعالي حتى التعجرف أحيانا. كان المحاميد قد فرّطوا في زياتينهم وانتشروا في بيوت قصديرية على حافات المدن. سمع الفتحي شهوات، في بعض مجالسه، ذكرا رومانسيا لسانية " العوسجة" . فقام بزيارتها ووقف على قصرها الذي بدأ يسري فيه الخراب وأظهر حزنا وأسفا على الصفصافات اليابسة حواليه. تفقّد الآبار وكاد يذرف عليها دمعات. وقف تحت صفّين من أشجار يابسة لم تبق منها سوى جذوع باسقة كالأعمدة الأسطورية فقيل له :" هذا ما بقي من القسطليات. كان شعراؤنا، عندما ركبهم شياطين الشعر، يشبّهون لون ثمرها بلون الحلمات في ثديّ الصبايا الساحرات " فتملكه العجب وقال:" ما خطر ببالي قط أن القسطل ينبت ببلادنا" . أرسل أعوانه لابن الذّوات الذي باتت السانية في ملكه. فاتحوه في شرائها وعرضوا عليه ثمنا مغريا. سأل الرجل عن الشاري وعندما ذكروه له استشاط غضبا وشتم الذين خاطبوه في شرائها ونعت صاحبهم بنعوت بشعة لم يستثنهم منها. قالوا:" كان

10- لم يذكر المؤرخ اسم الفنان. وعندما أجرينا بحثا طويلا في اللوحات التي تحمل اسم الزيتونة عثرنا على أربع منها رسمت في عصور مختلفة من قبل فنانين مختلفين منهم المشهور والمغمور لم تكن من بينها اللوحة التي ذكرها المؤرخ الحزين.

يومها منحرف المزاج فلم يقدر على مسك لسانه". نُقل كلامُه حرفيا للفتحي فظل ساكتا. صرفه تقليب النظر في الوصول إلى غرضه عن الاسترسال مع الغضب.

يقول أهل مدينتي، في صيغ من الرواية مختلفة: إن الفتحي اشترى من المحاميد جميع الزياتين التي تحدق بالسانية. حصل عليها بمنتهى اليسر بسبب الإهمال الذي لحقها. ثم حرث الطريق التي تربط بين الجادة الكبيرة العامة والسانية فأدخلها في أرضه. سمع صاحب " العوسجه" بذلك فأرسل إليه من خاطبه في أمر الطريق. ضحك الفتحي في وجه مخاطبه وقال:" إن كان له فيها حق ناله". نشرت القضية في المحاكم واستظهر صاحب السانية بوثائق المغارسة حجّة على حقّه في الطريق إلى أرضه. لكن القضاة لم يقتنعوا بها وأبرموا حكما باتا في صالح الفتحي. تدخّل في النازلة، عندما كبرت، كثير من الناس. ظلّ الفتحي ثابتا على موقفه. قال للذين خاطبوه في المسألة:" أسمح له على سبيل الإحسان والتمزّي بأن يمرّ إلى سانيته، من أيّ مكان شاء، مرّتين لا أكثر في السنة". شاح ريق الرجل بضعة أشهر ثم أرسل للفتحي مَن جعل يترجّاه أن يشتري منه العوسجة. أخذها، بعد دهر من التلكؤ، بثمن بخس. صرف مالا كثيرا في استصلاحها. لكن ماءها كانت قد داخلته الملوحة ودبّ الهرم في أشجارها المثمرة وزياتينها وزحفت عليها أشجار أخرى وحشية ومفترسة لم يكن للناس بها عهد في تلك الجهة. روّج بعض الناس، حسدا ونميمة، أن الفتحي سيّج السانية وضرب عليها حراسة مشددة عندما بدأ يغرس فيها " التكروري"[11]، يجلب له الماء العذب من المدينة في خزّانات. كان يصدّر غرسه الحرام إلى بعض

11- نوع من القنّب الهندي، نبات مخدّر.

البلدان البعيدة، يموّهه بتصدير الزهور إلى تلك البقاع النائية.

فاحت رائحة " العوسجه " بالمدينة فأسقط في يد معظم من كانت نفوسهم تسوّل لهم الاحتماء بالقضاء عند الممانعة في التفريط في ممتلكاتهم. كانوا يقولون:" القضاء خيط من المطّاط يأتي دائما على مقاسات الأثرياء والمتنفذين".

خرج المؤرخ الحزين ذات عشية إلى مقهى النخلة فاجتمع عليه في الركن الذي كان يجلس فيه بعض المعجبين به. تجاذبوا معه أحاديث شتى ثم شرعوا في التأذي من الروائح الجديدة التي أصبحت عاصفة عليهم. طلب منهم أن يصفوها فتكلموا وأطالوا فقال :" هل تشمّونها بالأنوف فقط أم أنّكم إذا فتحتم الأفواه للتنفس لصقت بالألسنة ونشبت في الحلوق وكوتها بمرارة نتنها؟". قالوا:" نعم". قال:"هل نفذت إلى الأذهان وتغلغلت في الأدمغة فرسخت فيها حتى لم تعد تبرحها". قالوا:" هي كذلك". قال:" إذا نمتم هل تشعرون بها تهجم عليكم كوابيس مرعبة؟" قالوا:" تكوي أنوفنا ونحن بين اليقظة والنوم فتسري منها في عروقنا أوجاع لا تحتمل". قال:" قد وَحَل المنجلُ في القُلَّة... تعرفون البقيّة. اختاروا بأيّهما تضحّون. ما ذهب في ظني قطّ أنكم تذلّون إلى هذا الحدّ. تركتموها تخمج حتى إذا تعفنت أصبحتم من نتنها تتأذّون". قال له أحد الشبان، عندما جرى ذكر أولاد قاسم:"عجبنا من الحكومة لا ينقطع. تراها غير عارفة بما يأتي هؤلاء وأمثالهم من الأشكال المقلّبة؟". جرش المؤرخ رأسه طويلا وقال:"يحتاج الجواب إلى تحليل طويل ما أظنكم تصبرون عليه". ضجّ الحاضرون مستنكرين بكلام مبهم وقال واحد منهم:" أصبحت تكثر من التسويف. أفرطت في أكل الجبن حتى صرت جبانا. سماعنا

منك مضيعة للوقت".

سكت المؤرخ مليّا وتأمل المجتمعين حوله واحدا واحدا وقال: "أسفي عليكم لا ينقضي وحزني لا ينقطع. ظننتكم أذكى من أن تطرحوا هذا السؤال. إذا كانت الحكومة تعلم وتصرف النظر فهذا أمر خطير معناه أنها متواطئة. أمّا إذا كانت لا تعلم بما يعرفه الخاص والعام فهذا أخطر. قد سلّمتم لها الأمانة فحكّمتموها في دمائكم وأموالكم وحاضركم والمستقبل. بينكم وبينها في هذا تعاقد وعهد. فإذا كانت عاجزة عن المعرفة بشؤونكم فهي عن حمايتكم من جميع ما قد يتهددكم أعجز. لم يبق في الحالتين سوى العصيان. العصيان العام، الرفض، التمرّد، الخروج إلى الشوارع والساحات، المواجهـ..." وانبهرت أنفاسه حتى ازرقّ وجهه فنهض وانساب مع الزحام راجعا إلى بيته بخطى ثقيلة لا يلوي على شيء. نهض وراءه شاب من صنائع العهد الجديد كان جالسا غير بعيد منه يلتقط الكلام، وفي أحد المنعرجات التي تغصّ عادة بالمارة استل من تحت الثياب خنجرا ووجأ به المؤرخ في خصره مرتين وانسل خفيفا. ازورّ المؤرخ وأطلق آهة وانحنى متكوّرا على جرحه واختلفت قدماه فخرّ طريحا. جرى إليه المارّة وإذا بالدماء تنفر من خاصرته.

صرخ الناس واضطربوا. هرع إليه أعوان من الشرطة كانوا ينظمون حركة المرور. أوقف صاحب سيارة عربته وصاح " هاتوه! هاتوه!". لاحت سيارة إسعاف من بعيد، كانت مارة فأشار لها شرطي بالتوقف وأجبرها على أن تطير بالجريح إلى أحد المستشفيات. هرع صَحْبُ المؤرخ يتبعهم كثير من الناس إلى حيث نقلته سيارة الإسعاف فطمأنهم عليه الأطباء. قالوا لهم :" كان محظوظا مرتين. لم تنفذ المدية إلى

القلب، خدشت الكبد فقط ولم تصل إلى الرئة، وكان الإسعاف كأنما في انتظاره".

زاره في مساء ذلك اليوم مسؤول كبير بالحزب والحكومة. استلطف له وأبلغه أن البحث جار عن الجاني. ابتسم المسؤول الحزبي وقال:"صدور الشبّان ضيقة وعقولهم محدودة. لا يحسنون الفهم فتسوء ردود أفعالهم". ظلّ المؤرخ صامتا. كان كمن في غيبوبة، ترمش عيناه لا غير. نقلت الحادثة إلى الفتحي شهوات فأسف على نجاته وقال:" أعمار الكلاب طويلة. ليتنا ارتحنا من شرّ ما ينفثه من سموم. يحسدنا على رزق أنعم به الله فهو يهيّج علينا العامة ".

غير أن هذه الروائح التي لم يقدر أهل مدينتي على أن يضعوا لها اسما. كانت قد انتشرت سارحة على هواها حتى كادت تتسبب في إزهاق روح المؤرخ الحزين وصارت تصكّهم إلى أن أمالت منهم الأعناق، فأصبح الواحد منهم إذا سار كان كالملتفت إلى اليمين أو إلى اليسار، فإذا اصطدم بعضهم ببعض، وكثيرا ما كان يحصل ذلك، صاح كلّ بصاحبه" اِتعَوّج يا مستقيم. ساير زمانك".

كان ذلك عندما تناقل الناس أنّ سي الفتحي اشتهى دارا عتيقة عجيبة توارثتها إحدى الأسر العريقة بمدينتنا أبا عن جد حتى آلت إلى رجل منهم يتّجر في الأقمشة تجارة يشغل بها جزءا من الوقت. تعاطت هذه الأسرة التجارة في الزيت عقودا طويلة كانت فيها للقدامى من رؤوسها خلطة مع اليهود وصلات ببعض الأعيان بالحاضرة[12] حتى إذا شهدت البلادُ التحوّلات التي أدخلت عليها أدرك كبارُها أن نشاطهم

12- تطلق هذه اللفظة على عاصمة الإيالة التونسية دون سواها من المدن.

قد شرع الدخلاء في إفساده وأن ريح السلطان لم تعد مواتية فشرعوا في تصفيتها. هاجر منهم من هاجر إلى العاصمة والمدن الكبيرة القريبة وفتح الذي اختار البقاء بالمدينة منهم دكانا للتجارة في الأقمشة. كسدت تجارته عندما أصبحت الملابس المستعملة ترد علينا من البلدان المرفهة ثم قضت عليها أو كادت تجارة الملابس الجاهزة المهرّبة إلينا من بلدان شرقية بعيدة جدا. أجبرت هذه التحوّلاتُ التاجرَ على الانكماش على نفسه في دكانه، فكان لا يفتحه إلا في الصباحات يزجيها فيه قانعا بفتح المحل وإغلاقه وزيارة بعض الأصحاب له. أما العشايا فكان يقضيها في الدار التي ورثها عن أجداده. كانت هذه الدار تفتح على بستان شاسع ملحق بها فيه من ألوان الأشجار المثمرة والأزهار والنباتات الغريبة شيء كثير مما كان يجلبه اليهود وغير اليهود من المعمّرين الأجانب للجنائن التي كانوا يمتلكونها ويتعهّدونها بالتهذيب طوال القرون التي قضوها في مدينتنا.

لئن كانت هذه الدار تبدو، من خارجها، شبيهة بسائر الدور الفخمة وغير الفخمة التي تتفرّع عن الأزقة الضيقة والملتوية بمدينتنا، إذ يحدِقُ بها، دائما، سور مرتفع به بوابة رئيسية محصنة، فإن داخلها، حسب الذين زاروها، آية في روعة الهندسة وإتقان المعمار. فالممشى الذي يصل الدار بالبوابة الرئيسية مبلط بحجارة ألوان منحوتة شديدة المتانة والتناسق تحفّ به من الجانبين أشجار للزينة متشابكة. حالما يقطع الداخل إلى هذه الدار ذلك الممشى تسطعه واجهتها المكسوة بخزف زهري تغلب عليه خضرة غامقة معشقة بأزهار مصوّرة تكاد تنفر حية من الجدار. بالدار مجلس كبير مبلط بالرخام فيه دكانات مكسوّة بالخزف وكثير من النوافذ العتيقة ذات أقبية معشقة بالمأطورات الزهرية. خارج

كل نافذة من ناحية الحديقة خميلة من الأزهار أكثرها فلّ وياسمين وورد وعنبر ومسك الليل. في الطابق العلويّ غرفٌ للنوم كثيرة تفتح على قبّة رحبة تتوسطها. وراء الدار ساحة معشبة بها كثير من المحابس والزهريات في نظام يفصلها عن بستان شاسع مشجّر خلفها. كان ذلك التاجر مغرما بالدار والبستان يمضي فيهما العشايا والأماسي.

أتى صاحب الدار ذات يوم رجلان من أتباع سي الفتحي. جلسا في الركن الذي كان يجعله مكتبا وقال له أحدهما: " جئناك في الدار، ثمة من يرغب فيها. نريد أن نعرف السعر الذي تقدّره لها". فوجئ الرجل ولكنه أسرّها في نفسه عندما عرف مَن وراءهما وعرض عليهما مشروبا رفضاه وقال: " يعرف الناس ويعرف سي الفتحي أنها لم تعد تساوي شيئا كبيرا. لها في الوجدان قيمة معنوية لا غير. نتذكر بها الأجداد ونشم روائحهم. صلاتنا بهم، رحمهم الله رحمة واسعة، لا تقدر بثمن. بلّغا سي الفتحي سلامي وكثيرا من التقدير، واذكرا له أني لو كنت قادرا على التفريط فيها كنت وهبتها له عن طيبة خاطر". كبح تهذيبه من رعونتهما، لكنهما قالا له :" فكر في الأمر. نمر عليك بعد أيام".

انزعج الرجل ففزع إلى إخوته بالمدن والبلدان القريبة يستنفرهم للمحافظة على تراث الأجداد ومنعه من طمع الفتحي وشهواته فلم يجد لديهم سوى النصح بالمسارعة بالبيع . طوقته الهواجس والهموم فطار إلى الحاضرة لاستشارة محام مشهور كانت بين أجدادهما خلطة وعشرة. ظلا أيّاما يقلبان الأمر على وجوهه حتى استقرّ الرأي على أنْ لا إمكانَ للوقوف في وجه سي الفتحي إلا باللجوء إلى من هو أقوى منه، لكن من يضمن ألا يكون ذلك الأقوى أشدّ شرَهاً. قال

المحامي:"بيعت الضمائر والذمم وديست القوانين ودمّرت القيم وعمّ الفساد وساعد على ذلك كله عسر الحال وسوء الأوضاع وتتابع الأزمات حتى جاءت قاصمة الظهر مع الخصخصة والعولمة فتم تسليع كل شيء وقضي الأمر" . بات القرار على ما عبّر عنه المحامي بقوله:"إذا راجعاك اسألهما عن السعر الذي يعرضه سيّدهما، فإذا كان ممّا يرضي، ورسم له مقدارا محتملا، أمضيتَ البيع . وإذا كان دونه بكثير ذكرتَ السعر الذي يرضيك. لكن لا مهرب من البيع ما دام الفتحي شهوات قد رَشقَت له على دارك" .

الذي حدث بعد ذلك يختلف أهل مدينتي في روايته اختلافا كبيرا، شغلهم استفظاعه عن سذاجة ما كانوا يتحدثون به فضاعوا في التفاصيل. فمنهم من كان يكتفي بكلام مجمل مفاده أنّ الفتحي سلّم صاحب الدار صكّا بنكيا فضيّعه أو سُرِقَ منه. وعندما أبلغه ذلك زبره وجحده. ومنهم من يذكر أنّ أعوان الفَتحي أتوا الرجل صاحب الدار فعرضوا عليه فيه مبلغا أكبر ممّا كان يقدّر بكثير. ما كاد الرجل يقلّبه في ذهنه مبديا موافقة حتى سحبوا ملفا جاهزا به وثائق البيع . بل إن سيارتهم قد تحوّلت إلى إدارة التسجيل العقاري فجلبت عونها بدفتره وأختامه وجاء عدل تنفيذ ليشهد بأن البائع تسلّم صكّا بنكيّا مصدّقا عليه. كانت الوثائق سليمة إلى الحد الذي يبعث تسريعُها على الاستغراب .

تمت العملية يوم جمعة حوالي منتصف النهار فاتجه صاحب الدار يوم الاثنين إلى بنكه ليودع الصك في حسابه. قدّم الصك مع قسيمة الإيداع لموظف البنك وكانت له به سابق معرفة لطول تردده عليه إذ كانت حساباته فيه. شُغِل الرجل، في الأثناء، بالتّسليم على بعض

الأصدقاء. وعندما قدّم له موظف البنك كشفا بالحساب شكره وقال :" لم تسلّمني وثيقة الإيداع". بدا على الموظف تعجّب وقال:" أيّ إيداع يا سي فلان؟ أنت أودعت اليوم شيئا؟" قال الرجل:" أما سلمتك الآن صكا للإيداع ؟" انتقل الموظف من التعجب إلى الاندهاش وقال بشيء من الحدّة :" متأكد أنت من أنك سلمتني صكا للإيداع ؟ أين هو إذن؟". بدأ صبر الرجل ينفد فصاح:" نعم وألف نعم. سلمتك الآن صكا وقسيمة إيداع. الصك بقيمة....". ضرب الموظف على مكتبه وصاح :" ما لك يا سي فلان؟ يبدو أنك لست على ما يرام. لا صك قدمتَ ولا قسيمة إيداع ملأتَ. وقفتَ أمامي فسلمتك، كالعادة، كشفا بحسابك، أنظر ما زال الحاسوب مفتوحا على رقمك البنكي." قال الرجل :" لا إله إلا الله. حتى هذا كلام. تريد أن تشككني في نفسي أم ...". صرخ الموظف:" أم ماذا؟ هذه ليست أول مرة أتعامل فيها معك ومع سواك. ما رأيتك من سنوات إلا ساحبا، فعن أيّ إيداع تتكلم؟ تفضّل، فتّشني، فتّش المكتب، فتش البنك كله. ما لك يا سي فلان؟ الله يهديك ويخفّف عليك".

ارتفعت الأصوات ونفرت العروق في الأعناق فاحمرت الوجوه وتدخل بعض من كان في البنك داعين الجميع إلى الهدوء ولعن الشيطان. تناهى اللغط والصراخ إلى مدير الفرع البنكي فخرج من مكتبه يستجلي الأمر. كان أعوان الحراسة قد أحاطوا بصاحب الدار يهدئونه. قدّم له أحدهم كرسيا ليرتاح ويراجع نفسه، لكن مدير الفرع أصرّ على أن يدخل الرجل إلى مكتبه. خرج الرجل بعد برهة لا يرى مواطن قدميه. اتجه إلى داره وهو يشير بيديه ويبرطم ويقف برهة يتحدث فيها إلى نفسه.

مع أن معظم الناس بمدينتنا كانوا يكرهون أولاد قاسم كرها وارِياً للصدور، وإن كانوا يظهرون بمحضرهم أو محضر المتهافتين على خدمتهم خلاف ذلك، فإنهم لم يترددوا في تناول هذه الصيغ بالنقد غير متورعين عن إبداء الشك في سيرة صاحب الدار ونواياه. كانوا يزعمون أن حبّهم للحقيقة يجعلهم دائما يتصدّون لمن يريد أن يضحك علي عقولهم. جعلوا يقولون:" ما الذي جعل صاحب الدار لا يودع صكّه بالبنك في نفس اليوم الذي تمت المبايعة فيه؟ أفي الدنيا عاقل يتعامل مع صك فيه مثل ذلك المبلغ الضخم مثلما يتعامل مع صك به حفنة من الدنانير؟ كيف يسمح لنفسه بأن يرمي بذلك الصك، وفيه ما فيه، لموظّف البنك مثلما اعتاد سائر الناس أن يفعلوا، من فرط ثقتهم بعضهم ببعض، تاركين له إتمام الإجراءات؟ لا بدّ أن في الأمر واوات أخرى". لم يتورّع بعض منهم عن الشروع في التقوّل في سيرة الرجل.

ذكروا صيغا أخرى غير هذه كانت تتّفق، في جملتها، على أن موظف البنك قد توارى أسفل مكتبه ثانية واحدة التهَمَ فيها الصك التهاماً.

ما كاد الرجل يدرك داره حتى حمّ وغمّ ولازم الفراش. فزع أصحاب قدامى له فعادوه. قالوا:" كان كمن خرج من عقله". لم يفلحوا في أن ينتزعوا منه تفاصيل واضحة عن الحادثة. أتى فاعلو خير منهم سي الفتحي في مجلسه فاستقبلهم على انفراد وأبدى تأثّرا بالغا لما أصاب الرجل وسبقهم إلى القول:" تعرفون أن المال، والحمد لله، كثير حتى أنه لا خوف من الفقر. سآمر بمراقبة الخارج من حساباتي الكثيرة. الصك الذي سلمنا معروف برقمه وتاريخه، لكن الأمر يستغرق بضعة أسابيع نتأكد فيها من أنه لم يحوّل أو يصرف. وإذا ثبت أنه ضاع ولم

يحوّل أو يصرف، حرّرنا غيره. الناس من قبل ومن بعد بوجوهها".
قال أحد الرجال:" لو سجلت على الصك اعتراضا وقمت بتعويضه".
قال سي الفتحي بحدّة لم يقدر على ترويضها:" أصبحتم تعلّمونني كيف أتصرف في أموالي؟" وصرفهم بكثير من الجفاء.

ساءت أحوال الرجل فهلك قبل أن يظهر للصك أثر. حزن عليه أهل المدينة، من كان منهم مصدّقا "بتلويث" الفتحي له ومن كان له في ذلك شيء من الشك، حزنا حقيقيا. تركوا جميع ما كان بين أيديهم وساروا في جنازته. حضرها سي الفتحي مجتهدا في الإكثار من الاضطراب حتى يراه الناس. وعندما قدّم واجب التعزية لابن المتوفى قال بصوت مرتفع:"اعتبرني بمقام المرحوم. كان رجلا فاضلا. أي شيء تحتاج لا تتردد".

بعد أشهر قصد سي الفتحي الرجالُ الذين كانوا قد خاطبوه في أمر الصك مستفسرين. أحسن استقبالهم وأبلغهم أن الصك قد تم إيداعه في بنك آخر للرجل فيه حساب سالب وديون كبيرة مخلدة. قال لهم كلاما آخر بعد استحلافهم بأغلظ الأيمان أن يظل سرّا بينه وبينهم فحقّ الأموات ألا يذكروا إلا بخير. زعم لهم أن صاحبهم كانت له حياة أخرى يكتمها فيها تردّد على الفنادق وولع بالقمار وبأشياء أخرى لا يحسن ذكرها، بل قال لهم إن صاحبهم هو الذي عرض عليه اشتراء الدار مراكنة. كانت نزواته قد سارعت بأحواله إلى الفساد وكان يخشى أن يعرف الناس ذلك.

انتقل الموظف بذلك الفرع البنكي ومديره إلى فرع آخر من فروع ذلك البنك بمدينة بعيدة وحل محلهما موظفان جديدان كانا خاليي الذهن من المسألة. روّج الناس وقائع أخرى في استحواذ الفتحي

شهوات على هذه الدار كانت كلها غريبة عجيبة سمعها المؤرخ الحزين فقال:" أسفي على سكان هذه المدينة، كان خيالهم خصبا فمسخته فيهم أفلام المافيا الروسية، صار ينسج، بوحي منها، وقائع من سقط المتاع. أو لعل سقط المتاع هو الحقيقة الوحيدة التي أصبحت قائمة بهذا البلد تحت هذا النظام المافيوي".

أمهل سي الفتحي أسرة صاحب الدار بضعة أشهر وطلب منهم أعوانه إخلاءها فانتقلوا إلى شقة بالكراء قيل إن رجاله هم الذين سعوا لهم فيها. صار الذين كانت لهم معاملات مع " الفتحي شهوات" يختلقون صنوفا من الأعذار ليتسلموا مالهم نقدا. لكن أكثر السكان كانوا قد أصبحوا يحلمون بترك المدينة نهائيا. كانوا يقولون:" ما هي إلا بضعة أعوام وتصبح دورنا علينا بالكراء". كان ذلك عندما استولى الفتحي شهوات على الدار التي كان يملكها المؤرخ الحزين.[13]

عندما راج بين الناس أن كل شيء أصبح ينتقل إلى أولاد قاسم جعل بعضهم يقول لبعض: يزعم السذّج أن المال لا رائحة له. ما أشدّ غباءهم. والله والله إن بعضه ليطلق لبعض روائح شبيهة بروائح إناث الكلاب الحامية حتى أن الدينار ليركض لاهثا منبهر الأنفاس سائل اللعاب وراء الدينار. للمال مسارب من الروائح تشمّ ولا ترى. شمشموا جيّدا صوب أولاد قاسم، ثم شمشموا يتبيّن لكم أن الممتلكات التي سلمت هي التي لا رائحة للفريسة فيها أو التي تمر روائحها عاليا فوق ما تتلقف الأنوف.

لم يسلم من جشع أولاد قاسم سوى ممتلكات الأجانب أو من

13- في هذا الموضع سهم يشير إلى هذا الكلام بظهر الصفحة "عندما افتقدنا المؤرخ

تعلّق بأذيالهم واستجار بهم. من هذه الممتلكات ما يرجع إلى عهد الحماية والاستعمار ومنها ما تكوّن في نطاق ما عرف بالمعامل والمصانع الخاصة بالتصدير أو، في ظل دولة العهد الجديد، في نطاق الارتباط بالشركات " المزدوجة". كانت، في الجملة، أرفع من أن تحوم حولها " الشهوات" المسعورة.

فعندما فطن نعيم النمس إلى أن شابا من أبناء الذين كانوا متنفذين

الحزين وطال به الغياب حتى يئسنا من رجوعه إلينا بقيت داره مغلقة. لم يكن له أقارب يعتنون بها، ثم إنه ما زال مدرجا في عداد الغائبين. كنا، بين الحين والحين، نتفقد الدار للتأكد من أنه لم يرجع حتى تفطننا إلى أن لصوصا تسللوا إليها. تثبتنا من أنهم لم يأخذوا شيئا ظاهرا للعيان أو لعلهم لم يعثروا فيها على ما له، في نظرهم، قيمة، فأحكمنا إغلاق الغرف الداخلية ووضعنا على الباب الرئيسي قفلا من حديد به ذراعان تدخل فيهما سلسلة من فولاذ يعسر كسرها، وأوصينا الصبية الذين يلعبون بالشارع والجيران بأن يتفقدوها بين الحين والحين.

لدار المؤرخ الحزين سقيفة طويلة معتّمة تفضي إلى ساحة شاسعة مبلطة تفتح عليها خمس غرف ومطبخ ومرحاض به ركن محجوز للاستحمام. الغرفة الأولى الملاصقة للسقيفة، بالجهة لشرقية، تستعمل للاستقبال، بها ثلاثة أبناك خشبية وخوان قصير ودولاب. والثانية المجاورة لها كانت مخزنا للمُونة بها جرار فارغة وغرابيل ومواعين وهي شبه متروكة. أما الجهة القبلية فبها غرفة متوسطة الحجم جعلها المؤرخ للنوم وغرفة أخرى واسعة بها خزائن خشبية ومكتب صغير وخوان قصير من خشب معجون مزوّق من صنع نجارة مدينتنا ورفوف عديدة مملوءة كتبا بعضها يرتفع إلى قرابة السقف. كان المؤرخ الحزين، عندما ثقلت، في الأعوام الأخيرة، ركبته وتعاورته العلل، قد نقل إلى مكتبه بنكا من التي كانت بغرفة الاستقبال ففرش عليه كليما وجلد شاة فأصبح ينام فيه. وضع بجانب البنك مذياعا كبيرا جدا من النوع العتيق. بالمكتب دولاب قصير مدسوس في ركن بين الرفوف كان المؤرخ يحفظ فيه بعض القناني من البُوخة والنبيذ. أما الجهة الجبلية من الدار فبها غرفة موصولة بالمطبخ والمطهرة كانت

في عهد دولة الاستقلال والسيادة قد شيّد مبنى قرب ميناء صغير للصيد البحري غير بعيد عن مدينتنا ولاحظ الشاحنات المكيّفة رابضة حوله أمر سائقه بالوقوف. سطعته روائح الأسماك الطازجة عابقة برائحة اليود منبعثة من المبنى فاستغرب. سأل فعرف أن صغار الصيادين يعرضون على صاحب المبنى ما يصطادونه في مياهنا القريبة فيختار

مخصصة لوالديه. ظلت هذه الغرفة بعد وفاتهما على حالها لا تفتح إلا للتهوئة. في الناحية الغربية من الدار جدار حرّ به باب يفتح على ما يشبه الحديقة المهملة يفصلها عن دار الجيران حائط من حجر مرصوص بعضه فوق بعض. كانت هذه الدار شبيهة بمعظم الدور العتيقة بمدينتنا.

تناهى إلينا، بعد سنوات أخرى، أن بعض الجيران قد شاهدوا رجلا نصَفا له، في ما زعموا، شبه كبير بالمؤرخ الحزين في رأس الزقاق يطيل النظر إلى الدار ويأخذ لها، بكاميرا كانت بيده، صورا عديدة. قال صبيتهم إنهم قد رأوه يقترب من الباب رفقة شاب كان من أبناء الحي وانتقل إلى حيّ آخر أو إلى مدينة أخرى. قالوا إن الرجل قد أطال الوقوف أمام وأنه عتبته الدار. سألنا عن الشاب الذي كان برفقة ذلك الرجل حتى وصلنا إليه. قال: " تعرفتُ عليه، صدفة، بأحد الفنادق بمدينة مجاورة. صحيح أن به شبها بالمؤرخ الحزين، لكنه يتكلم فرنسية صافية فيها لكنة غريبة. عرض عليّ، بعدما عرّفته بنفسي وبالمدينة التي أنا منها، أن أكون دليلا له في جولة بمدينتنا فوافقت. طلب مني، حالما وصلنا، أن آخذه إلى ما كان يعرف بحارة اليهود. أخذ صورا لبعض المنازل القديمة التي ظلت قائمة بها. سألني عمّا إذا كانت مقبرة اليهود ما زالت موجودة وعبّر عن رغبته في زيارة المكان الذي كانت به. استغربت منه ذلك فقال إنه يعدّ بحثا جامعيا عن مدينتنا في فترة ما بين الحربين. سألني عن القلالات والجامع القديم وحبس النعجة والمدرسة الفرانكوآراب وعن أماكن أخرى لم أسمع بها من قبل. ثم سأل عن المؤرخ الحزين فقلت له: " كان جارا لنا. أصحابه يقولون إنه على سفر منذ سنوات فداره الآن مغلقة. رغب في مشاهدتها وأخذ لها صورا ثم انصرفنا". ظللنا نستغرب أن يذيع اسم المؤرخ الحزين حتى يبلغ أناسا في فرنسا.

منها أصنافا ينقلها منضّدة في أوعية خاصّة بالتعليب الصحّي، إلى أقرب مطار لتطير منه إلى البلدان السعيدة. سأل عن صاحب المبنى فبلغه أنه يربح كثيرا. أرسل إليه من ثقاته مَن فاتحه في رغبته في تشريفه بالدخول معه في المشروع شريكا لتطويره. لم يردّ صاحب المبنى لا بالقبول أو الرفض. اكتفى بأن قال لمخاطبه:" قد بلّغتَ فشكرا". بعد

لا أذكر ما إذا كنا قد عدنا إلى الحديث في الأمر بعد الأيام التي تملكتنا فيها الدهشة فأخبر بعضنا بعضا بسؤال ذلك الشاب عن صاحبنا. الذي أتذكره أننا اتجهنا إلى الدار فتفقدناها من الخارج للتأكد من أنها لم تسرق. كان بابها مغلقا مثلما تركناه تماما والسلسلة التي أثبتناها فيه على حالها. أكدت لنا الأتربة والأوساخ المجتمعة على عتبة الدار أنها لم تفتح. تناهى إلينا أن بعض الناس يزعمون في مجالس خاصّة بهم أن المؤرخ الحزين كان قد فرّط في داره بالبيع ليهودي من يهودنا القدامى كان له عليه دين وأن ذلك اليهودي قد أرسل من يتفقد الدار للتصرّف فيها. استغربنا الأمر. سمعنا أيضا بعض الناس يقولون :" لعلهم يفكرون في الحلول بمدينتنا، مثلما فعلوا بفلسطين، متعللين بأن إقامتهم فيها ردحا من زمن تشرّع لأن يكون لهم فيها حق اكتسبوه من التاريخ" فازددنا تعجّبا من أن تجد مثل هذه الأوهام من لا يستحي من ترويجها. غير أن شيئا من التوجّس الخفيّ بدأ يرتع في ضمائرنا.

بعد مقدم هذا الغريب ببضعة أشهر جعل أعوانُ الفتحي شهوات ينشرون أن سيّدهم كان قد اشترى، من سنوات بعيدة، دار المؤرخ الحزين. قالوا إنه فرط له فيها في الفترة التي أصابته فيها لوثة كبيرة كادت ترمي به في أحد السجون البعيدة. بلغنا، من ناحية ثانية، من بعض الذين كانوا في خدمة الفتحي شهوات أنه سمع بمقدم الرجل الغريب الذي أخذ للدار صورا فقصدها متفقدا. وعندما همّ بدخولها للنظر في محتوياتها، داهمه إحساس غريب صرفه عنها. ألقى الأمر لرجاله بأن يفتحوها فجاؤوها ليلا وحالما وضعوا أيديهم على السلسلة انبعثت من سقيفة الدار أصوات منكرة فقفلوا هاربين. أبلغوا سيدهم أن الدار "مسكونة" فضحك منهم وشتمهم وأمر بأن يأتوها نهارا. أخذوا معهم حدادا ونجارا وعند اقترابهم من الدار سألوا صبية يلعبون بزقاقها عما إذا كانوا

أيام أرسل صالح قاسم في طلب ابنه نعيم. ما أن دخل عليه حتى اشتعل في وجهه قائلا: "أحبابنا الأجانب إذا عطسوا مرضنا" . لم يفهم نعيم شيئا فظل فاغرا فاه . قال صالح بعد أن شتم ابنه مرات: " تريد أن تقلبها علينا بجرأتك على الحوّات" . ذكر له أن صاحب المبنى شريك صغير

يسمعون فيها حسّا. قال أحد الصبية إنه كان دائما يسمع فيها حركات غريبة وأصوات موحشة حتى أن أمّه كانت توصيه بألا يقترب منها. همّ الحداد بالسلسلة وما أن وضع يده عليها حتى صرخ. قال مرتعدا إن يده قد يبست. أخذ النجار قفته وقال: " سلام عليكم. لديّ صغار ليس لهم بعدي أحد" فجرى وراءه الحداد هاربا. رجع الرجال إلى الفتحي وقالوا: " الدار مسكونة حقيقة. هل كان المؤرخ يكون فاسدا مؤذيا إلى ذلك الحد الذي سمعنا به أو عرفناه لو لم تكن تعاشره طائفة من الشياطين؟" ورووا له ما جرى للحداد. كان ذلك في الفترة التي ركب الناس فيها جنون السحر والشعوذة من قمة رأس الدولة إلى المعدمين والمشردين. قال الفتحي ما جاءها ذلك الرجل الغريب إلا لأن في أمرها سرا. طلب من رجاله أن يأتوه بأحد السحرة الحاذقين لمجاوره بمغربي. أمضى الرجل بضعة أيام أمام الدار يبخر ويتمتم ويهذي ويرقص وأصحابه ينقرون على الدفوف ويضربون عليها بعنف يحدث وجيفا في القلوب وقد تقاطرت عليهم أفواج من الفضوليين. ثم أتى سي الفتحي وقال له: " سكان هذه الدار من المردة العتاة. لا قدرة لي عليهم. إذا شئت دللتك على واحد من سحرة الكفرة يده تصل إلى القمر" . ظل الفتحي أياما يفكر وعندما بلغه أن بعض الناس أصبحوا يوقدون شموعا ويضعونها على عتبة الدار أمر بتقويضها. جاءت الجرافات تنفث دخانا قاتما وتصدر هديرا مزعجا إلا أن التي كانت في المقدمة أصاب محرّكها عطبٌ ما أن اقترب بها سائقها من الدار. كانت جديدة وكان سائقها كلما شغلها وشرع في التقدم بها سكتت. أما إذا شغلها ورغب في السير بها إلى الخلف فإنها تظل تشتغل. هلل الحاضرون وكبروا فامتنع أصحاب الجرافات عن العمل. قال واحد منهم: " لدينا صغار وهذه دار مسكونة والعياذ بالله من كل شيطان رجيم" . قلب الفتحي النظر في المسألة وأمر بإحراق الدار بما فيها. اندلع فيها ذات ليلة حريق هائل تضررت منه منازل كثيرة مجاورة. أقام الفتحي، بعد جهد جهيد، في المكان الذي كانت الدار فيه عمارة صغيرة من ثلاثة طوابق. روّج الهنازون أنهم كلما

جدا في مؤسسة يملكها إيطالي مختص في نقل السمك الذي يصطاده بحارتنا إلى أوربا ثم قال:"إذا وصلت المسألة إلى سيادته هلكنا جميعا. أدخلها في مخك مرة واحدة. الأجانب لا يتحكك عليهم أحد. انقل هذا إلى أخويك حتى لا تورطوني في ما لا قدرة لي عليه".

أصبح أصحاب الممتلكات القابلة لأن يسيل عليها لعاب الشهوات يرددون بكثير من الاعتزاز، في جميع المحافل، أن لهم فيها شركاء من أبناء الذين كانوا بمدينتنا في عهد دولة الحماية والاستعمار وأحفادهم. تناقل الناس أن المؤرخ الحزين كان كلما سمع من أهل مدينتنا اعتزازا بالتشارك مع الأجانب انزعج حتى اغتاظ مرة فازرق وجهه من شدة الغضب وقال:"ما دام لهم في نظركم كل هذا الفضل فما الذي دعا آباءكم إلى طردهم شر طردة مثلما تزعمون؟" أجابه، في ما يذكرون، أحد الملتاعين في مال اشتهاه الفتحي شهوات فأخذه غصبا:" لو كان قد خطر على أذهان أجدادنا وآبائنا أن الأمر يؤول إلى ما أصبحنا فيه ما كانوا يحرّكون في مقاومتهم ساكنا". لكن أقسم آخرون بأغلظ الأيمان أن المؤرخ لم يكن قد قال هذا الكلام أو فكّر فيه. كانوا، في بحثهم في الليلة الظلماء عن بصيص من الأمل يتمصّصون أوهامهم

فرغوا من صبّ الأعمدة واطمأنوا على سلامتها وجدوها في الصباح مخربة مدمرة كأنما قد عبث بها جبّار عتيّ. أسكن الفتحي بالعمارة، عندما انتهى من بنائها، بعضا من أتباعه لكنهم كانوا منها يهربون. كانوا يقولون:" تظهر لنا فيها خيالات وأشباح وتحدث أشياء عجيبة". غضب الفتحي شهوات وقال:" لعنة الله عليه شيّح لنا ريقنا حيّا وميتا. لو كان قد أطاعني كنت بنيت له فيها مقاما". كانت النار قد أتت على مكتبة المؤرخ وجميع ما وضعه من مؤلفات. سمعت هذا الكلام مرات عديدة في أكثر من مجلس، والله أعلم بما فيه من صدق ومن كذب".

على وميضه، كثيرا ما يفيقون على أنهم يهمهمون كأنما يخاطب الواحد منهم نفسه: "مهما يكن، فالمال ينتقل ويتجوّل ويبقى في مدينتنا. لا وجه للمقارنة إذن بين عهدي الحماية والاستعمار وهذين العهدين ولا داعي لها".

شاهد الناسُ، حسب بعض الشّداة من مريدي المؤرخ الحزين، أولاد قاسم ينهبون دون أن يتصدّى لهم أحد فشمّر كلّ على ساعده يشدّ على القبضة جاهزا لتسديد الضربة ممتطيا الحيلة لا يلوي على شيء. نهب الإخوة إخوتهم والأزواج بعضهم بعضا والأبناء آباءهم والآباء أبناءهم والأصدقاء أصدقاءهم والجيران جيرانهم فتفككت الأسر وساءت العلاقات وفسدت العشرة وتهافتت الخدمات وتدنت الأفعال وكثر الغش وفشا " التلهويث[14]" وشاهت الوجوه وساءت الظنون، وجعل كلّ يفتل لكلّ حبلا ويشحذ خنجرا ويعدّ مقلبا وينصب فخّا ويحفر حفرة ويحمل مفكّا ويبيّت غدرا حتى أصبح الكلام بين الناس نتنا نتونة لا تقدر على تحملها الأنوف فصارت تسارع بالدفع به إلى الأدمغة فتنشب بلادته الدّفرة في الأمخاخ، وإذا كلّ يده على رأسه ممسكا بها خوفا من أن يحصل فيها عطب أو يلحقها انفجار حامدا الله على أن الأمر وقف عند "الشقيقة".

امتلأت المساجد بطائفة كبيرة من الناس، شيوخا وكهولا وشبانا وصبية وأطفالا وعجائز ونساء أنصافا وشابات وصبايا وبنات، حتى فاضت بهم فتراصّوا حولها في الساحات والأزقة، أيام الجمع وفي شهر رمضان لصلاة التراويح، صفوفا متلاحمة رافعين أيديهم للخالق

14- من لهْوَثَ لفلف اللقمة ساترا ما فيها وازدردها على عجل. أبحرت اللفظة في المجاز فشملت الختل والخديعة والمغالطة والنفاق والغدر والسخرية بالآخر والضحك عليه.

بالتضرع أن يقيهم معرّة القهر ومهانة الفقر في الدنيا وعذاب الآخرة. كانوا يقولون في تضرّعهم: " يا الله! يا رحمان يا رحيم، أزل عنّا هذه الغمّة وأرحنا من وجوههم وانعم علينا بمن يخافك ولا يطلب إلا وجهك". اغتنم الذين أصبح ركضهم في صفوف الإسلاميين خببًا هذه الفرصة فأصبحوا ينشرون، في جميع المناسبات، كلاما يصبّ في جملته في ضرورة العود إلى " تطبيق الشريعة" بإيكال الأمور إلى من أبلى من المتفقّهين في الدين بلاء ظاهرا في نصرته. لم يتصدّ لهم سوى المؤرخ الحزين وقلة قليلة من المعجبين بأفكاره الناقدة. كان يقول كلما جمعه ببعض الدعاة مجلس: "إذا كان هؤلاء المدلهين بروائح الكراسي يرغبون في الرئاسة فليلعبوا لعبتها. ليتنا نفهم منهم معنى الشريعة التي يريدون تطبيقها. أما أن يركبوا الدين فهذا خلط خطير للأوراق. الدين للجميع أما الحكم فمتوزع بين الطوائف. لكلّ طائفة نظامها. أتعتقدون أن الصحابة الأجلاء قد اختلفوا في الدين والإيمان؟ ما اختلفوا وحارب بعضهم بعضا إلا على السلطنة، كلّ يريد أن يتضمّخ بها". أرسل إليه، عندما أكثر في هذا المعنى، بعض الملتحين من جعل ينصحه بأن يمسك عنهم لسانه فقال له: " إن يسودوا اليوم تشتدّ زِيم". سألوه عن " زيم" هذه من تكون فأشاح بوجهه وظل كالمغرّد وحده يدعو إلى ضرورة الفصل بين السياسة والديانة.

أما سائر الناس فكانوا ناقمين، من ناحية، على هذه الدولة التي ركعتهم ليركب الأوباش ظهورهم، غير مرتاحين، من ناحية ثانية، للمعارضة الدينية وغير الدينية، ذلك أن جميع من يشتغل بالسياسة، في نظرهم، إما فاسد بالفعل أو فاسد بالقوة. كانوا، كلما خاضوا في شؤون السياسة والسياسيين يجدون أنفسهم يسبّون ويشتمون أو

يتندرون، ثم أصبحوا يرفعون أكتافهم كأن الأمر لا يعنيهم.

استغرب بعض السذّج أن يجتمع في الشخص الواحد التكالب على النهب والختل والسلب والاستغراقُ في التعبّد والإفراط في التعصّب للدين والتظاهر بالورع، وجهر باستغرابه متعجّبا، فكشّر في وجهه أحد الذين كانوا يعدّون علمانيين وقال: "على قدر ما يرتكب المرء من معاص يمتد عنقه وترتخي مؤخرته ويرتفع صوته بالدعاء". جعل ذلك المستغرب يتأمل أعناق الناس فخيل إليه أنها قد طالت أكثر من المعتاد وأن أصحابها يكثرون، عند السير، من وضع أيديهم على مؤخراتهم ويرمون بعيونهم في جميع الاتجاهات بحثا عن فرصة سانحة أو غفلة من الغفلات. ضرب كفا على كف وقال: " لا حول ولا قوة إلا بالله ما أظننا إلا ممسوخين زرافات". تناهت العبارة إلى أجوارنا الذين يمقتوننا مستكثرين اسم المدينة في مدينتنا فهي عندهم دائما جرد قرية فقالوا: " نسأل الله ألا يعمّ هذا الشرّ فنلحق بهم أو نمسخ حيوانات أقبح من الزرافات. ما نظن هذا العهد إلا عهد المسوخ الشنيعة".

لكن الفتحي شهوات كان قد شاهد ستة خيول، أربع إناث وذكر ومهر، في مسرح لتربية الخيل يملكه أحد الأعيان القدامى بمدينة مجاورة فرشقت له عليها حتى اشتهاها. شاهدها صدفة ذات صباح بينما كان صاحبها يشرف على تعهّد السائسين إياها بالترويض فسلبته عقله. كانت أصيلة نادرة من فصيلة خيول السباق. وكان صاحبها، وهو شريك فيها وفي سواها من الممتلكات لصناعي أوروبي متقاعد يملأ فراغ أيامه بالصيد البري والبحري يمارسه هواية، بها مغرما ولها منقطعا.

قال بعض الناس إن الإناث الأربع كانت للإنتاج، تقضي ستة أشهر من السنة في أوروبا وستة أشهر في ضيعة ببلادنا. أما الذكر والمهر فكانا

للإيناس، فالخيول الأصيلة ذكية وحساسة ووفية جدا. أمر الفتحي أعوانه بأن يسألوا عن الخيول وصاحبها فنقلوا له أنها مما لا يقدّر بثمن. حاولوا أن يحصلوا على معلومات أكثر دقة فلم يفلحوا. سعوا إلى الاقتراب من الرجل الذي يملكها فلم يتمكنوا. كان كاسح الرأس ذا كبرياء وصلف وتعجرف، يكاد لا يكلم أحدا أو يجالسه. قالوا: "لا يرى أحدا. يعتبر الناس ذبّانا. لا يردّ حتى على التحية. لا يتكلّم إلا باللسان الفرنسي. ولا يفتح فمه إلا ليسبّ عربان التخلّف والجهل والحمق".

تردد الفتحي متنكرا عدة مرات على المراح الذي كانت تلك الخيول تسرح فيه على هواها قبيل كل غروب فتظل تجول فيه بين ركض ولعب وصهيل تطيش له العقول. فكر في أن يقصد صاحبها باذلا فيها كلّ نفيس فنهاه عن ذلك أصحابه. قالوا له: " لن يردك فحسب. سيهزأ بك. رأسه حامية جدا بشريكه الأوروبي". استشاط الفتحي غضبا وانقطع عن زيارة ذلك المكان وطلب من خاصة أعوانه أن يدرسوا أحوال الرجل في حركاته وسكناته بحثا عن ثغرة من الثغرات. قالوا له: " صاحبنا ينام ملء الجفون، يعتقد أن لا أحد يجرؤ عليه". بعد بضعة أسابيع سطا رجال الفتحي على الخيول الستة وغيبوها في سانية له (اتضح لاحقا أنها العوسجة) وضع عليها حراسة مشددة.

اندهش الرجل من فقدان الخيول. شوهد وهو يقول: " الحمقى. لا دراية لهم ولا قدرة على العناية بها. يحسبونها حميرا. أخشى أن يكونوا قد أكلوها جهلا بقيمتها". أخطر صاحبه الأوروبي بما كان من فقدان الخيول فأوقدت العيون داخليا وخارجيا في تعقّبها. قال الشّريك الأوروبي: " لا أستبعد أن تكون العملية مدبّرة. أشمّ فيها رائحة المافيا. لماذا هذه الخيول الستة بالذات وفي هذا التوقيت دون سواه؟ في

الأمر سرّ لا بد من الكشف عنه. ما أراها إلا مؤامرة من الوزن الثقيل. أسترشدُ في الأوساط العليا وأردّ الخبر". أوكلت المسألة محليًّا لمفتشين خبراء متقاعدين وتعهّد بها، عالميا، أحد الأجهزة ذات الأيدي الطويلة للتأكد من أنها لم تغادر البلاد. بدأت الدائرة تضيق وتضيق حتى اختنق بها سي الفتحي.

كان والده هو الذي شمّها نتنة. نزلت عليه، مباغتة كالصاعقة، فطارت به سيارة فخمة إلى المدينة. أتى ابنه، وحالما واجهه سدّد له صفعتين وقال:" كنت أعرف أنك أحمق. لم أتصوّر حماقتك تصل إلى هذا الحد". جعل الفتحي يحمي وجهه بذراعيه مثلما كان يحميه صبيّا كلما شرع والده في تأديبه وهو يقول متباكيا:" وربّ العزّة ما سرقتها. نسي صاحبها الباب مفتوحا فخرجت وجاءت إلينا من تلقائها". جرّ صالح ابنه إلى السانية فعاين الخيول وهو يردد :" قال جاءت من تلقائها. لم يرق لها إلا هذا المكان فاتجهت إليه هو دون سواه". ثم جعل يضرب على جبهته ويقول:" لأيّ شيء تصلح لك؟ هذا عالم لم نفكّر يوما في اقتحامه. تركناه للفارغين من بقايا أولاد الذوات، للرعاع الذين يحلمون بمسك الذيول". وقصد رأسا صاحب الخيول. عرّفه بنفسه واختلى به ليقول:" لا أعرف كيف حصلت الخيول عند ابني ولا أحب أن أعرف. هي سليمة والحمد لله. طلباتك أوامر، مهما كانت. لا ألتمس إلا شيئا واحدا: تموت النازلة هنا". أبدى صاحب الخيول تفهّما وقال بهدوء قاتل:" المسألة، كما لا يخفى عليكم وأنتم، ما شاء الله، من أنتم، ليتها كانت بهذه البساطة". قاطعه صالح قاسم بقوله:"نبسّطها". واصل الرجل:" لا يتوقف الأمر عليّ. لي فيها شريك أجنبي. وهي مسجلة عالميا في دفاتر النوادر الأصيلة. أكثر من جهاز عالمي يتقصّى

الآن خبرها. هي مؤمّنة دوليّا". كاد يسقط في يد صالح قاسم، لكنه تماسك وقال:" خاطب شريكك وراجعه. الليلة تكون الخيول في مرابطها. أمّا رغبتي فأسمع منكم الردّ عليها لاحقا. ثقتي في حصافتكم لا حدّ لها. أحمد الله على هذه النازلة. عرّفتني، في سخفها، على رجل ثمين هو أنتم. رب ضارة نافعة ونحن غافلون".

زفّ صاحب الخيول خبر استرداد المفقود لشريكه وكشف له عن جلية الأمر فأصر الشريك على مقاضاة الجاني. حاول الصاحب أن يهوّن من شأن الحادثة تمهيدا لثني شريكه عمّا عزم عليه فألفاه مصرا على التمسك بموقفه. قال الشريك :" هذا لا يُسكت عليه. يظنها لعبة صبيان. ما هذا الحمق؟ من هو هذا البائس؟ من يظن نفسه؟". تردد صاحب الخيول ثم قال:" ثري جديد من الـ: ق. ح."[15]. لم يفهم أهل مدينتنا الاختصار فكانوا يضيفون له باءً بعد الحاء المسبوقة بألف حتى نهاهم عن ذلك بعض الفاهمين وبخلوا عليهم بتفسيرها. نهوهم عن التصحيف فقط زاعمين أن ما يذهب إليه خيالهم المريض قد أصبح من سقط المتاع منذ أصبح البلد، بفضل دولة العهد الجديد، ماخورا هائلا غارقا في الكساد. قال الشريك:" والضرر النفسي الذي خلّفه هذا الخرق الأهوج في خيولنا الرقيقة، بأيّ المعايير نقوّمه؟ سأرسل بيطريا نفسانيا يكشف عنها ويصلح الضرر، أم أن الحيوان عندكم، كالإنسان، لا قيمة ولا حرمة له ولا كرامة؟". انتهت المفاوضة بالاتفاق على نشر قضية بالجاني مع تأجيل التتبع وجبر للضرر لم يخرج عن مقداره شيء. قال الشريك :" تظل القضية سيفا مسلطا عليه حتى يفكر في أفعاله وتبعاتها". لم يرض صالح قاسم عن القرار ولكنه اعتبره أهون

15- قريب من الحاكم.

من شرّ آخر كان سيجد عنتًا في إيقافه. كان الفتحي عندما ردّ الخيول قد اشترى لها، بإيعاز من والده، سروجا وأعنة فاخرة، قال أعوانه لصاحبها " إكراما لها ليس إلا"، غير أنه رفضها وردّها عليه.

فاحت رائحة واقعة الخيول بمدينتنا فلم يتحرّك لها أحد. أمعن الناس في تجاهلها. تضوّعت حتى أدركت أجوارنا الذين كانوا يكرهوننا فازورّوا عنها مترفعين. قالوا: "هي من بارد النوادر. لها فقط طعم رائحة روث البغال والحمير عندما تعبر المناخر إلى الحلوق. نزل سكان تلك القرية بعيدا عن المستوى الذي عهدناهم عليه. لم يعودوا أكفاء لنا. أصبحت قريتهم دشرة". وعندما أطلق بعض من صبيانهم عبارة "سابق سبّاق. يريد مسك الذيل" وصدحوا بها، يوم السوق الأسبوعية، بين ظهرانينا لإغاظتنا، لم يلتفت إليهم أحد. ذهب بعيدا ذلك الزمن الذي كان فيه بيننا وبينهم للتنابز بالنوادر والغرائب نكهة من النكهات.

معظم الدور الفخمة القديمة والحديثة التي كانت في ملكية أهل مدينتنا ومعظم العمارات والمتاجر والمصانع وشركات التأمين والرّخص بأنواعها انتقلت إلى أولاد صالح قاسم وبناته بما في ذلك أقرباء أخر حمد الناس الله على أنهم لم يكونوا كثيرين. قالوا: " هي دائما ألطافه بنا، جلّ وعلا، تدفع عنا مدلهمّات الشرور"، وظلوا ينتظرون معجزة من المعجزات.

اعتقد بعض الناس ممّن دأبوا على أن يعدّوا رغباتهم حقائق قائمة أن تباشيرها قد أهلّت عندما أقدم أربعة من أوباش المدينة على تعنيف الفتحي تعنيفا قيل إنه كان بالغا. كان هؤلاء الشبان من صنائعه يهرّبون له سيارات فاخرة مسروقة إلى بلدان مجاورة. كانوا يقومون بالإيصال.

أثر عنهم قولهم في بعض المجالس الماجنة الخاصة بهم: "هؤلاء الجدد من أعيان تلك البلدان لا يعرفون سوى الركوب. يركبون كراسي أكبر منهم وإناثا تهرب منهن، أو وذكورا ألوانا وسيارات فخمة جدا". من هذه السيارات، وأكثرها كان من النوع السّريّ، ما نسج له الفتحي شبكة تهريب شغّل فيها بعضا من هؤلاء الشبان. غير أنه، في بعض ما كان يعتريه من جنون العظمة، لم يكن يتورّع عن الشحّ عليهم أو قلْبهم في أبسط الحقوق متمتعا بإذلالهم. أشاع بعض الناس أنه قال:"يجب أن يتذكروا، لحظة واحدة قبل مخاطبتي، كيف كانوا. كمشة من الهمل. نظفت ملفاتهم من أوساخ كثيرة كانوا قد تلوّثوا بها. وفّرت لهم جوازات السفر. أسكنتهم في أرقى الفنادق. جوّلتهم في البلدان. ملأت جيوبهم بالمال. ماذا يريدون أكثر من هذا؟"

ضاق بعض من هؤلاء الشبان ذرعا بامتهان الفتحي لهم وإسرافه في الشحّ عليهم بما كانوا يعتقدون أنهم يستحقون وبرموا بتظاهره المقيت بالمنّ عليهم فدبّروا له كمينا ارتخت فيه قبضة الحراسة عنه وهجموا عليه. تصدّى لهم أعوانه فطلبوا منهم التنحي جانبا وقالوا لهم:" لستم طلبتنا. النازلة بيننا وبين هذا الكلب". كان شباننا يعرف بعضهم بعضا فتظاهر أعوان الحراسة بمقاومة مفتعلة وتمكن المهاجمون من الفتحي فدمدموه. قالوا له:" إن لم تصلنا حقوقنا كاملة رمينا بروحك في جهنم، يا وضيع الشهوات يا دنيء". وذابوا كالملح في الماء. قلّبها الفتحي أياما في زاوية من زوايا مخه وأمر بأن تصرف لهم مستحقاتهم على ألا يكون لهم معه أيّ تعامل لاحق. تضوّعت رائحة ذلك التأديب أياما كثيرة طرب لها الجميع، ثم خبت فكمد لها المتفائلون.

أمّل بعضٌ آخر أن يحصل بين النهّابة ما يحصل عادة بين الوحوش

الضارية كلما اجتمعت على فريسة واحدة، لكن غابت الآمال في التمني، فعين صالح قاسم كانت على الجميع ترعى وتتوعّد، وأسرار المدينة لا يفوته منها شيء. انتظروا أن يبرز جشعون آخرون من أصحاب الولاءات المستحدثة أدهى وألطف حيلة، ترقى عيونهم من الفريسة إلى نصيب فيمزقون الجاثمين عليها شر تمزيق، لكن لم يحدث من ذلك شيء. كانت عيون السلطة على الجميع، ترعى من تودّ وتكشّر عن أنياب سوداء في وجوه آخرين وأحيانا في وجوه الذين كانت قد رعتهم، فترتعد الفرائص وتسقط القلوب في البطون. كان نعيم النمس وسالم كاناسوكر يستشيران والدهما في كل كبيرة وصغيرة لا يخرجان على ما يأمر به. أما الفتحي شهوات فكان يركب رأسه في بعض الأحيان، وكلما ركبها وقع في الخطأ.

طلب صالح من ابنيه سالم كاناسوكر ونعيم النمس أن يعقدا صلات خفية بأقطاب المناوئين للحكومة. قال لهما : " الدولة راسخة في الثبات على ركنين صحيحين هما النجاح الاقتصادي والجهاز الأمني. والمعارضة، بجميع أطيافها، لا خوف منها فهي لا وزن لها. ترأسها كمشة من الطمّاعة. لكن الاحتياط يدعو لأن يكون لنا من هوى المخدوعين بهم نصيب". أما سالم كاناسوكر فقد أرسل لحيته وأصبح يتردّد على المسجد لا تفوته صلاة. ذهب إلى العمرة مرات ختمها بحجة فأصبح يسمّى " الحاج سالم". هيّأ في منزله مجلسا على الطريقة الشرقية لاستقبال رجال الدين وعقد حلقات للتمكن من الفقه. وأما نعيم النمس فقد اقترب من بعض الحقوقيين وبعض الكوادر النقابية. أصبح يلتقي بهم في صالة كبيرة ملحقة بمنزله لتبادل الآراء في الاختيارات الاقتصادية التي تنهض بها البلدان المتخلفة والنظم

الاجتماعية الأصلح بمجتمع يقوم على المصالحة بين الهوية والحداثة. قيل إنه قد أرسل للمؤرخ الحزين من يدعوه إلى هذا المجلس فجعل مؤرخنا يضحك ويضحك حتى دمعت عيناه ثم قال:"ما سمعت بأن المال يجعل الحِصْرِم زبيبا إلا في هذا الزمان الكلب". ظل يعاودها ورسول نعيم ينظر إليه مندهشا لا يفهم شيئا.

عندما يئس أهل المدينة أو كادوا ييئسون من إمكان الخلاص من هذا البلاء الذي ما كاد يدهم حتى شمل وعمّ، بدأ صغار آل قاسم يكبرون وبدأ كبارهم الذين أصبحوا من كبار الأثرياء يبحثون عن روائح الوجاهة يرغبون، رغبة كالبة، في التضمّخ بها.

زيّن لهم بعض الراقصين بين أيديهم، أوّل ما زينّوا، التماسَ الوجاهة عن طريق الجمعيات والمناصب السياسية. لم تكن المناصب السياسية تقتضي من أصحابها جهدا أو سعيا فنتائج الانتخابات كانت دائما محسومة سلفا لمن تراه دوائر القرار العليا أكفأ من سواه في التفاني في خدمتها. ثم إن رُكبَهم قد تكوّنت بها، من كثرة السجود، كركرات، وتقرّحت عيونهم وتحوّقت بالسواد وتقيّحت وتعفّنت أفواههم وفسدت لَهَواتُهم فأصبحت تنبعث منهم روائح كريهة لا تطاق. كان أهل مدينتنا يقولون:" ما الداعي إلى الانتخابات إذا كنا نعرف، قبل إجرائها، الفائزين؟" لكنهم كانوا يذهبون إلى صناديق الاقتراع وكثيرا ما كان بعضهم ينوب عن بعض حتّى أنّ من الأموات من كان يقترع.

أما الجمعيات، وقد ابتُدعت لها تسمية خاصة بها هي "المجتمع المدني"، فما أيسر ما وضع أولاد قاسم صالح وبناته عليها اليد. نفذوا إليها من باب المساعدة المالية. أصبح الكبار منهم والصغار رؤساء لجمعيات كثيرة من قبيل جمعيات الكرة بمختلف أنواعها والرياضة

والخفّة بمختلف أصنافها وجمعيات حفظ القرآن الكريم وتجويده وحماية البيئة والعناية بالفنون الشعبية وصيانة التراث المادي وغير المادي ولعب الورق وتجميل الأحياء والحفاظ على السلاحف ورعاية العصافير وتزيين العرائس باللّباس التقليدي والغناء والرقص وتصفيف الشعور.

غير أن جمعية واحدة من هذه الجمعيات التي أصبحت لا تحصى ولا تعدّ لم تفلح في الفوز في منافسة واحدة من تلك المنافسات الكثيرة التي كانت تقام بين الأحياء والقرى المتجاورة ثم بين المدن والولايات، فلم يلحق منها أيَّ رئيس الفخرُ الذي ينفحه أو يغطيه بروائح الوجاهة. بل إن السحر كان، أحيانا، ينقلب على الساحر في الجمعيات الرياضية خاصة، فما أن ينهزم فريق رياضي على أرضنا في مقابلة من المقابلات حتى يشرع جمهورنا الرياضي الغاضب في السبّ والشتم والتخريب مطلقا لسانه في رئيس الجمعية المهزومة صادحا بالشعارات القبيحة البشعة والتسميات القديمة. تطفو الروائح العفنة وتظل تصك الأنفاس أياما.

همس لهم بعض النّصحاء أن الوجاهة أصبحت تدرك، في زماننا، بواسطة الأعمال الخيرية من قبيل العناية بالمعوّقين والمشردين واليتامى والبؤساء والمفقّرين وباستصلاح المعالم الأثرية وبناء المساجد وترميم المقامات والزويّا. قالوا لهم: " ألا ترون أن المعوّقين أصبحوا يسمون "ذوي احتياجات خاصة"؟ واستبشعوا لهم ما درج عليه أهل مدينتنا من تسمية كل ذي عاهة بعاهته. وعندما اعترضوا بأن ذلك يكلّف مالا كثيرا لا مردود له طمأنهم الناصحون لهم بقولهم:"ما عليكم إلا أن تقوموا ببعث المشروع الخيري حتى يزدان بأسمائكم. أما التكلفة الفعلية فلها من يتكفل بانتزاعها من الذين أثروا في هذا العهد الزاهر.

سيدفعون، أحبوا أم كرهوا. هل كانوا يثرون لو لم تغضّ الحكومة الرشيدة عنهم الطرف؟"

أقبل أولاد صالح قاسم وبناته على تكوين جمعيات خيرية كثيرة. لكن السّحر انقلب أيضا على الساحر، فقد نشرت ألسنة السوء أن الأموال التي كانت تجمع لتلك الجمعيات كثيرا ما كانت تحوّل إلى الحسابات الخاصة سلفا أو نسيئة. وعندما كتب بعض الأشقياء من التلاميذ الفاشلين على السور الخارجي لمعلم تاريخي يرقد فيه ولي صالح من أوليائنا الكثيرين، بعد تحويله إلى متحف لا يتردد عليه أحد، عبارة " لم يكفهم نهب الأحياء حتى نهبوا أصحاب المقامات"، وخطّوا على المعلقات الشاهرة لبعض الجمعيات الخيرية عبارات تشهّر بهم من قبيل" الخير الغاشم من أولاد قاسم" أو" أنا أجمع أنت تجمع .. قاسم يسرق ويقسّم"، بدأ النشاط في هذا الوجه الاجتماعي ينحسر حتى كاد ينقطع .

قال بعض الواسعين في الحيلة والوصولية من محترفي التقفيف والتزلف لسي الفتحي شهوات أن الوجاهة كانت، في القديم، تكتسب بالمصاهرة، مصاهرة الذوات والأعيان. قال له أحد المجّان المقرّبين منه، وكان فاسقا ظريفا، إن المؤرخ الحزين، قبل أن يتلوّث مخه وتفسد رائحته وعندما كان " سنبتيكا"[16]، ذكر لهم كتابا اسمه "الكُسْكُس في من انفتحت له بـ(.....) أبواب السّعد والحُسْحُس"[17] كان

16- فرنسية، تطلق على الظرف واللطف.

17- الفراغ يعوّض لفظة نابية جدا لا يقدر على تحملها ذوو الأحاسيس المرهفة. أما الكتاب وعنوانه هو " الأسّ في من ارتفع ... " فينسبه بعضهم إلى السيوطي، وكان متداولا لدى أصحاب الجاه من المغرمين بالتراث فبعضهم يؤثر به بعضا. وكان المؤرخ الحزين، كلما جرى لهذا النوع من الكتب ذكر، يقول:" لله تلك العقول، كم كانت نيرة وتلك الصدور كم كانت

يؤكّد أنه فريد في بابه. ضحك سي الفتحي حتى استلقى على ظهره من كثرة السينات والكافات بهذا الاسم الغريب القبيح ثم قلّبها مليّا في ذهنه وقال:" تراه يرضى بأن يعطينا منه ورقات نتبرك بها". تجاهل الظريف مقالته فسكت. بعد أيام نطق الفتحي فرفع قضية في الطلاق بزوجته. أصبح يتحاشى داره حتى عثرت عليه زوجته، ذات يوم، عند إحدى أخواته فصاحت فيه :" يا فتحي شهوات. كنت من الخراوات فأصبحت من الذوات. أهون عليك فتطلقني. أنا التي جعلت منك رجلا. ما ظننتك تنسى يا وجه النّحس. رضيت بك وصبرت عليك عندما كنت وسخا نتنا لا ينقطع القمل من شعرك. أسكتُ أم أنطق بما يسوؤك يا خسيس النفس". تراجع سي الفتحي هامّا بالخروج فصاحت به زوجته :" حدّك ثَمْ يا وضيع ! أما أنا فلم تعد لك أيّ قيمة عندي منذ انتفخ بطنك بالمال الحرام. وأما الطلاق فتفاهم فيه مع أولادك، تريد أن تجعلهم، يا عديم الضمير، ضحكة في البلد".

لكن سي فتحي أصرّ على طلب الانفصال عن زوجته وتمسك به. تردد عليه أولاده غاضبين حزانى فقال لهم:" بعد الخراء الذي سمعته منها حرمت عليّ. تبقى مكرّمة معززة مصونة. لن ينقصها شيء" ثم أصبح أعوانه يحولون دونهم ودون الوصول إليه.

تأيّمت في تلك الأثناء زهيّة بنت الحاج عبدِ الله الناشئ. كانت امرأة عاقلة صارخة الجمال متأصلة في المجد والشرف من قبل أبيها وأمها. قال الذين عرفوها مقسِمين بأغلظ الأيمان:" ألوان الخزف الزهري تنعكس

رحبة. ما أرى الحضارات تبنى إلا بمثلها. أما التعصب فلا يعطي سوى الجهل وخراب الجسد والروح"، فكان البعض يستوحش من كلامه ويرميه بالرغبة في إفساد الأخلاق والإزراء بالقيم الشريفة فيظل يضحك ويضحك حتى تدمع عيناه.

على جلدة ساقها". تزوجها، فكان أب عذرتها، صالح الشمّاس، أحد الوجهاء أبا عن جد، ومات عنها، بعد البناء بها ببضعة أسابيع، في حادث مرور اهتزت له المدينة بأسرها. ما كادت عدتها تنقضي حتى تزوجها عبد القادر الهبّاش. قالت متندّرة، على طريقتنا في قراءة الأسماء والرموز، " كانت الشين في لقبي وسطى فانتقلت إليه بالزواج الأول ابتداءً وها هي تنتقل إليه انتهاءً" . أنجبت ولدا وبنتا ومات زوجها بداء عضال لم يمهله. ناحت عليه واقفة فلامتها في ذلك النساء. قلن لها:" ما زلت سيدة النساء، فما الذي دهاك؟ المرأة المرأة لا تتفتّح للشمّ إلا بين الثلاثين والأربعين" قالت:"ما حمدتُ من الأوّل شيئا لم أحمده من الثاني. كلاهما كان ماجدا فاضلا يفكر في الجار قبل أهل الدار وفي البعيد قبل القريب، وفي غيره قبل نفسه. لا أنكر أن المدينة لم تخلُ بعد من حاملي هذه الصفات. لكن خشيتُ أن يتسلط عليّ بعض الأوباش فلا أقدر على صدّهم".

ما كادت هذه المرأة تسلخ عدّتها حتى أرسل سي الفتحي يطلبها لنفسه. قالت إحدى النساء اللاتي أرسلهن :"جئناك من قِبَله. سبحان الله، كأنه جلّ جلاله وعلا شأنه ما استأثر بالمرحوم وأوعز لسي الفتحي بأن ينفصل عن زوجته، في هذا الوقت بالذات، إلا لحكمة لا يدركها إلا هو من عليائه. قلنا لا تزهو زهية إلا بسي الفتحي ولا يفتح الله عليها إلا به". تركت زهية المرأة تسترسل في تعداد مناقب سي الفتحي تساعدها في ذلك رفيقاتها. وعندما أطلن حتى انبهرت أنفاسهن قالت:"ما كنت – يشهد الله – لأفضّل عليه أيّ آخر بعلا، وهو من هو الجامع المانع. غير أنكن شاهدتن ما شاهدته جميع النساء وعرفه العام والخاص من نواحي على المرحوم واقفة". همّت إحداهن بمقاطعتها فأوقفتها بحركة

من يدها وقالت:" أعتقد أني أسقط من عينه ومن عيون جميع الناس إن أنا نكثت عهدا اتخذته وأشهدت عليه البشر والملائكة أجمعين". قالت المرأة التي كانت قد همت بالكلام:" ما كانت، وأنت الأصيلة العاقلة، إلا حركة خرقاء ندّت عن لوعة فانفلتت، أطلقتها الحرقة". سكتت زهية مليا وقالت:" مهما نأت من فعل فهو مقدّر من عند الله بتدبير لا ندركه، حتى فلتات اللسان". وصرفتهن متلطفة في الكلام ملمّحة إلى هدية لكل واحدة منهن ترسلها إليها لاحقا.

غضب الفتحي شهوات من ردّ زهية له حتى أزبد واهتز بطنه المدلوق اهتزازا شديدا. كان لا يعرف أصلا أن إناثنا المتأصلات في الشرف والرفعة المملكات في أنفسهن إذا هلك زوج إحداهن وناحت عليه واقفة كان ذلك إعلانا منها للناس أنها لا ترغب بعده في زواج حفظا للكرامة من حرج الطلب وقبح الرد. أما إذا ناحت عليه جالسة فإن ذلك يعني أنها ما زالت راغبة في الاستمرار في القيام بوظيفتها زوجة. فسّر له ذلك بعض أتباعه المقربين فجعل يهدر قائلا:" والله والله، إن بلغني أنها تزوجت استبحتها لعشرين من رجالي في ليلة واحدة وأشبعتهم منها. قالوا ناحت واقفة، قطع الله ساقيها، وهل هي إلا..." وأتبع ذلك كلاما فاحشا لا فائدة فيه.

فاح خبر ردّ زهية للفتحي شهوات، فأثنى عليها كثير من الناس، وصاغ بعض الخبثاء عبارة " سْبَقْ. ما لحقْ. يحبْ يَاخُذ زهية" ولقنها لبعض الصبية، فصاروا إذا شاهدوا الفتحي صدحوا بها. وعندما تكرّر الأمر فهم التلميحَ وأدرك أن الرائحة قد رسخت فيه فاشتعل في أتباعه صارخا:" ما لكم لا تحرّكون ساكنا. امسكوا بهم. خوزقوهم جميعا. العنوهم! استفعلوا في أمهاتهم وآباءهم وأجدادهم". أقبل عليه أحد

الأتباع ممن كانت له عليه دالة فقال: " الكلام ليس موجّها لك يا سيدي. إنه شفق، تفخيم لشفيّق ولد المرْشَى مزيان. وزهية هذه جارة له رغب فيها وفاز بها سواه فدخل في الحِلّة".

لم يستطع شهاب، أكبر أولاد سي الفتحي، أن يكتم شماتة في أبيه من الصفعة التي وجهتها له زهية. قال أمام جمع من أتباع أبيه: " يستحق أكثر من هذا. أذلنا وأذل نفسه. هل رَخُص إلى هذا الحد؟ لم يقدر حتى على أن يتفخّذ نعجة عجفاء استهلكها تعدد الاستعمال. أصبحنا هزأة في البلد. لست أشك في أنه مسحور". وأقبل على منكبيه يزاحم بهما ويلتمس لنفسه موقعا في حلبة السلب والنهب.

ما أن أخذت التعاليق عن مسألة زهية في الانحسار حتى أرسل الفتحي في طلب معرفة له من صغار رجال الأعمال المتعلقين بأذياله. كان هذا الرجل بقية باقية من عائلة كانت، يوما، ذات جاه ومال ووجاهة. ذهب عن المتبقين منها المال والجاه وضمرت الوجاهة فطمعوا وجشعوا فذلوا. كان هذا الرجل أكثرهم ذلاّ وأشدّهم حرصا على التقرّب من سي الفتحي حتى عطف عليه فتكرّم عليه بأن جعله صنيعة من صنائعه. جاء الرجل رجلاه أعلى من رأسه. دخل على الفتحي منبهر الأنفاس يتفصّد عرقا ويؤمّل خيرا. ما كاد يجلس حتى بادره الفتحي بقوله: "من الآخر. أريد ابنتك شكيرة". تفاجأ الرجل فقال: " لمن؟" انتصب الفتحي واقفا ورفع يديه ناظرا إلى كتفيه بزهو ساخر وقال: " لمن؟ ما أشدّ غباءك! لي أنا. أنظر إلي. لعلي لست على قدر المقام؟ تريد أن أريك إياه لتطمئن...". صعق الرجل فهمهم متلعثما وقد شاح ريقه: " لكن... لديها خطيب... يتردد عليها". صرخ فيه الفتحي: " تفسخ الخطوبة. وإذا رفض تقتله. دبّر له مكيدة مخدرات

ترمي به في السجن إلى أبد الآبدين". طلب الرجل شيئا من الماء يسرّح به شجاه وقال:"لكنها صغيرة. ما زالت في الثانوي". ضرب الفتحي على خوان كان أمامه ضربة أطارت ما عليه وصاح:" تسخر مني. تقول الآن إن لها خطيبا ثم لا تستحي فتزعم أنها " غشّيرة"[18]. الزفاف بعد شهر...ولا كلمة".

خرج الرجل ممسكا برأسه. ما كاد يصل إلى بيته حتى أخذته رعدة فجعل يهذي كالمحموم قائلا:" غطوني، دثروني". ضحكت زوجته وكانت ماجنة وقالت:" ماذا؟ حتى أنت. ملائكة أم شياطين؟". وعندما التحقت به إلى غرفة نومه رمى لها بالخبر. كانت أكثر منه جشعا وطمعا وأدهى وأدنى فقالت:" أفزعتني حتى ارتفع نبضي. سامحك الله. أمن مثل هذا التشريف تتحيّر؟". ظل الرجل يتأمل زوجته مفتوح الفم غير فاهم فقالت:" باب سعد وانفتح في وجوهنا يا مهبول. دع الأمر لي. البنت يخطفها الألوف وتحلّ لواحد فيه مكتوبها. ثم إنه سي الفتحي وما أدراك". قال الرجل:" الفتحي شقوات" فزجرته الزوجة قائلة:"عيب. أحفظ لسانك. من هذه الساعة هو صهرك".

زفّت المرأة الخبر لابنتها فبكت ونطّت وهددت بالانتحار وتحرّزت بالرفض. قالت:" بيني وبين حبيبي روميو عهود. لست أبغي سواه". ضيّقت المرأة على ابنتها الخناق، طوقتها بكلام كثير أعلت فيه من شأن الأزواج المتقدمين في السن. كانت تقول لها:" إن شئت كان لك أبا، وإن شئت كان بعلا، وإن شئت كان أما وأخا وأختا. ساقك دائما فوق رقبته. والسر كل السر عندنا نحن". وأرفقت العبارة بضربة صغيرة

18- صغيرة غرّة.

على صدرها. "أنت الملكة وهو دائما الخادم المطيع الذليل العاجز. أما لعبك مع صاحبك، ما اسمه؟ روميو ؟ فعبث مراهقين". تظاهرت البنت بالاقتناع وأعلنت الانصياع لرغبة والدها، وتحيّنت إحدى الفرص فهربت مع صاحبها.

تمكّن الفزعُ من والدها حتى ألزمه الفراش. ثم تحامل على روعه وأتي سي الفتحي في البيت الذي استقر فيه هاربا من أبنائه. اختلى به وألقى إليه بالخبر. ضحك الفتحي وقال:" أردّها ولو كانت في المريخ. أنا الفتحي وما أدراك". وأمر أعوانه بتعقبها. ظلوا يجدّون في السؤال والطلب حتى عثروا عليها مع صاحبها روميو في مدينة قريبة ببيت أخت له كانت على سفر. أذاقوا الشاب شيئا من حَرِّ أيديهم وهددوه باقتلاع بيضتيه وتعليقهما في أذنيه إن هو تجرأ مرة واحدة واقترب من شكيرة. قال أحد أصدقاء ذلك الشاب :" قضينا معها يومين كاملين وهي في ثيابها الداخلية. كانت تضرب براحتها على فخذيها وصدرها وتقول:" من يرغب في هذا اللحم الشهي من؟ يريدني نقية نظيفة لا تعرف شيئا. لن يلحق إلا على وعاء ملطخ". كنّا والله كالمسحورين لا نقدر، من فرط الهلع، حتى على أن نسترق إليها النظر". نصحه من سمع منه هذا الكلام بأن ينساه تماما. قال له :" تخاف على نفسك".

ما كادت شكيرة تستقرّ ببيت والدها حتى جاء الفتحي ليطمئن عليها. قال لأمها :" لا أقبل تضييقا على البنت. إياكم وإغضابها. ريحانة حياتي لا أرضى فيها دونا. أيّ عيب أتت؟ ردّ فعل سليم من فتاة أصيلة وفية وغرّة. العيب ليس فيها. الذين استغلوا طيبتها وغرّروا بها هم المفسدون". استدعاها ولاطفها وأبلغها أنه يأخذها، بعد أيام، إلى مدينة سياحية لحديث خاص. أتاها في إحدى سياراته الفخمة. ذكر لها

صراحة أنه لا يرغب إلا في أن تكون " زوجة شرعية له، تحمل اسمه وتصحبه إلى حفلات الاستقبال في المناسبات الكبيرة". قال لها إنها مملكة في نفسها في كل شيء. وقصد بها متاجر ومطاعم راقية. غرّقها من الهدايا الثمينة ما جعلها تعبّر، شبه باكية، عن ندمها على الفعلة البشعة التي أتت في لحظة طيش.

أبدى شهاب غضبا من هذه الزيجة التي عزم عليها أبوه عندما سمع بها. جعل يردد بمرأى من رجال أبيه:" من فضيحة إلى أخرى. ليتنا كنا نقدر على الحجر عليه. لم يجد في المدينة كلها إلا من هي أصغر من بناته. ثم من هي؟ انتزعها من خليل لها أصغر من أولاده بعد أن... ". لكن أعوان أبيه لم ينقلوا له شيئا من قبيح ما كان يتلفظ به. قال بعضهم لبعض:" ليس لنا أن ندخل بين الظفر واللحم. نكون لا محالة من الخاسرين".

أقيمَ حفلُ الزّفاف في أفخم فندق بالجهة. كانت جميع الغرف وجميع الساحات والملاهي والمطاعم محجوزة للضيوف على حساب سي الفتحي. قال بعض الناس:" رفض صاحب الفندق أيّ مقابل ماليّ. قال: هدية من الفندق للعروسين النبيلين". حرص الذين حضروا العرس على أن يقدّم كلّ منهم هدية للعروس كانت في الغالب صكوكا بنكية وظروفا نقدية شديدة التورّم. حرص أعوان العريس على أن يسجّلوا على كل ظرف هوية صاحبه.

لم يشب الحفل البهيج سوى مقدم شهاب. كان شبه مخمور فأراد أعوان الفتحي صدّه، إلا أنهم خافوا من عاقبة قرار يتخذونه قد لا يرضى عنه سيدهم. كان شهاب يقول:" هذا لا يكون. أبي ولا أهنّيه بفرحة العمر!". أنهوا الخبر إلى العريس في تصديرته فتردد ثم همس

في أذن عروسه كلاما واتجه إلى حيث كان ولده مطوّقا برجال الحراسة. قال شهاب عندما اقترب منه والده: " مهما أكن غير مسرور بهذه الزيجة، فأنت والدي". وهمّ بمعانقته، وسحب، من حيث لم يفطن أحد، شفرة حلاقة شلط بها وجه أبيه. دفع الأب عنه ضناه بشدة فانقض عليه الحراس فبطحوه أرضا. لم يكن الجرح بالغا. لم يتجاوز قشرة جلدة الخد. عاينه أحد الرجال وجعل يضغط عليه بمنديل وسحب سي الفتحي إلى مبنى الفندق من أحد أبوابه الخلفية. قال الفتحي مشيرا إلى حيث كان ولده مبطوحا: " خذوه برفق إلى أمه حتى تلعَقه. لم يأخذ كفايته من اللّعق". وعندما عاد إلى عروسه لم يلاحظ الحاضرون سوى أنه كان يستر بقعة صغيرة في خده بضمادة تكاد لا تُرى. همس لعروسه كلاما فلم يظهر عليها شيء، بل ضحكت وحرّكت رأسها بدلّال. وعندما زف الحاضرون العروسين إلى السيارة الجديدة الفارهة التي تأخذهما إلى فندق آخر ومنه إلى المطار نحو بلد من البلدان السعيدة وجعلوا يهتفون :" يا سي الفتحي يا بطل. أنت فوق الناس الكل" استحسن التعليلة فابتسم لهم ابتسامته الغبية البلهاء التي لم يعد يذكرها الناس وحيّاهم بيد ترتفع ولا تتحرك إلا وئيدا.

لم يقتد نعيم النمس ولا سالم كاناسوكر بأخيهما الفتحي في ما أقدم عليه. اقتصر حضورهما على تقديم واجب التهنئة في بداية حفل الزفاف وانفتلا مسرعين. زجرهما عنه ما كان قد بلغهما من أن والدهما، عندما فوجئ بانطلاق مراسم الزواج، قرّع ابنه في الهاتف طويلا وأبلغه أنه يمتنع عن الحضور. قال له :" ظننتك تتلهى بها مديدة وتلقي بها لبعض الكلاب حواليك، فإذا بك الغبي الساذج الذي عهدت". اكتفى الأخوان بأن سعيا سعيًا منكرا إلى تزويج بناتهما وأولادهما ممّن

كانوا يعدّون، بمدينتنا، من بقايا أبناء الذوات. أما الذوات أنفسهم فكانوا، عندما شاهدوا شهوات "الفتحي شهوات" لا تقف عند حد ولا تجد من يلجمها، قد فرّطوا في ما كان بين أيديهم من متاجر ومصانع أو كان لهم من دور وجنائن وتحوّلوا إلى بلدان بعيدة. كانوا يقولون كلما صادفوا واحدا من مدينتنا وسألهم عن أحوالهم:"ننعم على الأقل بأفضال النكرات". وجد الناس في تلك الزيجات غير المتكافئة فرصا للتندر كانت مشفوعة بالتظاهر بكثير من الاستغراب. كانوا يقولون:"لعنة الله على الطمع والمال. عشنا وشفنا زواج القردة بالغواني والملاحة بالبشاعة".

تناقل أهل مدينتنا أنهم شاهدوا المؤرخ الحزين في سيارة تاكسي كانت تقله إلى بيته فأشاروا للسائق بالوقوف وتجمعوا على السيارة فأخرج لهم رأسه وتبسّم. قالوا له: " الروائح الروائح"، فأشار بسبابته إلى أنفه دلالة على أنه قد فقد حاسة الشم وأعقب ذلك إشارة فاحشة من ذراعه وقال:" هذا ما تستحقون فانعموا به". وعندما غابت به السيارة في المنعطفات قالوا:" لم يعد لنا فيه نفع. أصبح يكرهنا. حتى العجوز التي لازمت بيته واقفة على خدمته أصبحت صمّاء بكماء لا تقدر حتى على الطمأنة على صحته".

ما كاد سي الفتحي يستقر بعروسه في الفيلا الجديدة التي بناها على طراز أوروبي وقح حتى شرع ابنه شهاب في الاضطراب لدى أعمامه وعمّاته مطالبا بنصيبه من الثروة. كان قد تناهى إليه أن أباه قد هدد، أثناء غضبه عليه، بـ" قَرْده[19]" من الميراث. كان في اضطرابه يقول:"خرف، والله، الرجل. سيكون له من حمارته أولاد وبنات. وحماته السحّارة، لن

19- قرده: حرمه.

تتركه طلاسمها حتى تسلبه القديم والجديد. وأنا، ألست ابنه؟ أمن صلبه تحدّرت أم من صلب سواه؟ أريد نصيبي؟". حاول عمّاه حمله على الكف عن التمادي في إشعال النار بينه وبين والده، إلا أنه لم ينتصح. كان يقول: " تصابى الشيخ فبنى بعروس يفترشها زناة الليل من أسياده المتنفذون". بدأ الجميع يتفادونه خوفا من بطش أبيه. ارتمى عليه في هذه الفترة التي كان فيها منبوذا شاب من مدينتنا أصبح له نجيًّا.

كان هذا الشاب نابغة في المعرفة واسع الثقافة شديد الذكاء، إلا أنه كان جشعا حسودا حقودا مصابا بفيروس الوصولية. تقلّب من أواخر دولة الاستقلال والسيادة، ردحا من الزمن، في صفوف اليساريين، وعندما داخله اليقينُ بأن لا مستقبل لهم انتقل إلى النشاط في صفوف الملتحين. وعندما شاهد البُسُطَ تسحبُ من تحت أقدامهم تنكر لهم وأصبح يلغ فيهم. حاول أن يجد لنفسه منفذا في دولة العهد الجديد فسُدّت في وجهه جميع المداخل. قال فيه أحد كبار المستشارين: " إن كان على أتم الاستعداد لأن يبيع جلده مقابل أيّ منصب في أرذل مكان فإن له من الذكاء ما لا يسمح بالارتياح إليه". قضى هذا الحكم على جميع أحلامه فظل متروكا تتضوّع منه النتونة إلى أن هداه الحدس إلى أن التقرّب من شهاب بن الفتحي شهوات طريق مفضية إلى الجد صالح قاسم نفسه إن هو أفلح في الوصول إليه برأب الصدع بين الولد وأبيه.

كان شهاب، مثل معظم أهل مدينتنا، يجمع بين شديد التوجس من الآخرين ومنتهى السذاجة والغفلة. ظل مدة لا يُقبل على صاحبه سمير إلا بما يُبقي على العلاقة بينهما أكثر من ودّية، حتى أزاح، ذات يوم كانا فيه على شراب، عن وجهه القناع فباح لسمير بهمّه. أنصت له سمير دون أيّ تعليق. وعندما كفّ شهاب عن الشكوى، ظل صامتا إلى أن

سمعه يقول مستدرّا تعاطفا وعذرا:" أرأيت يا صاحبي الهمّ الذي أنا فيه؟ تهتُ وتخلّى عنّي الدليل" . تظاهر سمير، عندئذ، بالتفكير وقال:" أعطيك رأيي حتى لو أدى ذلك إلى انقطاع صحبتنا. ما أراك إلا أخطأت الطريق إلى ما تريد. مستقبلك ليس مع أبيك. إنه مع جدك. من صنع سي الفتحي؟ جدّك هو الذي صنعه. أتترك العين وتقصد الغدير؟" . ورد على شهاب ما لم يكن يدخل في حسبانه، فهمهم هامسا:" فات الأوان. أفسدت كل شيء بالحرب التي شهرتها على أبي. ما هو، في آخر الأمر، إلا ابنه" . أطرق سمير لحظة وقال:"الرائج لدى العامة أن الآباء يحبون أبناءهم. قد يكون في هذا بعض من الصواب. لكن الثابت أنهم يحبون الأحفاد أكثر من الأبناء. يكبر الأبناء فيحزن الآباء من هروب الأيام بهم. أمّا كبر الأحفاد فيطمع في الخلود" . لم يفهم شهاب كثيرا مما قاله سمير لكنه اقتنع بضرورة التصالح مع والده. قال:"أخشى أن يردّني" فقال سمير:" كان يكون ذلك لو لم يكن بهم غرور الآباء" . اقترح عليه أن يقصد والده وأن يكبّ علي رأسه ويطلب غفرانه. قال له:" لا تفرط في التذلل وركّز على أنك أتيتَ من الخطأ ومن كلام كثير كان يصلك عنه" . ثم قال له:" سيعتقد أنك جئت ترغب في شيء من الأشياء، فلا تطلب منه شيئا. إذا عرض عليك عطاءً لا تقبله. اشكره فقط حتى يتأكد من أنك ما جئت إلا ملتمسا رضاه" .

كانت نصائح سمير فعّالة في رأب الصدع بين سي الفتحي وابنه، فازداد نفوذه عليه تعاظما. بعد أيام طلب منه أن يستأذن والده في زيارة يؤديها إلى جدّه بالحاضرة. قال له : " أحطه علما بأنك ترغب في الاعتذار لجدّك عمّا كان قد بدر منك من فاسد التصرّف وقبيح الكلام" . فوجئ شهاب بجدّه يفرح به فرحا غامرا حتى أنه استبقاه عنده أياما.

ظل شهاب بضعة أشهر لا يظهر لأبيه وعمّيه وعمّاته إلا أنه قد ثاب إلى رشده. ثم أوعز له سمير أن يقصد جدّه ويذكر له، عرَضا، أنه يرغب في أن يكون رجلا صالحا. أوصاه بأن يتظاهر بالجهل بمصادر الثروات التي تهاطلت على أولاد قاسم بمدينتنا حتى غرّقتهم. قال له :" اذكر له أنك تريد أن تطير بجناحيك. أبلغه أنك لم تهتد بعد إلى أقوم المداخل إلى المال والجاه. لا ترفع رأسك عاليا. قل له: خطر لي أن أنطلق في تجارة بسيطة أو صناعة من الصناعات". كانت النتيجة أن الجد أعجب بنوايا حفيده وضحك من سذاجته حتى قال معابثا:" غلب فيك عرق أمك. كأنك لم تنحدر من صلب ذلك الأسد". سكت الجدّ مليا وقال:" أنا أيضا غلب فيّ عرق أمي. ورثت منها الصبر والكتمان والأمانة".

أصبح شهاب لا يصبر على أن يغيب عنه سمير يوما واحدا. صار يجدّ في طلبه ويغضب كلما تخلف عنه أو أخفق في العثور عليه. ولما أيقن سمير أنه ملأ منه يده قال له:" آت الآن جدك وكرر له أنك ترغب في تكوين مشروع يسمح لك بأن تطير بجناحيك لا بأجنحة سواك". أبدى الجدّ اهتماما بما رغب فيه شهاب وقال:" لدي شرط واحد، إن نسيته أو غفلت عنه دمّرتك إلى الأبد. ألاّ تدوس على أقدام أبيك وأعمامك وعماتك".سكت هنيهة كان يرمق فيها حفيده خلسة ثم قال:" وأن تنفع البلد". لم يدرِ الشاب أيّ كلام يقول فاكتفى بالموافقة. أصبح، بتدخلات من الجدِّ وتسهيلات من البنوك، صاحب شركة عالمية للتصدير والتوريد. كان ذلك هو المشروع الذي أقنعه به سمير. وعندما سأله عما سيصدّر ويورّد قال :" دع الأمر عليّ. اجعلني ربّا لأعمالك ونتوكل على الله. الذي في الورق يبقى في الورق. نحن

الآن من رجال الأعمال".

أنشئت شركة شهاب للتصدير والتوريد في أقرب مدينة كبيرة وفتحت لها مكتبين أحدهما في الحاضرة والآخر في مدينتنا. كان مكتبها الرئيس هو الذي يقع في مدينتنا في عمارة فخمة. أنشأت الشركة مستودعات كثيرة على مساحة شاسعة كانت بها غابة من الزياتين، غير بعيد عن السبخة، فتحت إليها طرقات عريضة.

قدّم شهاب وكيل أعماله لجدّه فجعل يسأله عن أبويه وأجداده حتى إذا أثبته قال له:" البيت الذي كنتم به بالعمشان ما زال على ملككم أم..". قال سمير:" احتاجت إليه البلدية لتوسيع الأزقة فدخل جزء كبير منه في الطريق العام". وأبحر فجأة في حديث طويل اعترف فيه للجدّ صالح قاسم بأنه انخرط، منذ كان تلميذا، في صفوف اليسار ثم تركهم إلى الإسلاميين فانضم إليهم ردحا من الزمن، ثم دخل في مرحلة تأمل. قال:" انتهيت إلى أن بلادنا لم تشهد سوى حركتين في التحديث جديتين: الأولى حركة التعاضد، والثانية هذه التي تحصل الآن. أما الأولى فقد فشلت لأنها كانت متأخرة عن زمانها ببضعة عقود. وحتى إذا كانت قد استمرت ولم يقع التسريع بإيقافها فإن مصيرها الفشل. وأما الثانية فأخشى أن تكون سابقة لأوانها لأنها في طليعة ما يجري في العالم. لذا فهي تحتاج إلى أن تُشرح حتى تُعرف مزاياها. المرحلة التي جاءت بعد تجربة التعاضد أنشأت رأسمالية رثة. كانت عاجزة ومتخلفة". أنصت الجد للتحليل الطويل الذي ألقاه سمير. لم تغب عنه المرامي التي كان يشير إليها فقرّر أن يقطع عليه طريقها فقال:"لو لا أنك الوكيل الذي لا يمكن لحفيدي أن يستغني عنه كنت جعلتك بالقصر الرئاسي من كبار المستشارين. ما أظن غيرك يفهم هذا الذي

فهمت. أمثالك يبحث سيادته عنهم بالفتّاشة. ثم إني أخشى أن يطيح بك بعض القروش فتتهشم فلا أقدر، مع تقدمي في السن وتمسكي بالأخلاق، على أن ألمّك. الذي تعلمته في حياتي، وهي حافلة بالمخاطر والمغامرات، أن المشكل ليس في الصعود بل في التماسك".

لم ييئس سمير فأصبح يجدّ في الذبّ عن التوجّه الجديد الذي صار ينتهجه رجال الأعمال وأصحاب الأموال في تنمية ثرواتهم. لم يكن مقتنعا بالحجج التي كان يحاول بنيانها لمدح هذا العهد فالفوضى والجلافة والصفاقة والجهل والغطرسة والغدر من أكبر صفات المتنفذين فيه لكنه كان مؤمنا بالمثل الشعبي الذي يقول :" كلمة في الصباح وكلمة في العشية تردّ العجوز صبية". جعل يردد، في المجالس القليلة التي كان يحضرها منتقيا منها ما يكثر فيه الوشاة والمخبرون من الطراز الثقيل :" لا بد من تجميع المال في الأيدي التي تقدر على التصرّف فيه. الخطر الأكبر الذي يهدد هذا التوجّه الجديد يكمن، كالنار في الرماد، في أصحاب الأفكار البالية المتعلقة بالاشتراكية والعدالة الاجتماعية والمساواة وما إلى ذلك من الأفكار السخيفة. أحلام الفقراء والبائسين. الخطر الثاني الذي يخُشى منه على البلاد يمثله فهم للإسلام السياسي لا يدخل في ذهن عاقل. متى كان للإيمان دخل في الاقتصاد والمال وتقدّم البلدان؟ أروني لهم مشروعا واحدا متماسكا؟ ما بقي أمامنا إلا حل وحيد. إنه الحل المستقبلي الذي يتمثل في الوطنيين الحقيقيين. ألا ترون أنهم لا يجمّدون الأموال التي تجتمع لهم في الحلي والحسابات البنكية والعقارات؟ ألا ترون الأموال، ما أن تلامس أيديهم، حتى تشرع في التحرك والاضطراب فاتحة للتنمية أبوابا كانت موصدة. حرّك المال يتحرك كل شيء حتى الأموات في قبورهم". عندما شاهده بعض

الناس يردد مثل هذا الكلام في المجالس التي كان يتردد عليها أطلقوا عليه، متهكمين، تسمية " محرّك الأموال" فلصقت به.

وجّه سمير نشاط الشركة التي كوّنها شهاب، بمساندة من جدّه، واختار لها من الأسماء الحروف اللاتينية K L C (عرّبها بـ ق. ن. ح قاسم للنقل الحرّ) تنطق بالإنجليزية (كاسّيم ليبر سيركليشن) إلى نقل البضائع والسلع. كانت البواخر تأتي بحاويات لا يعرف أحد ما فيها فتتلقفها شاحنات عملاقة وتتجه إلى مستودعات سرعان ما تتركها إلى مخازن منتشرة في كثير من المدن ليتم توزيعها على تجار الجملة والتفصيل. همس بعض المشتغلين بهذه الشركة لبعض الناس أن " حليب الغولة " نفسه لا يعجز شهاب عن الإتيان به. قيل إن واحدا من ضباط الديوانة [20] قد رغب، متمسّكا بإمضاء القوانين، في التعرّف على محتوى بعض الحاويات وأصرّ على ذلك فتمّ اتهامه بالارتشاء وفُصِل عن الشغل فورا. تناقلت ألسنة السوء أن معظم البضائع التي كانت ترد في الحاويات لا يبقى منها ببلادنا سوى الشيء القليل، فمعظمها يمرّ إلى الأجوار عبر شبكات ذات أذرع مفتولة طويلة ومخالب حادّة وسلطان نافذ. توسّعت أعمال شهاب وكبرت ثروته. أصبح قليل الظهور بالمدينة. قيل إن سميرا قد اقترح عليه الإقامة في أجنحة ببعض الفنادق فقد كان يتعامل مع كثير من الأجانب.

تندّر أهل مدينتنا بضعة أسابيع بواقعة حصلت عَرَضًا بين المؤرخ الحزين وسمير " محرك الأموال". التقيا في مأتم. كان المتوفى صديقا للمؤرخ الحزين فأصرّ على القيام بواجب التعزية رغم الوهن الذي

20- الجمارك.

بدأ يأخذ منه. كان جالسا إلى جوار ابن المتوفى عندما شرع سمير في الحديث عن "مزايا الانفتاح التجاري الذي جعل من العالم وطنا واحدا يدار ديمقراطيا بحكمة لم يسبق لها مثيل"، ففي مآتمنا يحرص المعزّون على الخوض في شؤون الدنيا مكثرين من سرد النوادر المسلية والغرائب معرّجين على ما يتسم به هذا الزمان من طريف الخصائص حتى ينسى المصابُ أحزانه. سمع المؤرخ سميرا يقول:" يسّر النظام العالمي الجديد لبلادنا أن ترتقي إلى مصاف الدول المتقدمة. أصبح بمقدور أيّ منا أن يطير محلقا في سماوات أخرى. أسفي على الذين لم يفهموا هذا العهد فبقوا متعلقين بالعربات التي تجرها الحمير يحلمون بتقاسم الكسرة اليابسة". لم يعد المؤرخ قادرا على التحمل فنهض واقفا وقال:" حتى هذا كلام. يجب أن يكون المرء شديد الحمق أو سفيها حتى يفرح بهذه المهانة. أوباش هذا العصر يقتحمونه فرسانا على خيول من فولاذ. أما نحن فنهرول، في ركابهم، راجلين حفاة مكشوفي الدبور على رأس كلّ منّا كرشة حمار مشدودة بمصران كلب" واتجه نحو الباب وهو يتوكأ على عكازه. ضحك الحاضرون واحمرّ وجه سمير. شاهد الجالسين ينظرون إليه ففهم أنهم شامتون به فسارع بالنهوض منصرفا.

تناهى إلى سمير أن صالح قاسم دعا أبناءه إلى لقاء خاص في بيته بالحاضرة. توقع من شهاب أن يدعوه إلى مرافقته، ولما لم يصنع استبدّ به كمد حادّ. ظل ينتظره إلى ساعة متأخرة من الليل قريبا من مسكنه. وعندما وصل جعل سمير يسأله عن كل صغيرة وكبيرة. أخبره شهاب أن والده بدا، وهو يسألهم عن أحوالهم وأحوال المدينة، مشغولا بشيء لم يفصح عنه. ظل برهة يتظاهر بسماعهم ثم قال بلهجة صارمة:"أعداؤنا

يعدّون للوطن أياما كالحات. ساءهم أن تنجح سياسة رئيسنا فهم يسعون لدى أصدقائنا يزيّنون لهم التخلي عنا. يستغلون الأزمة العالمية ويرفعون لواء البطالة وانسداد الآفاق. التعليمات أن يوظف كل ذي مال ماله في الاستثمار، في تنمية الثروة، في خلق مواطن الشغل. خصومنا، عندما سبقناهم إلى إنقاذ النظام سحبوا أموالهم، صرّوا عليها، عملوا على تهريبها للخارج. كانوا يرمون إلى خنق الاقتصاد، إلى نشر البطالة والعطالة حتى تدخل البلاد في اضطرابات لا تبقي ولا تذر. افهموها جيدا، المال مسؤولية عظمى. عندما أدركت حكومتنا أن لهفة الناس على التمتع برغد الحياة أصبحت فوق ما يقدرون عليه استجابت للنصيحة التي عرضها أصدقاؤنا على خبرائنا بأن نفتح لهم واسعا أبواب الاقتراض. ها هم يقترضون لينعموا برغد العيش. لكن كلما نجحنا كبر حسد خصوم الوطن لنا وتكالبوا علينا. لا تبصقوا على اليد التي أحسنت إليكم. أما أصدقاؤنا، فالسياسة لا مكان فيها للأصدقاء". أوصاهم بأن يحثوا النابهين من موظفيهم على الدعوة إلى ضرورة استمرار العهد الجديد برعاية صانعه. قال لهم: " أكثر الحجج إقناعا هي النجاحات الخارقة التي ألهم الله صانع التغيير فهداه إلى أنجع السبل التي تُقلِع بها الشعوب المتخلفة نحو التقدم. خاطبوا الناس بما يفهمون. قولوا لهم: " ما العبرة إلا بالنتائج. الناجحون من قادة الفرق الرياضية لا يطالب بتغييرهم أحد".

لم يخرج سمير مما انتزعه من شهاب بشيء واضح عن اجتماع صالح قاسم بأبنائه فساوره شيء من القلق. بات ليلته يقلب النظر في الكلام الذي سمعه منه ويقرؤه على طريقته. أصابه فزع من أن تكون الأخطار التي تحدق بالبلد وتنخره من الداخل قد استفحلت. داخله

شك في أن يكون شهاب قد أطلعه على حقيقة ما دار بين الوالد وأبنائه.

كان قد أدرك بالخبرة التي حصلت له من تعامله مع بعض الإداريين الكبار أن الدولة لم تعد تستند إلا إلى كمشة من النهابة المستكرشين. اندهش، أول الأمر، من الحجم الهائل الذي أصبح عليه الفساد في إدارة دواليب الحكومة. فكر مرات عديدة في الانسحاب بعيدا عن مستنقعات شمّها نتنة فأصبح يخشى أن يسلمه التخويض فيها إلى غرق لا منجاة منه، لكنه كان يؤجل القرار إلى الساعة التي يطمئن فيها على مستقبله. كان يقول لنفسه:" أن تكون في صف النهابة أفضل من أن تكون في صف المنهوبين". أما الآن فقد بدأ يستشعر خطرا على مشاريعه الشخصية مما يمكن أن يعصف بمثل هذه الحكومة التافهة من عاتي الأعاصير. انتهى إلى الاستقرار على ضرورة ملازمة الانتظار واليقظة قبل اتخاذ القرار.

أما الشبان الذين دعاهم رؤساؤهم إلى الذبّ عن العهد الجديد فلم يقدروا على أن يبلوا شيئا. كانت المعرفة التي حصلوا عليها قد أصبحت، منذ خرّبت التعليمَ الإصلاحاتُ التي تعاقبت عليه تحت ضغط التقشف والحسابات الضيقة، معطوبة رثة، فاختلط عليهم، في المجالس التي كانوا يقبلون فيها على التبشير بما دعوا إلى التبشير به، كل شيء بكل شيء، حتى أن الواحد منهم كثيرا ما يجد نفسه يسبّح، في وقت واحد، بمحاسن الاشتراكية والرأسمالية والليبرالية والحرية والديمقراطية والعلمانية والإسلام دون أن يفطن للرائحة الكريهة التي تنبعث من بين شفتيه. غير أن أهل مدينتنا قد أصبحوا، من كثرة ما أصاب رؤوسهم من شديد اللكمات، يفهمون من الكلام نقيض المعنى الذي يحمله.

كانت رائحة البلادة الذهنية قد تمكنت من الجميع ورسخت. لم يعد المرء يهتم، في مدينتنا، إلا بما يدخل في جيبه أو حسابه البنكي أو يمس يده من مال. وعندما رغب بعض العملة بمصنع ينتج قطع غيار بلاستيكية مقلدَة لمحركات الريّ والضخ في تكوين مكتب نقابي يدافع عن حقوقهم وعبّروا عن ذلك وسعوا إليه حرص سي الفتحي على أن يعقد اجتماعا بهم في ذلك المصنع نفسه حضره العملة وغير العملة. قالوا إنه قال:" افهموها جيدا. الدنيا تغيرت. النقابات والإضرابات والاعتصامات واللوائح والعرائض أصبحت بالية خلقة. الوقت الآن وقت " بز...نس" (نطقها في مقطعين بينهما فراغ). لا شيء غير البزنس، هو الذي يشغل الناس ويخلق الثروات ويقدم الشعوب. والله والله، يحزنني أن أراكم في مستنقع هذا التخلف الفكري المذهل تسبحون. أبواب الإقلاع أصبحت اليوم مفتوحة أمام جميع الناس. في أمريكا يرهن الفقراء عرق جبينهم بضعة أعوام فتجدونهم بعدها يحلّقون في القمم الشاهقة" . خرج بعض من الذين حضروا الاجتماع يلهجون بمحاسن البزنسة فلم يلتفت إليهم أحد.

ازدهرت أعمال شهاب واشتد تكالبه على توسيعها وأفلح سمير في السطو على أموال سارع إلى إيداعها سرّا في بعض المصارف الأجنبية بالخارج. وسارت أعمال الفتحي وعميه وعماته نحو مزيد من التوسع أيضا. قال بعض من كان يُرمَى بالحسد والنميمة:" أصبح كل من له ثروة أو شبه ثروة، في نظر أولاد قاسم، عدوّا شخصيا لهم وخائنا للوطن متآمرا عليه" . قال ذلك عندما انتشر أن شهاب (وبعضهم يزعم أنه الفتحي) قال :" إذا كانوا عاجزين عن التصرف في أموالهم فليتخلوا عنها للأكفأ" . انتشر أيضا، ربما من شدة الحسد، أن واردات شهاب

وصادراته كانت في الأشياء المشبوهة والمهرّبة تحت ألوان من الأغطية للتمويه. قال الذين سرّبوا الخبر:" أصبح شهاب شهوات يخوض في بحار عميقة جدا. لا خوف عليه فقواربه محمية بسفن عملاقة عليها رِيَاسٌ من الوزن العالمي الثقيل. إذا عطس تطايرت" الأرانب والباكوات والياجورات[21]" مثل الرذاذ". لم يلتفت إلى هذا الكلام أحد من الناس مثلما كانوا يفعلون كلما قرع أسماعهم قول سخيف فالروائح التي دوّختهم جعلت كلاّ منهم موجوعا يشتكي، دائما، مما ألم به.

استطاع بعض الشبان ممّن ضاقت خواطرهم أكثر من اللزوم من الأزمة الحادة التي تسبب فيها استيلاء أولاد قاسم على الثروات حتى تمكن منهم الحنين إلى أيّ عهد بائد أن يصلوا إلى المؤرخ الحزين في منزله. طرقوا بابه بعد الغروب وحاولتِ العجوز البكماء التي كانت تخدمه أن تفهمهم، بالحركات، أنه غير موجود حتى ينصرفوا فأزاحوها برفق عن المدخل ودلفوا إلى الدار قائلين إنهم سينتظرونه. ألفوه مستلقيا على البنك الذي ينام عليه بمكتبه. كان قد أصبح منهكا لكثرة ما ألحقته الوقائع والأيام بجسده من عميق الجراح ويابس الكدمات.

أبدى حفاوة بمقدمهم وأعلمهم أنه يجري عملية جراحية على الحنجرة. قال:" ها أنا أستعد للرحيل". استلطفوا له وجعلوا يعابثونه بأن الموت غير مستعد لاستقباله حتى ضحك وقال:" أما أنا فأرحل عن هذا العالم غير آسف على الفراق. وأما أنتم فحزني عليكم لا ينقطع..." لم يكمل العبارة التي كثيرا ما كان يستهلها بـ" إيه" طويلة متوجّعة يرميهم بها عند اجتماعهم على طاولته بمقهى النخلة.

21- تسميات مجازية لحزم الأوراق النقدية.

أطلق واحد منهم لسان الشكوى مما آلت إليه الأوضاع بالمدينة. جعل يقول:" أصبحت معظم الجنائن والمصانع الصغيرة والكبيرة وورش العمل والمتاجر والعمارات والفيلات الفخمة والدور العتيقة وسائر المصالح العامة وجميع الخدمات في أيدي أولاد قاسم وبناته ومن يحظى بحمايتهم. انتقل ما كان يسمّى قطاعا عاما إلى قطاعهم الخاص، وما بقي منه قائما أصبح أسماء فارغة. حتى المؤسسات الحكومية تخلت عن مهامها لشركات خاصة تقوم بالتنفيذ الفني. أصبح كل شيء بمقابل، وأصبح المقابل في ارتفاع. " كل خطوة بحسنة". صرنا لا نعرف من نقصد أو إلى من نتّجه". بدأ المؤرخ الحزين يظهر عليه الضجر من هذا الكلام المكرور فقالوا:" لا نريد أن نثقل عليك. لم يكن لمدينتنا سوى خصم واحد نعرفه ويعرفنا هو الدولة. كانت لنا أيضا منازعات ومعابثات مع أجوارنا. كانوا دائما يجحدون فضلنا. لكن الدولة التي نعرف روائحها وتعرف روائحنا، لم تعد خصمًا لنا، وإلا كنا أريناها النجوم في عزّ الظهر، تشلّكت[22] مثلما تشلّكنا. دلّنا، على رحمة الوالدين، على العدو المكافئ".

جعل المؤرخ الحزين يضحك حتى دمعت عيناه وقال:" أنتم والله، في المقال، دائما أنتم. ما أنكرت منكم، بعد التسليم بالخنوع والركوع والغباء والجهل، إلا جدّكم في التماس الحلول من غيركم. واه وألف واه من خدعة القائد الملهم والزعيم الفذ والمستبدّ العادل. أما فهمتم بعد أن الدول الأوباشية، وهي ظاهرة جديدة بالنظر إلى ما سبقها في القرنين الماضيين، لا تنشأ وتنمو وتتطوّر إلا إذا جعلت من موظفي دولة القانون والسيادة كمشة من الشحاذين يهرولون وراء الرشاوى والإكراميات،

22- أصبحت جزمة بالية.

يفرضونها فيغصبون الناس عليها أو يتسوّلونها تسوّلا. أما كنت أقول لكم من أربعين عاما: في دولة الملوك والأمراء غير الملوك والأمراء هم الشحاذون. وفي دول الجمهوريات غير أصحاب المال وأصحاب المناصب على مختلف أوجهها وأجهزتها هم الشحاذون. وفي دول العمال غير النومنكلاتورة[23] هم الشحاذون. وفي دولة البيروقراط غير البيروقراطيين الكبار هم الشحاذون. وها قد وضعت دولة البيروقراط مولودها فجاءتكم بالمسخ اللّقيط الذي أصبحتم تشتكون منه. ما دولة القانون إلا، بفضل التحريف والتضليل ونشر الجهل، لهقة من اللهقات، حقّ يتغلّف به باطل".

قال أحد الشداة من اللاهجين بفكر مؤرخنا رغم أنه كان قليل البصر بأبعاده ومراميه :" دلّنا فقط على رائحتها والباقي علينا، إن لم نحاسبك بجلدها نفضتَ يدك منّا إلى الأبد". قال المؤرخ الحزين :"هي رائحة... هي رائحة... كيف أقول لا مثيل لها بين الروائح... شيء يتضوّع فلا يدرك بالشم، لا لون له ولا حرارة ولا طعم ولا... " وانقطع به النفس. أطرق برهة ثم قال:" نجاتكم من هذا الخُرْم الذي غطستم فيه، متى كانت لكم منه نجاة، انقلابٌ يضرّ ولا ينفع، كمن يقتلع بصلة ليغرس مكانها ثومة. من نتن إلى نتن أشدّ. أو...أو... كيف أقول؟ هبّة شعبية تبغتكم كالإعصار فتدعكم بين تصديق وتكذيب حتى إذا انقشعت عنكم غمامةُ الذهول ذرَتكم حيارى تتساءلون عن الصيف الذي ضيّعتم فيه اللّبن. ستدركون يومها أن السّاسة قد غدروا بكم وخذلكم المثقفون وأن الأغراب، أعني الدول الشقيقة والصديقة، قد دبّرت تعبئة بعضكم ضد بعض وأمدّت بالمال والسلاح". قال

23- عصابة المنتفعين من المال العام في النظم التي تدعي الاشتراكية.

شاب من الذين يدرسون بالخارج:" قد ولّى زمن الهبّات الشعبية دون رجوع. لا شغل للناس اليوم إلا ما يدخل في الجيوب للتمتع والرفاه". نظر إليه المؤرخ بانزعاج وسكت.

التفت أحد الشبان الذين كانوا حوالي المؤرخ الحزين فشدت انتباهه ورقة مرمية على خوان قريب رسم عليها، بخط مضطرب:

.... وكان الموت للفتيان زينا[24].

فاقترب منها وجعل يتهجّاها. فطن له المؤرخ فقال بصوت خافت كالهمس:" إذا سلمتُ وامتدّ بي العمر وضعت لكم رسالة في معنى الموت كيف تُصان به الحياة وتمنع عزيزة مكرّمة. ما أتِيَتْ البشرية إلا مما لحق مفهوم الموت من عظيم التحريف". ضحك شاب آخر وقال: "سبقك لها عنترة في قوله:

"لا تسقني الحياة بذلة واسقني بالموت حنظلا"

بدا على المؤرخ انزعاج كبير وقال:" قوّم الرواية يا فتى! ضيعتم الماضي والحاضر وبعتم المستقبل. ما أنتم إلا في عداد الأموات".

خرج زوّار المؤرخ آسفين. قال بعضهم لبعض:" جئناه ننشد نصيحة فأنشد لنا شعرا ينعى فيه نفسه. كأن الوقت ما زال وقت أشعار. النار تخلف الرماد ونار المؤرخ قد بردت. منذ كذا سنوات وهو يَعِد بكتابة الكتب فتغيب أفعاله في النوايا". سار الخبر بزيارة هؤلاء الشبان للمؤرخ بين أهل المدينة فتلقفته الآذان المتلصصة وسارعت بنقله إلى

24- عجز بيت من قصيدة قالها أحد شعراء الجاهلية في رثاء أخيه. وهي من "المنصفات" لما فيها من تقدير للعدوّ وتنويه به وتجنب للإزدراء به وتحقيره.

الفتحي شهوات ونعيم النمس وسمير وأجهزة أمن الدولة. أمّا نعيم النمس وسمير " محرك الأموال" فقد قال كل منهما بعد أن استعاذ بالله من شرّ ما تنبأ به المؤرخ الحزين : "سنفتقده وإن كان خصما" . وأما الفتحي فقد انتصب واقفا وجعل يهزّ وسطه طربا وقال: " ولله والله. للذي يزفّ لي خبره ألف دينار. أما فقراء المدينة فلهم عشرة ثيران أو أكثر إلى أن تعاف نفوسُهم اللحم فيولّوا عنه هاربين " . اكتفت أجهزة الأمر برفع تقاريرها إلى من يهمّه الأمر.

ركب أهل مدينتنا جنون الهجرة. أصبح منتهى الآمال لديهم أن يظفروا بمنفذ يمرّون منه إلى أمريكا أو كندا أو أوربا أو أستراليا. كانوا يقولون: " نهرب من بلد الروائح إلى بلدان بلا رائحة. تأذّينا، تقرّحت مناخرنا. صار الهواء النقي حُلْمًا تفسده علينا الكوابيس" . اتفق في ذلك الشبان والكهول. بل إن الأطفال أنفسهم صارت آمالهم معقودة على الهجرة، يحلمون بها ليلا نهارا ولا يرون سواها مخلصا. شاهدوا آثار النعيم سابغة على العمال المهاجرين والحفاوة التي كانوا يلقونها من السلطة الحاكمة فاكتووا بنار الحسد واغتمّوا. كان يبلغهم، بين الحين والحين، أن طائفة كبيرة من الناس كانت تغامر بـ" الحرقان"[25] إلى أوربا في زوارق الموت، فكبرت بهم إلى الهجرة الآمال. لم يقعد بالكثير منهم عن التنفيذ سوى فراغ اليد مما كان يشتط في طلبه المهرّبون. قال بعضهم لبعض والكمد يعتصرهم اعتصارا: " لو كنا نعرف أنه سيكون لهم مثل هذا الفضل كنا تشبثنا بأذيالهم وترجّيناهم أن يبقوا في بلادنا. ما كانت لهم، على الأقل، مثل هذه الشهوات الفاجرة التي لا تقف عند حدّ،

25- المرور إلى أوربا خلسة في زوارق بالية يحشر فيها الناس مثل الحيوان فتبحر بهم متسللة في رحلة شاقة وخطرة نحو الشواطئ الأوربية.

ولا تجد من يلجمها" . لم يعد أحد يقدر على استنكار مثل هذا الكلام أو يرغب في الردّ عليه.

ظل شهاب لا ينتقل من مغنم إلا إلى مغنم. تهاطلت عليه الأموال حتى حيّرته. لم يعد الناس يشاهدونه إلا في موكب من السيارات الفخمة العملاقة مظللة الزجاج من جميع الجهات وهي تخترق المدينة بسرعة جنونية. قيل إن أعمامه قد حاولوا تنبيهه إلى أن الأبهة التي أصبح يحرص على التسربل بها قد تستنفر عليه بعض العيون الثاقبة في بعض القمم الشاهقة فابتسم لهم وقال:" ما يبقى في الحضيض إلا العاجزون. يدي طويلة والحمد لله. جميع العيون الثاقبة وضعت لها نظارات ". كان يحرص على أن يزور جدّه مرات عدّة في الشهر الواحد.

لكن راج، فجأة، بين الناس في نطاق السرّية والتكتم أن " شهاب شهوات" قد افترس محترفُ احتيالٍ برتغالي قسما هائلا من ثروته. همس بذلك بعضهم لبعض بين شماتةٍ ورثاء. قالوا :" أغراه حتى طمع وروّضه مليًّا حتى اطمأن ثم سدّد له ضربة محكمة كان قد تمرّن عليها طويلا. سيّل له لعابه بصفقة القرن ثم "حشا له في دبره قرن ثور" وأطلق له " صرفا قاوريا"[26]. طارت العنقاء بالداعي وما كسب". نشروا في مدينتنا أن شهاب قد صُدِم، عندما فاجأه الخبر، فسقط مغشيا عليه وكسا فمه كثير من الزبد النتن. جعل أعوانه يضطربون، في جميع النواحي من مدينتنا، باحثين عن "مفتاح ذكر" يسعفونه به فلم يعثروا على شيء فاعتلّ حتى كاد يُسلم الروح. فزع له جدّه وأبوه وأعمامه،

26- ليس من النوع الذي كان يعزفه صبياننا بعضهم لبعض أو يتطاولون به على بعض المقامات.

وعندما وقفوا على جلية الأمر وجسامة الخسارة ذهلوا. قالوا: "كاد يغمى على الجد صالح. لم ينقذه من الموت إلا سيل من الشتائم القبيحة جدا انفرجت عنها شفتاه". لم يتسرّب عن تفاصيل النازلة أو جسامة الخسارة شيء واضح فتفنّن الناس في وضع القصص الخيالية لها. كان خيال أهل مدينتي قد أصابه إسهال حادّ فكانت قصصهم في مصيبة شهاب غريبة النتونة.

بدأ شهاب يتعافى من محنته بفضل التحركات التي قيل إن سميرا تردد فيها بين إيطاليا وفرنسا وإسبانيا والبرتغال. كان ما يكاد يلتقي بشهاب حتى يسافر، وما يكاد يسافر حتى يعود. استغرب بعض الناس هذه السفرات الكثيرة التي كانت كل واحدة منها تنتهي بمقدم سمير شخصيا، وقالوا: " كان يمكن أن يوفر تكاليف السفر بواسطة الهاتف. لكن المال الحرام لا يعرف إلا طريق الحرام". ثم جاءت الأخبار بأن سمير قد "قفز بروحه" وأسرته إلى إحدى البلدان الأوربية. قال بعض الشامتين في أولاد قاسم: " بات فما أصبح. ثم أرسل بطاقة بريدية دون ظرف. كانت البطاقة بذيئة جدا. ما كادت عاملة البريد تشاهدها حتى أصابها غثيان فأرجعت على مكتبها". تناقل الناس كلاما زعموا فيه أن سميرا انضم إلى معارضة من المعارضات المنتصبة بالخارج. مطّ الذين سمعوا هذا الكلام شفاههم وشمشموا بأنوف لم تعد قادرة على حسن التمييز بين الروائح والتفاعل معها. في تلك الأثناء أتت الشركة المنقبة عن النفط إلى مدينتنا وجعلت تجوس في السبخة.

كانت الروائح قد أصبحت لزجة تنشر نتونة شفافة زئبقية تتحرّك في جميع الاتجاهات. أنكر الناس التصاقها بالملابس ونفاذها إلى الجلود وتغلغلها من مسامّها في الأجسام حتى باتت كأنما تتضوّع منهم، ثم

لم يعودوا يتأذّون إلا من عظيم قدرتها على الخبث والمخاتلة والتمويه والغدر. فهي ما أن تلوح مقبلة مترعة في الهواء شبيهة بطيف الخيال وتستعد الأنوف لاستقبالها رامحة متقززة منزعجة ناقمة حتى تفاجأ بأنها قد ولّت هاربة ممعنة في الابتعاد. وما تكاد النفوس تطمئن إلى أنها قد ابتعدت ونأت وغابت فتستعدّ لاسترواح شيء من غامض الاستبشار والانشراح حتى تفاجأ بها قد هجمت من حيث لا ينتظر أحد أو يتوقع وإذا بها تبغت الناس بما لا يقدرون على تحمّله فيسقط مَن يسقط منهم على طوله يفحص الأرض بيديه ورجليه وهو يجاهد بعسر لاستراق النفَس. قال الجميع: " كنا نهتدي لها بالشمّ فصرنا ندركها بالاختناق. كانت لها مصادر معلومة معروفة مألوفة بيّنة فأصبحت تنبعث من أي شيء، بل إن اللاشيء نفسه أصبحت تندسّ فيه لترمينا بكريه الغزوات والحملات. أحيانا نشعر بها تنبعث منا. لم نعهد، في جميع ما خبرنا وعرفنا، روائح لا تدرك بالأنوف تلحق بنا، في هذا العهد الجديد، النوائب التي ألحقتها بنا أذى أصبح مقيما". يغصّ المتحدثون بكلامهم ويختنقون فتنفر في عيونهم عروق حمراء تكاد تتفجر دما أسود وتتجمّد الدموعُ في المآقي.

2

أنا لا أتحدّث عن رائحة أخرى بمدينتي طالتها أيضا، في هذا الزمن العصيب، يد للحدثان خرقاء وحرّكتها مرارا وتكرارا فلم تأت ذكية زكية فوّاحة أو رقيقة لطيفة منعشة الشَّمِيم، ذلك أن استبعاد الروائح الكريهة قد بدأ يضيق به صدري حتى صرت أجدني أتساءل، مندهشا، عمّا إذا كانت التحوّلات التي أدخلت علينا لم تصبنا سوى بالنتونة والخبث. ثم إن هذه الرائحة، في قليل ما حصّلتُ من حقيقتها، شموس جموح شرود نفور كالأوابد في الأواهل أو سموح ليّنة ألوف كالهوامل في الشوامل، حتى كأن الناس معها، وهم يكابدون الضراوة في وحشة ألفتها، حيارى في ما إذا كانت تُدرَك، دون أن تُعرفَ، بالحسّ والعقل أو بما هو وراءهما، كالقابض على الريح أو الممسك بالأوهام.

كانت هذه الرائحة قد نشبت مِنّا في البيْن بَيْن ملحقة بنا ما يعتري الجالسَ بين مقعدين، ناعم وخَشِن، من ملتبس الإحساس بأريج الألفة ورَوْح الاستيحاش ومبهمٍ الوجع المستلذّ. فبينما هي، من ناحية أولى، تملأ الخياشيم، تندسّ فيها اندساسا لا يشعر به أحد حتى إذا فغمت بها منابت الشعيرات في المناخر ونفذت إلى الدماغ فاستبدّت به أصبحت شاملة كالضباب الذي يلفّنا والهواء الذي نتنفّس والشمس التي تكوي جلودَنا والظلّ الذي يضمحلّ فيه كيانُنا والنسيم الذي يروّح علينا،

تظلّ، من ناحية ثانية، لدقتها وكيانها بدون تمكين أو استقامة، ممّا لا تحوزه الأفهام أو تؤديه العبارة. لهذا أمعن معظم المفكرين في معظم الحضارات والثقافات، والعهدة في هذا على المؤرخ الحزين[27]، في الانصراف عنها اعتقادا منهم أنها ممّا لا يؤبه له من تافه سقط المتاع. كانوا يعدّونها، على مرّ الأزمان، غاية في السخافة والسطحية والوضاعة ويزعمون أن العناية بها ضربٌ من ضروب التحذلق والخُرق. وهل أسخف أو أضيع للوقت والجهد، حسبهم، من التساؤل عمّا لا يطرحُ سؤالا أو يستثير فضولا أو يستحقّ أن نعيره فضل انتباه؟

قد خطر لي، مرات، أن أتحدث عن هذا الشيء الذي لا أعرف ما هو وإن كنت أدرك إدراكا صريحا أنه حقيقيّ الوجود في الوجود ما دام يستفزّني برائحته ويمثُلُ للعيان في معظم ما يجعلُ الناس يشتكون ويضجرون ويتأففون ويحمقون، غير أنني كنت، كلما حاولت ذلك، انبهرت مني الأنفاس وداخل ذهني ما يشبه الدوار.

كنت، في الحقيقة، لا أعرف لتلك الرائحة المتريّعة كالسراب مصدرا تنطلق منه أو مكانا تسكن فيه أو جسما تحلّ به أو ظاهرة تتجسد فيها. ثم إني كنت لا أنقطع عن التعجّب من انصراف المفكرين عمّا

27- سألته مرة عما تتكيف به حياة الناس في سائر شؤونهم اليومية فاستغرب أن يطرأ على ذهني مثل هذا التساؤل. قال: " هذا شيء لا نفطن، في العادة، له، لفرط ما يرمي عليه التعوّد من أصناف الحجب المعتادة"، وأبحر في كلام طويل لم أفهم منه سوى أن البشرية ظلت، عهودا طويلة وقرونا كثيرة تداري الوجود وتداوره لتألفه، تلوذ بالسماء تستلهمها تصوّرات كثيرة تستسيغ بها الحياة. وعندما نزلت من السماء إلى الأرض أحلت تصوراتها تلك في الواقع. لكن الواقع تطلسم عليها حتى زهدت فيه فظلت كالمتعلق بلوح في نهر جار يعتقد أنه ثابت في الوقت الذي يقطع به اليم المسافات. عندما اختلط عليها الوهم باليقين حكمت على ما تغرق فيه كل آن ولحظة بالتفاهة والوضاعة وأشاحت بوجهها عنه.

يصرفُ الناس فيه معظم الأوقات مدّعين أنه تافه سخيف وسطحيّ لا يعتدّ به. فهل فعلا لا تستحقّ الثرثرة التي يمضي جميعُ الناس فيها أكثرَ الحياة أو الأوقات التي يزجونها في معاودة الكلام نفسه والأفعال نفسها أن تدخل في مواطن الاهتمام؟ إذا كانت الوقائع التي تعدّ عظيمة وجليلة لا تستغرق إلا مدّة من الوقت قصيرة فإن ما يقضي الناس فيه أعمارهم ممّا يعدّ توافه وسخافات يومية في الحياة اليومية إنما يستغرق معظم الزمان أو جلّه.

أيكون من الحكمة أو الغفلة ألا نفطن إلا إلى ما ينقطع فينا أو حولنا عن انتظام التعاود؟ أنعدّ التكرار في بعض الكلام مثلا "تكَعْرِيرًا"[28] ونغفل عنه في معظم ما نأتي كل آن ولحظة من قول وفعل بل ننزعج ونستوحش وترتعد فرائصنا غضبا ورعبا كلما فاجأنا انقطاعه أو داهمنا خروج عنه أو مجردُ اختلاف؟

فنحن ننتبه، عندما ننتبه من النوم، من تلقائنا أو تنتزعنا منه المنبّهات فننهض متثاقلين أو مسرعين ونغتسل أو نكتفي برشّ حفنة من الماء على وجوهنا ونرتدي ملابسنا ونتناول فطور الصباح وقد لا نتناوله ونخرج للمعتاد من شؤوننا. وقد نلقي بتحية الصباح على من نصادف في الطريق أو لا نلقيها. وفي المحلات التي نرتادها للعمل أو التسوّق أو الجلوس نتبادل كلاما تافها مع أمثالنا من الناس. وقد نعود إلى بيوتنا للغداء أو لا نعود لنتناول ما تعرض المطاعمُ والمحلات الصغيرة من صنوف فاخرة أو خفيفة أو خسيسة قذرة. ونرجع إلى دورنا آخر كل نهار مجهدين ضيقي الخواطر منزعجين من صنوف المنغصات في التنقل والطريق أو راضين مسرورين بما نعتقد أننا أنجزناه أو تمتّعنا به

28- كرّر الطلب أو الكلام حتى ألحف وأضجر واستنفذ جميع ما بالنفس على التحمل والصبر.

أو توفّقنا إلى تحصيله أو خبنا في الوصول إليه. ونمضي الليل في شغل النفس بما اعتدنا على شغلها به. يمضي اليوم بنا تلو اليوم في رتابة ألفناها من طول التعاود فلم تعد تحرّك في أجسامنا عِرْقا أو في أذهاننا خاطرا. فكيف إذن نسمح لأنفسنا بأن نهمل ما يتأثث به سائر الزمن لننصرف إلى ما هو عرضيّ فيه أو مجرّد حادث عابر؟

لكن ما السبيل إلى الإمساك بهذا الذي نتهادى فيه معظمَ الزمان؟ فنحن، في الغالب، لا نفكر في حياتنا اليومية وإنما نحسّ بها، أو، بعبارة غير موفقة، ندركها متعالية علينا من خلال التكيف الآلي مع روح المألوف ووحشة الغريب. أما المألوف فقد دخل منا في الاستئناس حتى لم نعد نشعر به لفرط ما حصل له من سريان في كياننا، وأما الوحشة فنمدّ لها جسور التعوّد لتعبرها فتلتحق بما بعدُ قد دخل في مألوفنا. ومع ذلك فنحن نمقت الرتابة ونكره التعاود وننزعج من بقاء "دار لقمان على حالها" وننقم على ألا يكون "جديدٌ تحت الشمس".

الغريب من أمر هذه الروائح لا يكمن في أنها لا تنبعث من موطن أو شيء واحد معيّن فقط، لأنها في جميع المواطن وجميع الأشياء والظواهر البشرية، وإنما يكمن في أن الحديث عنها كثيرا ما يمعن في الانحراف بصاحبه ليخطئها فيصبح كلامُه عنها مضللا صارفا عن حقيقتها. لهذا فهي تسكن في كل مقهى من مقاهي مدينتنا وكل مجلس من مجالسها الخاصة والعامة وفي سائر اللقاءات والمنتديات وما يتبادله سكانها فيها وفي سواها من كلام باللفظ أو الحركة أو الإشارة أو مجرد النظر وبالصمت.

ومع أن هذه الروائح لا يؤدّيها كلام أو تتجسّم في مظهر أو هيئة محددة، وهو ما يجعلها مجهولة كالمعلومة ومعلومة كالمجهولة، فإن

تأثيرها الخطير في العقائد والمواقف والأفعال وردود الأفعال والوقائع الصغيرة والكبيرة لا يمكن لأيّ كان أن يتكهّن به أو يتوقّعه حتى أن الحكومات التي تعاقبت على بلادنا كانت تجدّ مليّا وراءها بالمطاردة والملاحقة في أيّ مكان يحتمل أن تحلّ به مُريغة خبثا في عطر وعطرا في نتونة. قد تعقَّبتْها في الفضاءات العامة كَالأسواق والساحات مرّة ناصبة لها الشباك والشراك المتنوعة ومرّة في مجالس المآتم واجتماعات الأفراح. قرأتْ، للوصول إليها، سائر المكتوبات واسترقتِ السمع إلى جميع ما يصدر عنه، في تقديرها، حسّ يدلّ عليها. بل إن سوء التدبير قد حملها على أن تطلق وراءها، دون أن تقبض منها إلا على الريح، حشدا هائلا من الأعوان يتصيّدونها في الأماكن التي يقدّرون أنها قد تحلّ فيها فطلبوها، أكثر ما طلبوها، في المقاهي. لكن الحديث عن المقاهي بمدينتنا كالقهوة نفسها يُقْهِي ولا يشبع فضلا عن أنه، في جلّه، كاذب كذب اعتقاد كل منا في دوام جميع ما يعيش ويشاهد.[29]

لم تكن المقاهي متأصّلة في تاريخ مدينتنا، فالمحلات المخصصة لها، في ما يروي الشيوخ عن الشيوخ من أحاديث شديدة الاضطراب، دخيلة علينا لا مكان لها في هندسة معمارنا ولا منزلة في الراسخ من عاداتنا وتقاليدنا. يستدلّون على ذلك، أثناء تحسّرهم على الزمان الذي كان زماناً والناس الذين كانوا أناسًا، بأنها، عند إنشائها وتسميتها بـ"بيت القهوة" قد أقصيت عن ساحة الجامع القديم، قلب المدينة النابض، لتجتمع منبوذة وراءه في مفترق عدد كبير من الشوارع والأزقة الجانبية تصبّ جميعا فيه وتتفرّع مؤدية إلى الخلاء أو إلى مدن وقرى أخرى بعيدة وقريبة. فهي كالزائدة في تخطيط المدينة الأصلي جاهزة، دائما،

29- في هذا الموطن من المخطوطة فراغ رُسمت فيه بخط دقيق عبارة " للمراجعة أو الحذف".

للبتر والانتزاع.[30]

يأخذ الناعون على هذا الزمان فيقولون: "نحن من علّم الأنام تناول القهوة السوداء"[31]. عندما كان أجدادنا متحضرين يخوّضون في المدنية إلى الرّكب كان أجداد الأوربيين همجا. أنظروا إلى القهوة كيف يشربونها وكيف نشربها؟ ألا ترون كيف أن الواحد منا يترشفها ترشفا كمن يقبّل حبيبا؟ أمّا هم فيرمون بها في الحلوق كمن يزدرد على عجل لقمة فاسدة أو دواء خبيث المذاق. أما فهمتم معزتها عندنا في المعاني

30- في الهامش " - كانوا دائما يقولون: " أيّ حكمة عظيمة هي الحكمة التي جعلت الأجداد ينظمون حياتهم في حاراتنا على أفضل الأنماط؟ كانوا سعداء لأنهم كانوا مطمئنين على النفس والمال يحمونهما بأنفسهم. فلا كلمة إلا كلمتهم ولا قرار إلا ما يقررون. إذا ساءهم أمر أوصدوا الأبواب في أزقتهم على منازلهم، وتواصلوا من فوق السطوح. ما وراء الدور الأخيرة في الأطراف سوى الشرور. انظروا إلى أنفسكم اليوم كيف تبزّعتم في الخلاء فهنتم وذللتم حتى استباحكم الذي يسوى ولا يسوى. هل في أحيائكم الجديدة حمى؟ لا أحد منكم يعرف الآخر فكيف ينتظر منه نصرة أو نجدة؟ " لم تكن لما ينعاه الكبار على الصغار نهاية. أما الذي لا شك فيه فهو فقدان التوازن المشاهد على أبناء هذا الزمان.

31- تمييزا لها عن " القهوة الحمراء"، قهوة "عين الديك" المحرّمة عند قوم والمنهي عنها عند آخرين، وإن كان التحريم والنهي ممّا لا يأبه له أهل مدينتنا، فهو، في نظرهم، خاص بالذين لا يعرفون، كأجوارنا الملاعين، لها قدرا، فهم يكرعون فيها كرع البهائم الماء في حوض الحاج سيالة..أما كرام شبان مدينتنا وكهولها فيرتبون لها مجالس خاصة يعظمونها فيها حتى إذا علتهم بسَوْرتها ولوت منهم الأعناق دخلوا في عناق كانوا ينسلون منه، عند استرداد الوعي، خجلين مما يكنّه بعض لبعض من غامر المحبّة والودّ.

- يزعم المؤرخ أن القهوة قديمة الحضور في حياة الناس، أما المقاهي المعروفة اليوم بمحلاتها فقد نشأت في بداية دولة الاستعمار والحماية أو بعد قدومها بما لا يقل عن عقدين اثنين. ولما كانت تلك الدولة الغازية، في نظر أهل مدينتنا، بغيضة كريهة تم الرمي ببيوت "القهوة السوداء" على حاشية من المدينة. دليله على ذلك أن حان " الكارّي " كان يندس بينها فلا يتردد عليه إلا قليل من الأهالي وكثير من الأغراب". وبطبيعة الحال فهذا ليس بدليل مقنع.

التي نقرأ من الصورة التي ترتسم على وجهها فقاعات صغيرة دقيقة ذات أشكال يسفر بها المستقبل عن طلاسمه. وقعرها أرأيتم كم يحمل من دلالات؟ خبّرونا عن قعر واحد له ذلك الحشد من المعاني. كان أجدادُ أجدادِ أجدادنا يتناولونها بحكمة وقواعد وطقوس تليق بمقامها. لم يبتذلوها بهذه المحلات المشرعة على جميع الرّوائح والرّياح".

ويبحرون في استعراض التاريخ، مثلما يطيب لهم أن يتصوّروه، متحسّرين على أفضل الأزمان. فالقهوة السوداء، حسبهم، قديمة عندنا قدم وجود المدينة ذاتها. كان الأسلاف يتناولونها في مجالس خاصة بها، وكانت نساء الأعيان تعقد لها، حسب تقويم لا يخطئن فيه أبدا، بعض العُشويات المفعمة بالزهو والطرب والنكت النّدية الخضراء وروائح المسك والعنبر والحرقوص[32]، ثم انتقلت إلى بعض الدكاكين ببعض الحارات فأصبح الرجال يحتسونها فيها في ساعات معلومة هي الصباح الباكر وفترة ما بين العصر والمغرب. أهل الطرق الصّوفية وحدهم، كالعيساوية والجيلانية والشاذلية ، هم الذين يتحللون من هذه المواقيت. لهم بها ولع خاص.

شرع ، في بداية القرن (لم يخصّه أحد بتحديد)، يهوديّ من يهودنا الأقحاح ، كانت تجارته وأشياء أخرى قد أوصلته إلى إسطنبول والشام مرات فطاب له فيهما المقام سنوات، في بناء أوّل "بيت" للقهوة عندنا. استنكر أهل المدينة ذلك. حاولوا ثنيه عمّا شرع فيه، خوفا من أن تجرّ لنا هذه البدعة بليّة من البلايا، ففي كل جديد يدخل علينا مجهول قد لا

32- زينة ترسم نقشا على جلدة الوجه واليدين والرجلين سوداء نباتية الأصل تصنع كالحبر محلولة في ألوان من أرواح الروائح الزكية، لنسائنا بها ولع شديد فهنّ يستعملنها في الأفراح تأنقا في الحسن وتألقا وإبطالا للعين والحسد. للرجال منها متعة النظر والرائحة وما بعدهما.

يرضى عنه خالقنا، فتمسّك بالإصرار. كانت يد اليهود فوق أيدينا. كبر على رجالنا أن يفوتهم هذا الفضل[33] فهرعوا إلى صاحب مخزن كبير من مخازننا العتيقة في حديقة وراء دكاكين الحدادين وباعة الحبوب والتبن فطلبوا منه أن يحوّله إلى "بيت للقهوة". تردد الرجل فأغروه بالمساعدة على التهيئة وامتدّت أيديهم إلى جيوبهم. اقتلعوا الأشجار وأبقوا على نخلة كانت به فقلع الباسق من النخيل شؤم لا يجرؤون على التحكك عليه. فتح مقهى النخلة أبوابه قبل انتهاء اليهودي من تشييد بنايته ببضعة أيام فسرّ أعيان المدينة بذلك سرورا كبيرا. حزّ في نفس ثريّ جديد من أثريائنا كان يمالئ تجارا على صلة ببعض المصريين أن يقصد أعيان المدينة سواه فحوّل مخزنا صغيرا له غير بعيد عن دكاكين الحدادين إلى مقهى. كانت بواجهته عنبة فتسمّى بها مثلما اكتسب مقهى النخلة اسمه من النخلة التي ظلت منتصبة أمامه قريبا من الفناء. ثم تكوّنت المقاهي الأخرى إلى أن أصبحت سبعة. كان بعضها يشرف على بعض مجتمعة في المكان الذي انتصبت فيه.

كان أعيان مدينتنا مسرورين بمقاهي مدينتهم يفخرون بمقهى النخلة وينوّهون بصاحبه. لكن فاجأ إمام الجامع القديم الجميع بخطبة نارية في صلاة إحدى الجمع فأعلن أن " شرب القهوة" حرام محرّم. قال في خطبته:" لو كان فيها خير ما أسميتموها "قهوة"، واستشهد، من محفوظه قبل أن ترتفع عينه إلى الإمامة، بأبيات نواسية تتغنى بذلك

33- في الحاشية أمام هذه اللفظة:" يعتقد أهل مدينتنا أن السبق في جميع الحالات فضيلة، فهم يسارعون إلى معظم ما يظهر لهم في الأفق قائلين: إن كان خيرا جمعنا بين الفضلين(الخير والسبق) وإن كان شرا فالذي تلحقه منه بنفسك أحسن دائما مما يلحقه بك الأعداء. لكنهم كانوا لا يسارعون إلا إلى ما لا قدرة لهم على تفاديه فكان ما يصنعونه بأنفسهم يوافق دائما ما يشتهيه لهم أعداؤهم".

المشروب الحرام ارتفعت له عند إنشادها أعناق معظم الحاضرين. خُيّل إلى ذلك الإمام، من همهمة بعض المصلين وابتسام بعضهم لبعض، أنهم يستحسنون الأبيات الشعرية التي استشهد بها فاستطرد قائلا: "هذا رجل فاجر فاسق متهتّك[34]، وضيع في أصله مسامح في عرضه سليل حانات و ربيب مواخير ممن أضل الشيطان يتغنى بها، لعنة الله عليه إلى يوم الدين"، ثم ألقى عليهم قصيدة عصماء أمدّه بها أحد الحجّاج مقسما بالأيمان الغليظة أنه نقلها بخط بيده من دفتر بمكة في هجاء القهوة لم يفهموا منها، لركاكتها، كلمة واحدة فلوَوا لها شفاههم. لكن أسقط في يد الجميع. لم يعد أعياننا يترددون على أيّ مقهى من مقاهي مدينتنا.

ظلت مقاهي مدينتنا سبعة يُسقط الناس منها السابع فلا يحتفظون إلا بستة يعتدّون بها، في المفاخرة بيننا وبين جيراننا الذين يمقتوننا مستكثرين صفة المدينة في بلدتنا، ويعدّدونها إلى مقدم دولة الاستقلال والسيادة غير مكترثين بما نشأ منها في الأحياء الجديدة في محلات ضيقة واطئة السقوف كثيرة النوافذ والزجاج فهي، عندهم، لَا شيء. كانت لكل مقهى روائحه مثلما كان لكل منها روّاده. أما السابع المطروح من الحساب، وهو مقهى "رضاب الهضاب"، وله توابع وملاحق لا يذكرونها لأنها ما تكاد تفتح أبوابها حتى تغلقها، فقد كان في طرف المدينة غربا تعصف به الرياح من كل صوب فلا تبقي به رائحة ولا يقصده إلا منبوذ أو عازم على شرّ يبيّته.

34- لم يفهم أهل مدينتنا اللفظة لكنهم استلطفوها فصاروا يتنادون بها. لم يقلعوا عن ذلك حتى عندما شرحها لهم أحد المتأدبين قائلا: " هي، والعياذ بالله، نزع السراويل والوقوع صريعا في المكان الذي نزعتها فيه".

لم يكن أهل مدينتنا ولوعين بالجلوس في المقاهي، أو هكذا كانوا يقولون. فهي، فضلا عن الرّيبة التي رافقت نشأتها، أماكن موبوءة تمتلئ بالدخلاء والأغراب والمخبرين والناشزين عن كل رعاية وهؤلاء جميعا تنبعث منهم روائح صهكة نغلة متغيّرة لا تطاق.

الأماكن التي كان رجالنا يترددون عليها لتبادل الحديث والسمر ويطيب لهم فيها الجلوس طيب الثغور المطهرة باللوبان والسّواك أركان صغيرة في دكاكين واسعة يبسط فيها أصحابها من صغار التجار حُصُرَ الأسل والحلفاء والجلود على حاشية من الفضاءات التي يخصصونها للبضائع. كانت هذه الدكاكين مبثوثة في مداخل الحارات أو في نقطة المركز من كل منها، تؤمها طائفة من رجال كلّ حارة، يلتقون فيها، مع بداية الليل وأحيانا في عشيّات الجُمَع، لتنسّم المستجدات واتخاذ القرارات والتعبير عن المواقف وشرب الشاي[35] الأحمر العاقد. كانت مجالسهم هذه محاطة بالكتمان لا تخرج منها روائحهم المتضوّعة فيها لا إلى الدولة ولا إلى أجوارنا الجاحدين. تظل تصبّ فقط في خياشيم شيوخ الحارات وفتيانها فلا يعرفها أو يدرك خلفياتها إلا قليل من الناس. في هذه المجالس كان الرجال يلعبون الورق ويدخنون تبغ بلدنا وأحيانا

35- لم يثر شربه، عندما وفد علينا، في مدينتنا مشكلة، فهو من شراب البايات. كان قد نصحهم به، في ما يتندر بعض الناس، أطباء بريطانيون حذاق. قالوا لهم :"تغمسون فيه، عندما يكون حارا، حقة مملوءة مسكا بها ثقوب دقيقة ثلاث مرات وتشربون فليس كمثله شيء في تقوية الأعصاب الخامدة وغمز الغرائز الفاترة". وعندما جرّبوه فوجدوه مثلما قيل لهم أصبح لكل واحد منهم ومن أبنائهم حقته يغمسها في الشاي عندما يعرض عليه. جرّب هذه الوصفة أعيان من أهل مدينتنا وقالوا:" أفضل منها، ألف مرة ومرة، شاينا بلوزنا أو بقليل من الزعتر". من يومها انتشر شرب الشاي باللوز عندنا حتى أصبحت بعض النساء تودّ به الأزواج والأحباب عربونا لما بعده.

شيئا من التكروري، فهو، فضلا عن منافعه التي لا تحصى، لم يكن، آنذاك، من الممنوعات، فضلا عن أن الدولة التي تبيح وتمنع لم يكن لها علينا، في شؤوننا الخاصة بنا في حاراتنا، سلطان.

الروائح في هذه الدكاكين هي نفسها التي في الدّور والأزقة والساحات والجنائن، مشدودة كلها إلى ما وراء السماوات مضمّخة بالسّراب تنشر نفحا مريحا يعبق بجميع الأجوبة على جميع ما يخطر من سؤال حتى أن المرء ليس له، في هذا الوجود، سوى أن تتضوّع منه الرائحة التي وضعها فيه "مقسم الحظوظ والأرزاق"[36]. كلّ تتهادى به الأيام والليالي وفق تدبير حكيم مرسلا ألوانا من النتونة والأريج إلى أن يشرع ،كالشمعة، في التآكل والذوبان. لكن الاعتقاد في ما وراء السماوات كثيرا ما كان يضمحلّ أمام المعركة مع الحياة الدنيا. فهي موجودة عيانا، تذيق مرّا وحلوا، قائمة بذاتها كالطود الشامخ لا يتطرّق إليها شك أو يلفّها بهتان، شيء كالدائم من الأزل إلى الأبد وإن كان،

36- في حاشية هذه الصفحة " كان المؤرخ الحزين كلما أنصت إلى متحسّر على هذه العهود من البكائين على كل شيء قديم يبدي اشمئزازا ويقول:" الثقافة التي لا يتحمل أصحابها مسؤولية أفعالهم وأقوالهم لا تعطي سوى التخلف والتأخر والجهل. ألا ترون أنكم إذا أنكرتم على واحد منكم قولا أو فعلا قلتم له" هداك الله أو غفر الله لك أو سامحك الله" لم لا تقولون له :" هذّب منطقك وأصلح نفسك وقوّم اعوجاجك وكفّ عن شرّك وأذاك وتخلّق وتهذّب "؟ كان الذين يوجه لهم مثل هذا الكلام يشتعلون في وجهه صارخين :" أتنكر وجود الله وتشك في الأنبياء والمرسلين يا لعين؟" فيقول لهم:" أنا لا أنكر ولا أشك. أنكر فقط تطاولكم على الذات الإلهية بنسبتكم أفعالكم البشعة وأقوالكم القبيحة إليها. تزعمون دائما أنها مقدرة عليكم وتتهرّبون من تحمّل أعبائها" . كانوا يشيحون عنه بأوجههم ويقولون :" حتى هذا كلام! لم يبق إلا أن يطلب منّا أن نغيّر منطقنا ونفسد لساننا" . كان يردّ عليهم قائلا :" كلامكم هذا قد صُنع لكم صنعا على امتداد قرون هي قرون تردّيكم في ما أنتم فيه ولن تخرجوا" . كنّا دائما نطلب منه أن يكف عن الخوض في هذا الموضوع .

في الحقيقة، عرضيا متأكّد السير إلى الفناء في ما لا يفنى. لذلك اختلط على أهل مدينتي الإيمان والعيان فظلوا ينفون بأحدهما الآخر ويثبتونه حسب ما يشتهون في مختلف الظروف والمقامات ومتشابهها. كان بإمكان هذه الروائح أن تستمرّ في رتيب تضوّعها إلى الأبد لولا أن رياحا عاتية هبّت علينا صرصرا شمألا عاصفة حتى تصدّع منها الإدراك والإيمان جميعا تصدّعا ظلّ عصيّا على الانجبار.

أما المقاهي الستة المعتدّ بها فأماكن عامة مشتركة مستباحة ومبتذلة، لذلك جمعتها حكمتنا الراسخة في القدم وراء الجامع القديم وأبقتها منكفئة على ذاتها في بناياتها قريبا من الطريق الرئيسية التي تحدق بالمدينة وتربطها بما يجاورها من قرى أو يأتي وراءها من مدن بعيدة[37]، لا يتخطاها أبدا الغرباء إلى حاراتنا المصونة.

كانت هذه المقاهي، عدا مقهى البرطال ذا الأصل اليهودي وإن كان صاحبه سرعان ما فرّط فيه لرجل من مدينتنا يقال إنه من صنائعه، دكاكين شاسعة الأرجاء مبنية أقبية بها، بعد استصلاحها وتهيئتها، دكانات مستطيلة ومربعة مفروشة بحصر الأسل والحلفاء عليها منضدات من خشب خفيف صغيرة قصيرة مربعة ومستطيلة متنقلة توضع عليها فناجيل لطيفة من الطين المطلي نصفين أحدهما بالأصفر والآخر بالأخضر الغامق يترشف، منعّمين، منها الزبائن قهواتهم. في الركن الداخلي يقبع مشغلٌ لإعداد القهوة وطبخها يقوم عليه صاحب المقهى نفسه أو أحد "صُنّاعه" الماهرين. كانت القهوة " العربي"[38]

37- تحت هذه الجملة سطران بقلم الرصاص، وفي الحاشية قبالتها " من لحمة الانتماء إلى التشظي والتيه".

38- جميع ما هو عربي عندنا كان حسنا وجميلا ونافعا. لذلك قاوم به أهل مدينتنا الأتراك

من البُنّ الصافي يتولىّ قلْيَها أصحابُ المقاهي في بيوتهم على نار هادئة ويطحنون منه، في مهاريس من نحاس، حتى يصبح ناعما، ما يدعو إليه نسقُ الاستهلاك فيطبخون كل قهوة في آنية نحاسية تسمى "جزوة" يدسونها إلى الثلث في قصعة من حديد بها نار خامدة في سحاق الفيتورة المكسو بغلاف دقيق من الرماد.

يقصد رجالنا هذه المقاهي فيخلعون بلغاتهم[39] في مدخلها ويجلسون متربعين على الحصر فيلعبون الحجارة والورق ويتجاذبون أطراف حديث عام ويدخنون تبغهم سجائر يلفونها بتؤدة وعناية وإتقان أو غلايين دقيقة طويلة يسحبونها من جيوبهم الداخلية. بعض الرجال كانوا، في الصباحات خاصة، يصطحبون إلى المقاهي صبيتهم أولادا وبنات ويقولون لهم:" إياكم أن تلحسوا مسحوق القهوة المترسّب في قيعان الفناجين بأصابعكم. لا تفضحوننا، أمام الناس، بتربيتكم السيئة" . لكن صبياننا كثيرا ما كانت تغلبهم شهواتهم فتمتد أصابعهم الصغيرة إلى ذلك المسحوق الراسب في قعر الفنجان يتلحّسونه بشغف غير آبهين بنهي الآباء أو نظراتهم الزاجرة. كان ذلك المسحوق، وهو يسمّى عندنا " تَنْوَة "، أفضل شيء عندهم فمنه تنبعث رائحة القهوة الحقيقية التي تودع في الأفواه، متى تجمّعت فيها، نكهة تظل ملازمة لها ساعات طويلة. اصطحاب الصبية إلى المقاهي كثيرا ما كان يتبعُه طلب "بقراج"[40] من القهوة يأخذه الرجل إلى عياله فيغنم الصغار منه

وما صنعوه بهم. وعندما اطلعوا على ما ألحقه به العرب بأنفسهم من ألوان المهانة أحلوا لفظة " البلدي" محل " العربي" . كانوا يقولون:" التحقت العرب الباقية بالبائدة فلم يعد لنا مثل نرتاح إليها. قررنا أن تكون مثلنا منّا" .

39- واحدتها بلغة وهي خف من جلد تدس فيه الرجل بيسر.

40- إبريق من الفخار المطلي أو النحاس ثم أصبح من الحديد حتى آل به الأمر إلى الألومينيوم

مقادير أخرى من " التنوة" كثيرا ما كانوا يتخاصمون عليها ويتعاركون ويعلو صراخهم. لم يكن رجالنا يطيلون الجلوس في هذه المقاهي، فهم يزورونها فقط لهذه الأشياء الصغيرة التي تدخل عليهم سرورا كبيرا وللإشعار بأنهم موجودون ولأشياء أخرى لا يصرّحون بها. كانوا، في بعض الأحيان، يضيفون إلى القهوة بعد طبخها، دمعة أو دمعتين من روح الزهر فتزداد نكهة على نكهة.

لم يكن التردد على المقاهي، في ليالي الشتاء خاصة، في متناول الجميع. كان يقصدها، علاوة على المخبرين والعاطلين والمتخلفين عن وسائل النقل من الوافدين الأغراب على المدينة والمغادرين لها، الشبانُ الذين تفتّوا أو اكتملوا رجالا واشرأبت أعينهم إلى بسط نفوذ يتجاوز حدود الحارات. أما إذا اتفق لصبي من صبياننا أو شاب لم يَبْقَل وجهُه بعدُ أن دخل إلى مقهى من المقاهي بعد الغروب بقليل عازما على الجلوس فيه، فإن من رجالنا من كان ينهض لزجره قائلا: " هيّا عُدْ إلى أهلك، رح، أسرع. أمك بدأت تقلق عليك". لم يكن شباننا يجرؤون على الردّ على زجر الرجال لهم بغير الامتثال السريع. كانوا يعرفون الحدود الجغرافية التي لا يحق لهم تجاوزها، وهي، في الغالب، متغيرة

والبلاستيك. العادة عندنا أن الذين يبكرون إلى المقاهي ليأخذوا بقراجا أو بقراجين من قهوتها السوداء هم الذين تكون نساؤهم على نفاس، لهذا كان الذين يشاهدونهم يبادرونهم بالسؤال" وريث أم الحمد الله على سلامة رأس المال؟"، فإذا كانت الإجابة " وريث" جرى السائل إلى أقرب دكان ليأخذ منه كوبا يصبّ له فيها حامل البقراج شيئا يسيرا، وإذا كان:" الحمد لله على كل حال" انصرف السائل دون أن ينبس بحرف. رسّخ هذه العادة فينا، في ما يزعم العارفون بأسرارنا، طبيب نابه من يهود مدينتنا كان يؤكد أن للقهوة فوائد جمة وأنه، في المستشفى الذي يديره بباريس، يوصي، دائما، للنافس ببقراج منها تشربه كاملا. ثم شاع استجلاب القهوة للبيوت في بقراجات حتى دخل في تقاليدنا.

بين اتساع وانحسار تبعا لتبدل الأوقات والفصول.

يروي الشيوخ في مدينتنا عن الشيوخ فيقولون بكثير من الاعتزاز والانتخاء: بعدما أقبل الأتراك بشرّهم وألقوه على بلادنا وذلّت لهم الرقاب[41]، وأصبح بعض المقتادين بهم، جملة وتفصيلا، يأخذون معهم إلى المقاهي، في بداية الليل، غلمانهم، صبية صفر الوجوه شاحبي الألوان ليّني الأعطاف مخنّثي المنطق والحركات من وضيعي أبناء المدينة ومن خارجها، استنكر أهل مدينتنا ذلك السلوك الأخرق. كان هؤلاء الغلمان يجلسون بجوار أسيادهم متأدبين صامتين لكن المشادّات كثيرا ما كانت تحدث بينهم. كان بعضهم، من ذوي الشوارب الطويلة المفتولة أفقيا أو المهدّلة، كثيرا ما يفطن لبعض وهم يتغزلون

41- في الحاشية " يزعم كثير من الشيوخ أن مدينتنا، قبل أن يقتحمها التمدن، لم يكن أحد يقدر على استباحتها عنوة. كانوا، كلما ذكرنا، في مجادلتهم، الأتراك مثلا، يقولون:" نحن الذين طلبنا منهم المجيء. كان النصارى يلوّحون بصلبانهم مبربرين قريبا من شواطئنا". يتظاهر بعض منا بالاقتناع ويمط آخرون شفاههم مندهشين فيقول الشيوخ:" الفرنسيون جاؤوا لاسترداد دينهم. العيب في من استدان عاجزا عن التسديد. ذوو الهمة والشرف لا ينكرون ديونهم. عندما كشفوا لنا عن سوءاتهم دبرنا لهم الويلات التي زرعت الرعب في قلوبهم فولوا هاربين". أما في ما يتعلق بهذه الحادثة فإن المؤرخ الحزين، وبغضه للأتراك يعرفه خاص وعام، يشك في نسبتها إلى العهد التركي إلا إذا كان الذين يروونها يصرون على نسبة باياتنا إليهم استرسالا مع الاعتراض على وجودهم نفسه بيننا. كان يقول:" المسافة بين مقدم الأتراك وتشييد المقاهي كبيرة ونسبة ما ابتليتم به إليهم بهتان في بهتان" لكنه لم يفدنا بتفسير آخر. حاججناه بوقائع من تاريخ باياتنا كان يعلمها أكثر منا ويصرّ متجاهلا لها ليسمعها من أفواهها وهو يضحك ويتعجب ويستغرب ثم قال:" ما توّهكم سوى الخلط بين تناول القهوة وإقامة المحلات الخاصة بها. التجاهر باصطفاء الغلمان اقتدت فيه، عندما كان الناس على دين ملوكهم، طائفة من أهل المدينة بما كان شائعا من إتيان البايات لمماليكهم، أما الواقعة التي تشيرون إليها فقد حصلت، على نحو يختلف عما تذكرونه، في بداية عهد دولة الحماية والاستعمار. كانت مشادّة صغيرة بمقهى البرطال بين منحرفين شُداة على صبيين فاتتهما وسائل النقل فانتصر لهما وحماهما بعض من فتياننا الميامين".

خفية بصبيتهم أو يومئون إليهم بالإشارة والتلميح أو يطيلون إليهم نظرا شبقا فتنقلب المنضدات الصغيرة بما عليها أو تطير في الهواء وتسحب المدى والخناجر وترتفع الأصوات بالشتم والسباب، كلّ يذود عن رزقه الحلال ويذبّ عن شرفه. ضجّ رجالنا من هذه المشادات زمنا وتواطؤوا، في كنف التكتم، على أمر اجتمعوا له ليلة فانهالوا على الغلمان ورجالهم ضربا مبرحا بعصي كانوا يخفونها تحت ملابسهم حتى فروا صارخين لا يلوون على شيء.

أصبحت، من ليلتها، مقاهي مدينتنا الستة نظيفة من تماجن الفساق وغلمانهم، لكنها ظلت مكانا موبوءً سيئ السمعة يشين الصبية أن يتردّدوا عليه دون رفقة راشدة. كانت، منذ نشأتها، تغلق أبوابها مع الساعة التاسعة مساء أو قبيل ذلك بقليل. لهذا كانت الروائح التي لم يبتدع الناس لها اسما، رغم أنها كانت شاملة لهم مثل الضباب ونور الشمس وضياء القمر والظلال والهواء، متجانسة في راسخ الاعتقاد في أن أهل مدينتنا ليس لهم نظير لا في مغارب الأرض ولا في مشارقها. فهم لا يعترفون إلا بما تجتمع كلمتهم عليه. ولما كانت كلمتهم لا تجتمع على شيء ذهب في اعتقادهم أن كل شيء معروف لديهم ومرتب في نظامية كثيرا ما كانوا يخترقونها، فإذا ما خوطبوا في ذلك قالوا: "أعرافنا وعاداتنا وقوانيننا فما دخلكم أنتم بينها وبيننا؟" وعندما ارتمت علينا دولة الاستعمار والحماية وأولجت فينا خازوقها بدأت تلك الروائح في الاختلاط وبدأت الأنوف تنكرها حتى بدأ معظم الناس يفقدون توازنهم. أصبح الواحد منهم يقول، وهو يجرش، درءا للحرج، أمّ رأسه بأظافر طويلة لا تخلو من سواد، لمن ينكر أمرا لم يرسخ بعد في تقاليدنا: " سنّة الحياة التبدّل. شتاء هذا العام لم يكن مثل الذي كان

قبله. الأموات وحدهم لا يتغيرون".

من هذه المقاهي، وهي معروفة بأسماء أصحابها أو هندستها أو بما ينبت في ساحاتها أو يجاورها من أشجار أو حصل فيها من غريب الوقائع، انبعثت فتضوّعت، سنوات طويلة، روائح القهوة والشاي والحبق والنعناع والدخان وماء الزهر والحشيش ومشاميم الفل والياسمين والورد والقرنفل مرشوقة فوق الأذن اليمنى أو اليسرى تبعا للمقامات أو على حافة الجبهة تحت الشواشي والمناديل المعقودة فوقها. كانت تلك الروائح تمتزج بروائح الأفواه والجلود والملابس والأوساخ والعطور فتصبح لطائم فاغمة بما فيها مختلطا بروائح الأحاديث الندية والشقية والأفكار.

في هذه المقاهي التي انكفأت وراء الجامع القديم ستة، فالسابع لا يدخلونه في الحساب، وظلت ستة إلى بداية عهد دولة الاستقلال والسيادة، كان فتيان الحارات يسوّون الخلافات التي كانت تنشب بينهم. لم يكن بعضهم يأمن بعضا إذا ما توغلوا في الحارات فكانوا يلتقون في الفضاءات المحايدة خارج المدينة أوّلا ثم أصبحوا يقصدون، في بداية الليل، أحد هذه المقاهي. كانوا يأتون، أكثر ما يأتون، مقهى المحباك[42] (بتفخيم الباء والكاف، وأهل مدينتي مولعون بتفخيم

42- هو المقهى الوحيد الذي تسمّى بكنية صاحبه وظل يحملها دون أن يلحقه تحوير أو تصحيف إلى أن قوّضته يد الحدثان. قيل إن المحباك الأب قد اكتسب هذه الكنية وعرف بها حتى لم يعد الناس يذكرون اسمه الحقيقي عندما بلغ مبلغ الشباب. كان قد نشأ في كنف أمه وأخواله شبه يتيم. فوالده كان قد ترك المدينة وانقطعت أخباره عندما لبسه شوق الرحيل إلى بعض البلدان الشرقية. طلق، قبل رحيله، زوجته، وكانت ابنة خالته، وصفّى ممتلكاته وتأبط نعليه ممسكا بعصا الترحال. نشأ الصبي بحارة

الحروف فهو دليل على اتساع الفم، واتساع الفم دليل على الفصاحة، والفصاحة دليل على النباهة التي يتعجبون من أنها لا تبدو للناس على مقدار عظمتها فيهم)، فالمقاهي الأخرى كمقهى النخلة (الذي لم يفقد اسمه إلا بعد سنوات طويلة من اجتثاث نخلته وتقويض مبناه القديم) ومقهى العنبة(الذي أصبح مقهى المستقبل ثم مقهى الكذبة قبل أن يعرَى تماما من الأسماء) ومقهى الأقواس (الذي كان يسمى مقهى البرطال ثم أصبح يُعرف، أحيانا، بمقهى البوّالة) ومقهى القبة (الذي لم تكن به قبة فللفظة في لغتنا إيحاء قبيح وأصبح لاحقا يسمى

" العرنوس". كان عظيم الخلقة لكن دون جأش حتى نشبت بين صبيان هذه الحارة وحارة العمشان معركة، وإذا بالصبي الجبان المسالم البكّاء يبلي فيها بلاء لم يكن يتوقعه منه أحد. عندما شب وأصبح فتى " العرنوس" بدأ يستعد لبسط نفوذه على الحارات الأخرى. قيل إن أمه هي التي صرفته عن ذلك. دعته ليلة إلى غرفتها بالبيت الملاصق للبيت الذي نشأت فيه فحدثته طويلا عن والده الذي هجر المدينة دونما سبب. ذكرت له أنها رفضت، حرصا على أن تجنبه مرارة عيش الربيب، جميع الذين رغبوا فيها. ختمت كلامها بقولها:" أوصاني والدك، إذا عشتَ، أن أسلمك هذا"، واستخرجت من طاقة في الجدار صندوقا مملوء ذهبا. سكتت وهو يتأمل ما في الصندوق وقالت:" الأمانة وأديتها. أنا من الليلة ملتحقة بأهلي". لم يفهم الفتى أول الأمر شيئا من كلام أمه فظل ينظر إليها لا يدري أيّ شيء يقول، ثم سألها بنبرة هادئة جدا:" وأنا؟"، قالت:" دعنا في الصحيح. الدروشة احتفظ بها لأصحابك. بيني وبينك شِيء واحد. السيادة أو الأم". قال العارفون بسيرة المحباك إنه قد ترك أمه تنتظر جوابه وخرج فلم يعد إلا مع وجوه الصباح. ألفاها نائمة في المكان الذي تركها فيه فقال لها:" قد اخترت". وأبلغ أولاد حارته أنه لم يعد يرغب في"السيادة". حاولوا ثنيه عن قراره فأصرّ وقال:" أعطيت كلمتي لمن لا أقدر على أن أكذب عليها". بعد بضعة أسابيع اشترى مخزنا صغيرا وراء الجامع القديم وحوّله إلى مقهى. كان المخزن فارغا مهملا فاستصلحه. عندما بدأت تأخذ منه الأيام وقف ابنه على المقهى منصرفا إلى أمور أخرى.

مقهى المحطة تماهيا مع ما فيها من تلميح خفي للأمور المستقبحة) لم يكن الفتيان يرتاحون لأصحابها أو لروّادها. أما المحباك، وكان يسمى أيضا" الحِيط"، فإن عينه قد ارتفعت بعد الفتوّة إلى السيادة فطلبها ولو لم يعدل عن طلبها لكان قد نالها مستحقا، فقد ظل محل تقدير واحترام. كان روّاد مقهاه يعتبرونه خميرة المدينة. يأتيه رُسُل الفتيان لضبط المواعيد فينقل الرسائل، ويعدّ لكل وفد دكانته. كان الفتيان لا يجلسون في مكان واحد ولا يتبادلون في المقهى أيّ كلام. يظل كل وفد في المكان الذي كان المحباك قد أعده له حتى إذا بدأ الليل يتقدم وأغلق من باب المقهى أحد المصراعين إعلانا عن الكف عن استقبال الزبائن، خرج من كل وفد فردان للتفاوض. كان المحباك يترك، في بعض الأحيان، مقهاه ليلتحق بالمتفاوضين فهو يعرف من الخفايا ما يجهل الكثيرون. فإذا حُسم الخلاف على اتفاق رجع المتفاوضون إلى المقهى ليتناولوا معا قهوة خاصة كان يعدّها لهم المحباك بنفسه ويصبّها في فناجيل كان يحتفظ بها للمناسبات الجليلة دون أن ينال عليها أجرا. كان يسحب مِرَشّة بها ماء الزهر فيرشّ منها على رؤوس الفتيان قطرات قائلا:" تعطروا. قد والله تأذت من روائحكم الجدران بعد الملائكة". وإذا انفض اللقاء على استمرار الخلاف واستبطأ كل وفد مفاوضيه ويئسوا من عودتهم افترق الفتيان على شرّ لا يشرعون في إتيانه إلا بعد خمسة أيام من الليلة التي كان فيها تفاوضهم. كان معظم الخلاف بين فتيان الحارات يدور حول السرقة والاتجار في الممنوعات والتهريب والنساء والحماية التي يبسطونها على سكان حاراتهم.

أما في الصباحات وفي سائر أوقات النهار إلى ما بعيد غروب الشمس بنحو الساعة فقد كان بإمكان أيّ كان أن يتردد على هذه

المقاهي فهي تعتبر في تلك المدة من الزمان أمكنة مستباحة. غير أن صبياننا ظلوا يتنكبون مقاهينا حريصين على ألا يقتربوا منها عند مرورهم بجوارها.

لم تتمكن مقاهي مدينتنا طوال البدايات المترددة التي عرفها عهد دولة الاستعمار والحماية، من الإسهام في طبع تلك الرائحة بطابع آخر غير ما كان يتريّع منها في الحارات والمنازل والدكاكين مشدودا إلى الفهم الذي ظلوا، على امتداد قرون كثيرة، يتوارثونه لما وراء السماوات. فالله في جميع الحالات غفور رحيم، يسأله عباده ما شاؤوا فيستجيب أو لا يستجيب، وتقوم بينه وبين خليقته طائفة من الوسطاء الخيّرين الذين كثيرا ما يتوسّل الناس بهم لجلب المنافع ودرء المصائب. أما الشرّ فمن وسواس الخنّاس الذي كثيرا ما يوقع بين الناس، فأهل مدينتي كثيرا ما يرفعون الصوت بلعنه وشتمه. والتربية التي ينشأ عليها الصبيان والمعرفة العامة التي يتلقونها يشارك الجميع في ترسيخ مبادئها فيهم. للمتقدمين في السنّ حظ من التقدير والإجلال يبسط نفوذهم على الجميع . وللقادر على فكّ الخطّ منزلة أرفع من منزلة الجاهلين، وشيوخ الحارات شرور منكرة لكن لا بدّ منها في التواصل الذي يكرهون بينهم وبين جور الحكام. وأما " الخلفاوات" (وهو جمع اشتقوه للخليفة تمييزا لهم عن "الخلفاء" درءا للاشتباه) فمصائب قاصمة لا ترسل سوى الروائح النتنة. يقول أهل مدينتنا وهم يتنخّمون ويمصمصون بشفاههم تجميعا لبصقة يلقون بها جانبا :"لولا أن إمام الجامع القديم كان دائم النصح لنا بوجوب طاعتهم وأننا نخشى من أن يُعِيرهم الله، جلّ علاه، سمعه فيسعون بنا لديه بما فيه ضررنا، كنّا، والله الذي لا إله إلا هو، نكّلنا بهم من زمان ومثّلنا بأشلائهم في الأزقة والشوارع قبل

الرّمي بها للكلاب السائبة".

للإقامة في فضاء واحد أعراف رسخت عميقا في الضمائر فلم يعد أحد يقدر على الخروج عليها. فالناس محكومون بالمنازل التي وُجدوا فيها حتى كأنه قد كُتِبَ على أولاد الفقراء أن يكونوا فقراء والأغنياء أغنياء والأدنياء أدنياء وأولاد السرّاق سرّاقا والمجرمين مجرمين والصالحين صالحين والفاسدين مفسدين. لهذا كان أهل مدينتنا يحفظون الأنساب عن ظهر قلب ويستنكرون، شديد الاستنكار، أن يخرج أيّ كان عمّا يعتقدون أنه مقدّر له " مكتوب" في لوح محفوظ. كانوا يقولون لمن يحاول منهم أن يعلو على مرتبته:" أأنت الذي اخترت أن تولد من هذين الأبوين في هذا البيت وهذه الحارة وهذا الزمان أم الله؟ ما دام هو الذي اختار لك ذلك فلا بدّ أنه اختاره لحكمة لا يدركها إلا هو. فكيف تسمح لنفسك بأن تعترض على إرادته وتشكك في حكمته؟ هيّا العن الشيطان وألزم الحدود التي رسمها لك واقنع بمكتوبك". لا يجد الذين يُقَرَّعون بمثل هذا الكلام حجّة للردّ على مخاطبيهم فيخفضون الرؤوس ويتظاهرون بالاقتناع. لكنهم كانوا لا يفرّطون في أيّ فرصة تسنح للاعتداء على حدود المكتوب.

كانت حاراتنا، إلى بدايات عهد دولة الحماية والاستعمار، منعزلة بعضها عن بعض وكان الانتماء إلى كل واحدة منها يعقد بين الساكنين فيها لحمة متينة حتى أن التعريف بالفرد من أهل مدينتنا كان يبدأ، أول ما يبدأ، بذكر الحارة التي يقطن فيها ثم يأتي، بعد ذلك، اسم الأسرة الكبيرة والأب والأم وموقع البيت التي يقيم فيه. من هذا الشعور الحاد بمثل هذا الانتماء الراسخ إلى الحارات نشأ توجّس من المقاهي، أوّل ما بدأت في الظهور ، لا يقل حدّة عن التوجس من الحارات الأخرى.

فأصحاب الدكاكين الصغيرة المبثوثة هنا وهناك في الحارات والمنتشرة في مداخلها، مثلا، أصبحوا يحرصون، عند فتحها في الصباح الباكر، على إيقاد كوانين صغيرة على حاشية من أبوابها لإعداد البيض "الرائب"، فأهل مدينتنا ولوعون به، وطبخ قهوة "ديارية" يترشفها المارة على عجل أثناء التعرّف على آخر الأخبار من صاحب المحل أو بعض "المقعمزين" أمامه. كانوا ينتظرون أن يغني هذا عن الاتجاه إلى المقاهي فبين المشروب أمام الدكاكين وفي المقاهي فروق كبيرة جودة وسعرا فضلا عن أن إشراف تلك المحلات على الساحة التي كانت تنتصب بها السوق الأسبوعية يجعلها ملحقة بالأماكن التي يُعدّ الناسُ فيها فرائسَ أو كواسرَ، ففي منطق التجارة يحلّ للأخ أن يأكل من لحم أخيه.

لكن التنافس بين الدكاكين والمقاهي لم يكن يسترعي انتباها فكل شيء، عندنا، كان غارقا في رتابة الألفة وهدوء التعوّد وتحجّر التكلس على حاشية من هزّات العواصف إلى أن بدأت الرياح الغربية ترمينا، على دفعات، بصهد " الشهيلي[43]" و قارص الزمهرير.

فقد اتفق، عندما أصبح البايات دائمي الرّكوع أمام جنرالات دولة الحماية والاستعمار، بعدما كان ما كان من ترويضهم لهم وجبرهم، ببالغ التضمّخ بروائح الهلع والوعيد، على تسليم مقاليد البلاد للمقيم العام فجدّ، وكانت به خشونة شرسة وعجرفة بذيئة، في إذلالهم والسخرية بهم، أن غضب واحد منهم عُرف بالفسق والسفاهة والذل على شاعر تعرّض له بهجاء مرّ به فحش كثير ففكّر مليّا في أنكى أذى يمكن أن يلحقه به. استشار حاشيته في ذلك فاقترحوا عليه أن ينفيه في شر القرى

43-الريح شديدة الحرارة.

بشر الجهات. استعرض الباي البلاد شبرا شبرا فلم يجد لتحقيق رغبته أفضل من مدينتنا. هذا ما كان يرويه الشيوخ عن الشيوخ مقسمين على أنهم قد استقوه من ثقة شاهده عيانا. نزل ذلك الشاعر بمدينتنا يقوده عسكريان مع نصيحة للخليفة يوصيه فيها الباي به خيرا جزيلا. استاء شيوخ الحارات ممّا أتاه ذلك الباي[44]، لكنهم أظهروا للخليفة امتثالا داعين لسيده بدوام العز والهناء وانصرفوا صامتين.

44- في هامش الصفحة " كان البايات يضمرون بغضا أسود لمدينتنا التي بدأت تتهيّأ لأن تصبح مدينة ويظهرون لأهلها عتابا خفيفا لأن واحدا من أشهر فتياننا قد انضمّ، في الاضطرابات التي صدّعت دولتهم ممهدة الطريق لدولة الحماية والاستعمار، إلى نصرة مغامر من العامة سوّلت له نفسه أن ينصّب نفسه بايا على بلادنا. أقدم ذلك المغامر على فعلته تلك قائلا: " أيحكمنا أغراب من المآبين وفينا من لو بال في الصحراء لأنبت فيها حدائق؟" كان ذلك أثناء وقائع " المجبى" وما كان فيها من تورّط أعيان المدينة في الالتحاق بفلول المنشقين ونهب الباي لها وتنكيله بهم وتغريمهم مالا كبيرا. التفّ على ذلك المغامر الذي نصّب نفسه بايا كثير من الناقمين على سيرة البايات فينا وانشق الأهالي نصفين. نصف رأى في الخروج على الحاكم الظالم عملا حلالا زلالا يفتح على " الشهادة". ونصف جعل يقول:" لا يحلّ، حسب إمام عُيّن حديثا على الجامع القديم، للرعية أن تخرج على أولياء الأمر وإن ظلموا أو أفسدوا في الأرض، فالفتنة شر من القتل، وما من كبيرة أو صغيرة إلا بمشيئة الله، ولا يعترض على مشيئته إلا عاص. والشهادة لا يستحقها العصاة ". وعندما دبّر بعض الأعيان القبض، غدرا من أجوارنا وطمعا، بالذي نصّب نفسه بايا علينا وسارعوا بشنقه قريبا من سبختنا حتى تموت معه أسرار لا يرغب أحد في الكشف عنها ورغب الباي الظالم في تسلم جثته للتمثيل بها وصلبها على سور الحاضرة تصدّى له رجالنا قائلين:" غيرنا يُعتبر به أما نحن فلا، والرجل كان قد استجار بنا".غضب الباي بالحاضرة على أهل مدينتنا مرتين، إحداهما على نصرة الثائر المتمرّد والأخرى على حرمانه ممّا كان سيفرح به. ورث الذين جاؤوا بعده غضبه علينا فكانت لا ترد علينا منهم إلا الشرور. لم تورد مصنفات التاريخ ذكرا لهذه الواقعة لكن الجميع كانوا يعرفونها".

كانت القصيدة[45] قد سبقت صاحبها فسارت في الناس رغم أن أهل مدينتنا لا يحبون الشعر والشعراء لفرط اعتدادهم بأن حلاوة لسانهم لا يضاهيها، في الدنيا، كلام. وعندما سمعوا بمقدم ذلك الشاعر حرصوا على أن يحتفوا به فاستقبلوه، بإيعاز خفيّ من شيوخ الحارات، استقبالا حسنا نكاية في مقت الباي له وامتهانه لهم وتحدّيا للخليفة وشماتة به فقد كانوا يزعمون أنه مصاب بداء أخلاقي مهين.

خطر لصاحب مقهى النخلة[46]، وكان واجدا على "الخليفة"

45- يختلف الرواة في الصيغة التي سارت لهذه القصيدة في الآفاق ويقسم البعض منهم بأغلظ الأيمان أنها تختلف كثيرا عن التي كانوا قد سمعوها من صاحبها عندما صدح بها مرّات في "محفله" بساحة مقهى النخلة. كانوا يوردون مكان الألفاظ القبيحة الفاحشة ألفاظا نظيفة أو همهمات لها نفس الوزن، لكن روايتهم لم تسر. سألنا المؤرخ الحزين عن ذلك فهو كثيرا ما يستشهد منها بأبيات لا يصل بها إلى اللفظة اللازمة الفاحشة في قافيتها فقال: " الأقوال عند أهل هذه المدينة أفعال، وهجومهم على الألفاظ البذيئة يطلبون به شفاء النفس من شديد الوجد على خصومهم وعلى أنفسهم ذاتها في بعض الأحيان. أما رأيتم الواحد منهم كثيرا ما يقبل على شتم نفسه متى لم يجد من يشتم؟ أما أنا فقد شاهدت، أكثر من مرة، من جعل يشتم نفسه حتى إذا أعاد له واحد من السامعين لفظة من تلك الألفاظ القبيحة التي كان ينعت نفسه بها، هجم عليه مدعيا أنه قد سبّه" . استغربنا هذا الأمر فلم نكن قد فطنّا له رغم تواتره.

46- في هامش الصفحة : يقول أهل مدينتنا:" إذا عرف السبب بطل العجب"، ويستشهدون بما كان المؤرخ الحزين يكثر، في شبابه، من ترديده على مسامعهم من أن " الصّدفة" أو" الاتفاق" ليست سوى وقائع أو ظواهر نجهل أسبابها. وإذا كنا اليوم نجهل تلك الأسباب فذلك لا يعني أننا سنظل دائما نجهلها. ويستدلون على صحة كلامه هذا، رغم أن صاحبه لم يعد عندما كبر به الحزن يصرّ عليه، بقولهم: أول بيت شيّد للقهوة بمدينتنا هو مقهى البرطال، وأول بيت فتح أبوابه لها هو مقهى النخلة. أما مقهى البرطال فقد بناه يهوديّ كان ينوي أن يجعله محلا للسهر على أنغام " هزّان" الحزام

وأعوانه وعلى الفرنسيين وأتباعهم لإفراطهم في النيل، دون مقابل في معظم الأحيان، من قهوته مدّعين أنهم وعيالهم لا يستطيبون سواها، أن يسمع الناس القصيدة بصوت صاحبها فرتّب لذلك مجلسا في الساحة التي يفتح عليها مقهاه. اعترض الخليفة، وكان يداري أهل المدينة اتقاء لما كان يعرفه عمّا يقدرون عليه من شرّ سبق له أن خبر منه ألوانا، على ذلك فقال له بعض العقلاء: " الملزومة سارت بها الركبان واشتهرت. إن أنت منعتها امتنعت عن النسيان. دعها تبتذل لتصبح شيئا عاديا لا يلتفت إليه أحد". أما الفرنسيون فقالوا إن الأمر لا يعنيهم فضلا عن أن الشعر إحساس لطيف لا يكرهه إلا الأجلاف المتوحشون. صرف الخليفة النظر مفتعلا توعّكا حادّا ألم به فأنشد الشاعر "ملزومته" بمقهى النخلة. رغب الذين تقاطروا من جميع الحارات، ليلتها، على ذلك المجلس في التظاهر بالطرب فطربوا حتى مزّق بعض الفتيان ثيابهم واستلقى بعض الكهول على الأرض يفحصونها بأرجلهم وطلبوا من صاحب المقهى أن يجعلها عادة يعاودها.

كان الفن عزفا وغناء وإنشادا، بمدينتنا، في يد اليهود وفرق

و "تدوير الخصور" و" ارتعاد النهود" اقتداء بما كان قد شاهده في بلاد الترك والشام. وعندما بدأ يبحث عن الرقاصة والمغنين وتردد، في ذلك، على الماخور ألقى إمام الجامع القديم خطبته في تحريم شرب القهوة السوداء. فطن ذلك اليهودي إلى أن لا مستقبل لما كان سيعرضه على الناس من بضاعة فسارع في التفريط في مقهاه لواحد من المسلمين كان له دَين عليه. سرّح قبل ذلك رجالا في المدينة يقولون إن" القهوة ليست حراما فلها في القاهرة ودمشق بيوت عظيمة القدر" لكن لم يلتفت إليهم أحد. لم يكن صاحب مقهى النخلة خالي الذهن ممّا كان ينوي اليهوديّ القيام به. وعندما سيق ذلك الشاعر منفيا إلى مدينتنا أورقت الفكرة في خاطره من جديد. كان، في الحقيقة، يمهّد الطريق إلى محل للقهوة في النهار وفي الليل للطرب".

العيساوية. أما اليهود فقد كوّنوا جوقات نسائية وأخرى رجالية دأبت على إقامة حفلات الزواج والختان للنساء بالمنازل المحروسة وللرجال بالفضاءات التي تصلح لذلك بالحارات. كان لا يحضرها من الحارات الأخرى سوى عدد قليل من المدعوين تخصص لهم أماكن معيّنة. أما العيساوية فكانت تقيم حفلاتها في بعض المناسبات الدينية كالمولد النبوي ورأس السنة الهجرية وعاشوراء وذلك بالحارات أو المقامات أو بساحة الجامع القديم. ولما كان أهل مدينتنا ولعين بـ "الربوخ" كانت لهذه الحفلات، لديهم، نكهة خاصة. معظم الكلام الذي كانت تتغنى به هذه الفرق، حسب المقامات، أناشيد في مدح " النبي" عليه ألف سلام وسلام وتغن صوفي بمناقب كثير من الأولياء والصالحين، لكن سرعان ما كان يتبعه كلام " فيه من الأخضر" شيء كثير تترنم به جميع الفرق في الأدوار الثانية من المحفل فيشرع الحاضرون في الاهتزاز طربا. كانوا يطربون، أكثر ما يطربون، إلى جنوح الكلام إلى المحسوس وإغراقه، في بعض الأحيان، في التصريح بـ" عضّ البزّول" و" شم الحرقوص" و" ارتقاء القباب" وهصر المتون" و"مصّ الشفاه" فكان فتياننا وبعض الكهول يفرطون في التظاهر بالتفاعل معه بعبارات جاهزة كان الواحد منهم يطلقها مفتعلا إغماء وصرعا. أما التغنيّ بسبّ الحكّام وشتمهم فله، في عرف أهل مدينتنا، سياقات وصيغ أخرى لا تدخل في هذا الباب.

أصبحت ساحة ذلك المقهى تغصّ كل ليلة بالزبائن من جميع الحارات وتفيض بهم إلى الشارع والردهات الجانبية. تقاطرت عليها حشود من أجوارنا كانوا يأتون إلى مدينتنا جماعات قبيل الغروب ويظلون فيها إلى أن يفرغ الشاعر من إنشاد ملزومته. غصّت السلطتان،

سلطة فرنسا الغليظة وسلطة الباي الرخوة، الطرف عن التنقل ليلا بين القرى، فما دام في الأمر سماع للغناء وطرب بالشعر فليس فيه ما يبعث على تخوّف أو يدعو إلى احتراس. اقترح بعض الشامتين في الباي وخليفته أن يجعل صاحبُ المقهى الجموعَ الوافدة لسماع الغناء سماطين، مثلما كانوا قد عهدوا بحاراتهم، يمرّ بينهما الشاعر منشدا وراحته نصف المفتوحة تغطي أذنه اليسرى. ثم أصبح يسير وراءه رجلان رخيما الصوت يرددان ما يتغنى به من كلام أمامهما.

اشتعل في أرباب المقاهي الأخرى ، الحسد وهم يشاهدون الناس مزدحمين على مقهى النخلة إلى حوالي العاشرة والنصف ليلا بعد أن اعتادوا على ألا يبقى فيه أو في سواه، بعد صلاة العشاء، سوى حفنة من المترددين في القفول إلى منازلهم. أرسلوا إلى الشاعر من يغريه بالعطايا الجزلة مؤملين أن ينتقل إلى مقاهيهم. لكنه رفض وفضحهم بأبيات طرب لها الناس وضحكوا حتى سقط بعضهم، عند سماعها، فوق بعض. غضبوا فوجّهوا إلى بعض الفصحاء من جعل يُورِي صدورَهم ويطفئها على هذا الغريب الأفّاق الذي سحر الناس بقبيح ما يهدر به، كل ليلة، من فاحش الكلام في مدينتهم. أقبل واحد من السفهاء على صوغ قصيد في الغزل وتغنى به في مقهى العنبة. صنع آخر قصيدا غزليا آخر وتغنى به في مقهى البرطال. كان القصيدان باردين شديدي السخف والركاكة ولكنهما حملا جماعة من السذّج على الانفضاض عن شاعر مقهى النخلة فالكلام النديّ أعلق بالقلوب من الهجاء. اغتاظ من ذلك صاحب مقهى النخلة وخاف من أن يضيع منه مورد للرزق لم يكن يطمع فيه وشهرة لم يكن يحلم بها فطلب من شاعره أن يقول شيئا في الغزل. فكّر الشاعر في الطلب مليّا وقال

بديهة:

" ما نرفع صوتي ونغني كان ما نشوف الزين

ونقابلها وتقابلني ونشمّ الخدّين".

استشاط صاحب المقهى غضبا وقال له :"تريد أن تفضحنا لدى أجوارنا بذكر نسائنا يا هامل يا أفّاق يا سفسوف يا سافل". وأسمعه من قبيح اللفظ ما تركه فاغر الفم لا يستطيع نطقا. رجع الشاعر إلى داره يجرّ ساقيه جرّا ولازم بيته ثلاثة أسابيع كاملة ثم أرسل لصاحب المقهى من يطلب منه أن يرتّب مجلسا يحشد له الناس حشدا. وعندما حلّ بالمكان وانتصب واقفا بين السماطين وجعل يتبختر بينهما مستعرضا الحاضرين بعينين وقحتين، ولحَفَتُه المخططة تتدلى على صدره من كتفه اليسرى حتى تكاد تلامس الأرض، خيّم صمتٌ ثقيل. ملّ الناس استعراضه لهم وأطلق له بعض الضجرين من الشبان قرويات انفجارية فوقف وتنحنح ورفع صوته منشدا.

يقول أهل مدينتي عند ذكر هذه الواقعة:"أما الذين حضروا وسمعوا تلك القصيدة فقد ظلوا دهرا يقسمون بأن الكلام الذي تغنى به ذلك الشاعر لم يسبق لهم أن سمعوا له مثيلا أو خطر لأيّ منهم أنه يمكن أن يوجد أو يصدر عن إنسان. باتت جميع النساء ليلتها، من روعة ما ردده رجالهن على أسماعهن من ألفاظ القصيدة، مسرورات هانئات. حتى الذين كانت "نساؤهم راحات أيديهم" باتوا طيبين. وأما صاحب مقهى النخلة فقد طرب حتى مزّق جبّة ثمينة جديدة لبسها للمناسبة. وأما الشاعر، وجميع الذين شاهدوه كانوا يؤكدون، مقسمين بالأيمان الغليظة والرقيقة، أن دموعه كانت طيلة الإنشاد تسري على وجنتيه، فما أن ختم قصيده حتى خارت قواه واختلفت رجلاه

فهبّ له رجلان فأسنداه وهو يوقّع برأسه دون أن يخرج من بين شفتيه صوت وسارا به إلى داره. قالوا أيضا إن الشاعر لم يسمح للرجلين اللذين يعيدان كلامه بالسير وراءه والتغني بما كان يصدر عنه.

لم يظهر لشاعر مقهى النخلة بعد تلك الليلة أثر. بحث عنه الناس في جميع الأماكن فلم يصلوا إلى شيء. بحث عنه أعوان الخليفة وسألوا عنه في جميع القرى والمدن المجاورة، وعندما لم يعثروا عليه أنهوا إلى سيدهم الباي أن الشاعر الخبيث الهجّاء قد أراحته منه شياطين المدينة فقتلته ورمت به في أحد الأجباب السحيقة بجنوبها. لم ينشط في البحث عنه شيوخ الحارات. قيل إنهم كانوا يعدّون وجوده في مدينتنا عارا عليها. أمر رجال من الجندرمة بعض المتسابقين إلى خدمتهم بتقصّي الخبر لكن بنبرات خافتة فيها كثير من اللامبالاة.

غير الذين بحثوا عنه اختلقوا قصة جعلوا يروّجونها زاعمين أن غانية "زعبانة"[47] من غواني مدينتنا بلغها ما قاله الشاعر لصاحب مقهى النخلة عندما طلب منه "ملزومة" في الغزل، وكانت أخباره وأخبار المقاهي قد بدأت تبلغ النساء، فأرسلت إليه عجوزا من ثقاتها وأشعرته أنها ساعية إليه " ليرى الزين الذي يستحق أن يتغنى به". جاءته هذه المرأة بعد الغروب ملتفة في أخلاق. وعندما كشفت عن وجهها وكانت في أكمل زينة ولفحته رائحتها خرّ ساجدا أمامها. ضحكت المرأة من سجدته وقالت وهي تمد له ساعدها: " تريد اللمس والشمّ يا مهبول، أم يكفيك النظر؟ ديباجنا الذي ليس كمثله شيء لا مطمع فيه لأفّاق نتن المنطق من أمثالك". انبطح الشاعر لا تصدر عنه سوى تهتهات خافتة. فتحت المرأة نطاقا كانت تتمنطق به وعندما شعّ ضياؤها انطفأ القنديل

47- لبقة مفتنّة في الظرف والدهاء.

خجلا. انصرفت المرأة تاركة الشاعر غارقا في الذهول. قال الذين كان يحلو لهم التوسع في هذه القصة إن الشاعر قد دوّخته رائحة تلك المرأة واندقّت في ذهنه صورة "خال" بديع التصوير في حجم حبّة التوت لمحه في أسفل عنقها من جهة اليسار فأنّ ودخل في عالم آخر، وعندما نزل عليه الشعر أفرد لحسنائه تلك بيتين من القصيدة ذكر فيهما حبة القسطل تميمة يتحصّن بها من الحسد صنمُ العاج والكافور. كانوا، وهم يحرصون على الوقوف على هذه الجزئيات، يريدون إقامة البرهان على أن تلك المرأة كانت من عقب محرز غالمة أخ يونس[48] وأنها ترددت، بعد تلك الزيارة الأولى، على الشاعر مرات كثيرة حتى أنهى ملزومته تلك ووضع لها، بعد أن روت له قصة أجدادها، الملزومة الشهيرة التي تثني على يونس وتشيد بملحمته. كانوا يقولون إن هذه المرأة هي التي دبّرت للشاعر مصرعه. خافت من أن يفتضح أمرها، فالخال في أسفل العنق كانت ممّا خصّت به وحدها والعجوز التي رافقتها إليه أصبحت تمعن في ابتزازها، والإفراط في الاحتراس الذي ضربته على تنقلاتها الليلية بدأ يبعث على الاستغراب ويحرّك الفضول. يزعم رواة هذا الخبر أنها خنقته بتكّة سرواله وطمرته في جرّة من جرارنا العملاقة التي نحفظ فيها الزيت بعد أن قصّتها نصفين وأحكمت لصقهما، ثم شهرت الملزومة في أجدادها دون أن يفطن أحد إلى أنها هي التي تولّت سَهَرًا متكتما على انتشارها. سئل المؤرخ الحزين عن هذه القصة مرات فكان يكتفي بالابتسام أو يلوّح برأسه استخفافا. ألحّ عليه بعض الحمقى من الثقلاء في معرفة رأيه في هذه الواقعة فقال: " أما الشخصيات فحقيقية وأما الوقائع فعليها غبار كثير. نسبتم إلى ذلك الشاعر الملعون، مثلما

48- ورد ذكرهما في "روائح المدينة".

نسب سواكم إلى كبار المبدعين والشعراء، نهاية فاجعة. غير أنكم خالفتموهم في الطريقة فأتيتم بها على مقدار عقولكم. ما أراكم إلا في كذب كاذب".

لم تعلق من تلك القصيدة بأذهان الناس سوى نتف من الأبيات لم يجدوا إلى ضم بعضها إلى بعض سبيلا فكان المغنون والمغنيات يستهلون بها، منجّمة، حفلاتهم. كانوا ، عندما سمعوها من صاحبها، كالمسحورين فلم يثبتوها في ذاكراتهم. حاول بعض الفصحاء أن ينسجوا منها ملزومة فكانت باردة مفككة رثة ركيكة الألفاظ باهتة المعاني سطحية الإيحاء.

ازدهرت سوق الشعر بمدينتنا بضعة أعوام حتى قالته النساء وقرضه الصبيان وانصرف إليه التجار والحرفيون والفلاحون تاركين أعمالهم للتفرغ إلى صوغ الملزومات الغزلية والتغني بها، لكن القرائح لم تجُد إلا بكلام سوقي أكثره بذاءة وقحة[49]. اغتنم أجوارنا الذين

49- تجاذبنا مرّة أطراف الحديث في حظ أهل مدينتنا من الشعر والشعراء وكان ذلك بمحضر كثير من الشباب على مرأى ومسمع من المؤرخ الحزين. قال واحد من طلاب الجامعة: " ما بال أهل هذه المدينة لا يبرعون في نظم الكلام رغم ادعائهم أن لسانهم لا أحلى منه ولا أطيب ولا أفصح؟ أما يدهشكم مثلما يدهشني أن الفِرَق التي كانت تجوبُ، آخر عهد دولة الحماية والاستعمار، الحارات والأزقة تجمعُ العطايا لحزب الدستور لم تتغنّ بأكثر من " هاي هاي هاي نحبّ عالدستور" أو " صبّوا علينا المال نبغي الاستقلال" وما إلى هذا من سخيف الكلام. أمّا بعد الاستقلال فقد خرست الألسنة إلا من " سعدنا بيك سعدنا بيك الله لا ينحيك علينا". قال آخر: " ألا ترون أن هذه الجمل القصيرة، وهي على قدر عقول الناس، أيسر على الحفظ وأسير على الألسنة من الطويلة الثقيلة". أنصت المؤرخ إلى هذا الكلام متظاهرا بأنه لا يهتم به وعندما اتجه إليه واحد من الشبان بقوله: " أما أفدتنا بشيء أم أن كلامنا لا يساوي عندك لفتة". ابتسم المؤرخ وقال: "الشعر وثنيّ. ثم إنه قد جاءكم به الأعراب من البوادي. دليلي

يكرهوننا الهوسَ الذي تمكن منّا بالشعر، كان ذلك عندما رماهم بعض المتشاعرين منا بأبيات فاحشة سيّرها ما فيها من سخف، فجعلوا يضحكون ويقولون:" ثمة في الدنيا عاقل ينصرف عن ترتيل القرآن إلى التغني بالشعر؟ أصبحنا نخاف على أنفسنا من غضبة من الله، جلّ وعلا، تصيبنا بزلزال أو وباء أو جائحة من الجوائح يلحقنا طشّها".
لكن أهل مدينتنا ألقموهم حجرا عندما أجابوهم بأن الشعر" لو كان حراما أو مكروها ما استمع إليه أفضل الأنام، وهو من هو في علوّ المقام، أو أثاب عليه"، وأوعزوا لصبيانهم أن يشرعوا، كلما شاهدوا غريبا في رَحْبَة السوق، في الترنم بما يتيسّر من ملزومة "يونس" غالمة.

لكن الشعر سرعان ما أصبح لا يستجلب للمقاهي زبائن، فالذي كان يقوله الشعراء ظاهر الفساد والبرودة والغثاثة كثير الفحش

أنكم تنطقون القاف قافا بينما هي فيه تنطق كالجيم القاهرية. حتى اليهود ينطقونها، في جوقاتهم، جيما قاهرية مثلما تنطق في البوادي. دليلي الآخر أن لفظة " أنا" تصبح فيه "نا" أو " ناي". ولما كان الشعر وثنيا وأعرابيا تعلق بالأشباح فهو يرتل محاسنها. أما أنتم فلا أدري أتتعلقون الأشباح أم الأرواح. الذي أدريه أن نفوسكم جلفة. هذا أولا. ثم إني رأيتكم تعتقدون أن أهل المدينة كانوا يأتون المقاهي للتمتع بسماع الأشعار؟ لشدّ ما تخطئون. كانوا لا يرغبون إلا في أن يشاهد بعضهم بعضا في مألوف من العيش جديد يبطنون له شوقا ومنه خشية ويظهرون النقمة عليه. بلغني أن امرأة سألت زوجها عمّا سمع في سهرته بالمقهى فقال لها:" رأيت فلانا وفلانا وفلانا. رأيتهم ورأوني ولم نتبادل كلاما". قالت له:" سألتك عمّا سمعت لا عمّن رأيت". قال:" شغلني ما يُرى عمّا يُسمع". ثم كشر لنا عن أنيابه وقال:" أي الأشياء له في لغتكم أكثر من عشرين اسما؟". قلنا:" الله". أطلق لنا قرويا يخطئنا به وقال:" سألتكم عن شيء ولم أسأل عن الله. أتعدّون الله شيئا؟" ظللنا ننظر إليه فرسم في الهواء بإصبعه شيئا استفظعناه فقال:" أما توقعون باسمه كلامكم مهما كان الموضوع الذي تتحدثون فيه دون أن ينزّ لكم عرق من حياء". جعلنا نلعنه وهو يضحك وعندما شتمناه سارع بالانصراف.

والوقاحة، والذي استخرجه الذين تعلموا بالكتاتيب والجامع الأعظم بالحاضرة من الكتب القديمة لم يتفاعل معه، لصعوبة لغته، الناس. فكّر أصحاب المقاهي وفكروا حتى اهتدوا إلى تحويل محافل إنشاد الأشعار إلى قراءات للنصوص في دفاتر كبيرة كـ" الجازية الهلالية" و" سيف بن ذي يزن" و" ألف ليلة وليلة" وغيرها ممّا كان المراهقون يجتمعون على قراءتها في الحارات، غير أن هذه القراءات سرعان ما ملها الناس فعادت مقاهينا تنكفئ على نفسها فضاء للثرثرة ولعب النرد والورق وكثير من التهارش والتنابز والبهتان[50].

دخل من هذه الواقعة البسيطة على أدوار مقاهينا في حياتنا اليومية تحوّل بدأ يصبح عميقا لم يفطن له الناس إلا لاحقا[51]. فبعد أن كانت، منذ انتصبت منكفئة على نفسها ممتهنة في الناحية التي أقصيت فيها، أماكنَ تظلّ، مع مقدم الليل خاصة، شبه فارغة يتجنبها الناس لسوء سمعتها في الدين والدنيا، أصبح عدد وافر من أهل المدينة يقصدونها،

50- في هامش الصفحة ما يلي:" قلت للمؤرخ: تزعم أن أهل المدينة كانوا لا يقصدون المقاهي لسماع الملزومات وإنما ليشاهد بعضهم بعضا في إلف ما كانوا يتظاهرون بالنفور منه. ألا ترى كلامك هذا يتناقض مع انصرافهم عن قراءة الخرافات والسِّير واستمرارهم في ارتياد المقاهي. قال:" كانت الألفة قد تمكنت منهم فدخل بقاؤهم بتلك المحلاّت إلى ما بعد العشاء في التعوّد. المرء ما اعتاد عليه. وعادات أهل هذه المدينة تصيّد ما يتعيّب به بعضهم بعضا".

51 - بين سطرين من هذه الصفحة ثم في قفاها "يزعم المؤرخ الحزين أن المحافل الشعرية لا ضلع لها، لا من قريب ولا من بعيد، في هدم الأسوار التي كانت تعزل الحارات بعضها عن بعض لتكتسب مدينتنا صفة التجانس في الاختلاف والتباين. كان دائما يقول: ما آذن لسكان هذه المدينة بالخروج من جحورهم سوى التحوّلات البطيئة التي شرعت في تفتيت الجماعات تمهيدا لبروز مفهوم جديد للفرد لم تتهيأ له أسباب الظهور. كان وجود الأفراد في مجتمعنا، إلى آخر عهد البايات وبدايات عهد دولة

بعد العشاء، فيجلسون فيها إلى حوالي الساعة العاشرة. كان معظمهم، قبل الاحتفال بالشعر وأهله، يبقى، بعد تناول العشاء متى لم يقصد دكان الحارة دون أن يطيل فيه المكوث، ببيته متكئا على حصير يطبخ الشاي ويترشفه إلى أن يداعب رأسه النعاس، فأصبحوا يتجهون، ما

الحماية والاستعمار، يقتصر على منزلة الفرد من القطيع. مجرد أرقام. أما كان شيوخ الحارات يعدّون الرؤوس لدفع الجباية؟ أما كانت كل حارة وكل مدينة وكل جهة تلحقها تبعات ما يأتيه أفرادها من فعل وقول؟ إذا اعتدى واحد من الشملان على واحد من الغربية أو العرنوس ألا يثأر له أهل الغربية أو العرنوس بالاعتداء على واحد، أيّ واحد، من الشملان؟ وإذا رغبت أسرة في أن تنقل إقامتها من حارة إلى أخرى أما كانت تبدأ بالاستئذان في ذلك من سكان الحارة التي ترغب في الانتقال إليها؟ والسوق الأسبوعية أو اليومية أما كانتا فضاءات مشتركة لا يقصدها المرء إلا إلى حاجة متأكدة حتى إذا فرغ منها قفل مسرعا إلى حارته؟ أما في تاريخ البلاد وقائع كثيرة عن عرائس تزوجن خارج حاراتهن فتم منعهن ليلة العرس من الانتقال إلى أزواجهن؟ ألم تشاهدوا إلى أيامنا القريبة هذه أهل العريس يتحوّلون إلى دار العروس لأخذها مسلحين؟ وأهل العروس أما رأيتموهم يرافقون عروسهم إلى بيت عريسها مسلحين أيضا؟ أهذه ألعاب صبيانية أم عادات نسيت أصولها وغابت الدواعي التي كانت تحمل عليها؟ أما التحولات فبدأت مع الانبهار بالتمدن الغربي وتسربت إلينا شيئا فشيئا. بدأت بإلغاء الرق أو تحرير العبيد. ثم جاء دستور " عهد الأمان" الذي بقي حبرا على ورق. ثم وردت علينا القوانين ومعظمها لم يكن يطبق. وعندما نشأت المقاهي من بداية عهد دولة الحماية والاستعمار أما كانت تظل فارغة لا يتردد عليها إلا من لم يظفر بعمل يومي من الواقفين بالرحبة؟ بدأت بلادنا تخرج من تحكم الأموات في عيش الأحياء وظلت في " البين بين" فلا هي قديمة ولا هي حديثة. الفرد مفهوم خلقه رأس المال وصنعه العصر الحديث. خبروني عن رؤوس الأموال أين هي؟ وحداثة العصر الحديث قولوا لي هل شاهدها منكم أحد؟ وأنتم أأرقام في القطعان أم أفراد؟ فكيف تزعمون ما تزعمون ومفاهيم مثل الفرد والمواطن والشعب والحرية والمسؤولية لا يدري أيّ منكم ما هي؟ ومع هذا تعتقدون أن المحافل الشعرية هي التي خرجت بكم من جحوركم إلى المدينة فضاء للحياة المدنية؟" كان إذا أبحر في هذه المعاني كأنما يسكنه شيطان.

أن يفرغوا من آخر لقمة، نحو الباب متجهين إلى المقاهي. لم تغضب من ذلك النساء يل شجعن عليه لما يوفّره من أخبار للمدينة تملأ وسط الليل بالأحاديث المسلية. أصبحت أخبار الحارات، بعد أن كان بعضها معزولا عن بعض، تصبّ في المقاهي. لم يعد وجود الشبان والصبية في تلك المحلات يستثير الغيورين على أخلاقنا. نسوا تماما ما كانوا قد تعوّدوا عليه وتمسكوا به، بضعة قرون، من أنهم إذا صادفوا عريسا لم ينقض على زواجه حولٌ خارج داره بعد الغروب أمسكوا به وأوقفوه على أربع وجاؤوه ببردعة فجعلوها على ظهره فركبوها وأجبروه على أن يزحف بهم أو يحبوَ بضعة أمتار. نسوا أيضا عادات أخرى كثيرة كانوا يصرفون بها رجالهم عن ارتياد المقاهي والمكوث فيها ليلا. كانت معظم هذه العادات تجعل من المنازل فضاءات مثلى لترسيخ الروائح في الذوات. ثم إن دورنا، في ما يعتقد الناس جميعا، أماكن آمنة مألوفة لا تنتشر الشرور الغريبة والعجيبة إلا خارجها. لذلك كان رجالنا لا يخرجون، في بداية الليل خاصة، إلا مسلحين. أما بعد أن استروحوا نسائم الاتكال على الغير في الذود عنهم فإن عالم الليل المناوئ نفسه بدأ يخفض لهم، شيئا فشيئا، جناح الذل. قيل إن الشياطين نفسها أصبحت فيه مسالمة حتى أن عزرائيل نفسه، وكان يقبض الأرواح، أكثر ما يقبضها، في الليل، قد تخلى عمّا كان قد عوّد الناس عليه. بدأت الحواجز بين الحارات تُرفعُ شيئا فشيئا لتشمل الجميع رائحة مشتقة من أرواح متنوّعة كانت تتضوّع في مدينتنا. لكن الروائح الغربية بدأت ترمينا برخيّ النسائم ومغبرّ العواصف والأعاصير هاجمة علينا بكثير من النتن والخبث وقليل جدا من الأريج الفوّاح.

فعندما أولجت دولة الاستعمار والحماية فينا خازوقها واطمأنت

إلى رسوخه عميقا بدأ الناس يفيقون على أن الفأس قد اندقّت في الرأس. هذا ما كان يقوله ويكرّره المؤرخ الحزين وغير المؤرخ الحزين ممن يناصره ويعاديه. كان كلما شرع في الحديث عن التحوّلات التي أصابت مدينتنا يأخذه الحماس فلا يدعه إلا وهو يهتزّ على كرسيّه ملوّحا بجسمه ويديه ورأسه في معظم الاتجاهات. أحيانا يفطن إلى أن الجالسين إلى طاولته قد انفضّوا عنه فيشعل سيجارة ويقول مخاطبا نفسه بصوت مرتفع: " جلوسكم بين المقعدين غير مريح. تزحزحوا قليلا إلى اليمين أو إلى اليسار واحسموها مرّة واحدة".

شرع صاحب مقهى الأقواس (أو البرطال) في استصلاحه فاقتلع الدكانات التي كانت به وبلط الأرضية بجليز رخيص وجلب له طاولات من خشب وكراسي من النوع الإفرنجي وجهزه بآلات تصفّي القهوة وأخرى تعصر البُنّ عصرا فاقتدى به آخرون. أصبحت القهوة، تبعا للتدرّج في الزمن، أنواعا لا تحصى فمنها "القهوة العربي"، وهذه لم يحتفظ بها (عدا الدكاكين الصغيرة التي لم يعد يقبل عليها المارة) سوى المحباك الابن وولده من بعده حتى أصبحت تعدّ من اختصاصه، ومنها "القهوة" وهي المصفاة لا يشوبها شيء، ومنها "القهوة شْطَار" نصفُها حليب ونصفها قهوة مصفّاة، ومنها "الحليب الملطّخ بدمعة من القهوة" والقهوة "الملطّخة بدمعة من الحليب"، ومنها القهوة "بمغرفة[52] واحدة" وهي المصفّاة تضاف إليها ملعقة صغيرة من الحليب الخاثر، و "بمغرفتين"، ومنها القهوة "بعَصْرة واحدة" صافية أو مخلوطة بالحليب على مقادير مختلفة، والقهوة "بعصْرَتين أو أكثر" ولكل منها اسم خاص يصدح به النادل عند استقبال الطلبات. ومثلما

52- هي الملعقة الصغيرة وتطلق أيضا على الكبيرة، والسياق هو الذي يتكفل بتبيين المقصود.

أصبحت القهوة أنواعا لا تحصى أصبح الشاي أنواعا لا تعدّ تحمل تسميات كثيرة حسب نوع المزج ومقاديره حتى إن المرء إذا جلس في مقهى من هذه المقاهي وطلب "قهوة" دون تسميتها لم يفهم النادل عنه شيئا فيظل ينظر إليه إلى أن يضجر ويصيح به " كيف تريدها، انطق. ضيّعت علينا نهارنا" . أحيانا يضع النادل أمام أحد الحرفاء القهوة التي طلب فإذا به يشرع في الصراخ قائلا:" طلبتها بعصرة واحدة فجئتني بها من ذوات العصرتين. هل رأيتني مرة واحدة أشرب هذا النوع؟ أما دخل في مخك بعد أني لا أشربها إلا بعصرة واحدة؟" كثيرا ما كان النادل يأخذ القهوة التي كان قد أتى بها حتى إذا دخل إلى حيث تصنع أراق نصفها ورجع بها إلى ذلك الحريف فيشرع في ترشفها مزهوّا مسرورا.

سُئِل المؤرِخُ الحزين، وكان من رواد مقهى النخلة وإن كان كثيرا ما يُشاهد في المقاهي الأخرى، عن القهوة ما بال أهل مدينتنا يشتقّون منها هذه الأنواع ويضعون لها هذه الأسماء الكثيرة المربكة، فقال:" تعدد أسمائها جاءهم من تعدد أسماء القهوة الأخرى، غير أنهم يزيدون عليها رغبة في التميّز و...في مغالطة مَلَكَي الحسنات والسيئات. أمّا شهوة التميّز في أبناء هذه المدينة فتعرفونها. وأما مغالطة مَلَكي الحسنات والسيئات[53] فأكثرهم يبيّت إنكارا وجحدا يدّخرهما للإفلات

53- في الحاشية :" لا يكف أهل مدينتنا عن معابثة بعضهم لبعض، على سبيل التلميح دون التصريح، بالنادرة التي حصلت يوم جمعة بالجامع القديم. كان الإمام، وكان رجلا صالحا فكها ومحبوبا، يدعو المصلين إلى الكف عن تسمية أصحاب العاهات الخلقية بها فوقف له أحد المصلين وقال:" غاب عنك، يا شيخ الشيوخ، الأهم. نتسمّى بأكثر من اسم حتى لا يعرف الملكان على من يسجلان السيئات. فإذا جوبه الواحد منا يوم الحساب والعقاب بالسيّئات المسجلة عليه أنكرها أو نسبها إلى الاسم الآخر" . سكت،

من ويلات يوم الحساب والعقاب. ألا ترون أن لكل واحد وواحدة منا اسمين على الأقل. هذه أولا. ثم، واجعلوا ما سأقوله ثانيا وثالثا ورابعا إن شئتم. ما كاد ينوء أهل هذه المدينة بالشرّ الذي هبطت به عليهم دولة الاستعمار والحماية ويشعرون بأنه أهون من شرّ البايات لينقلبوا فرحين يحمدون الله على ألطافه بهم عندما جعل بعض الشر أهون من بعض وجعله من الأباعد أقل أذى من ذوي القربى، حتى تزعزعت فيهم حاسة الشمّ فوجدوا أنفسهم مجبرين، موافقة للراكبين على ظهورهم، على أن يوقدوا حاسّة الذوق. وكانت هذه نامية جدا لدى دولة الاستعمار والحماية. ألم تأتنا عندما سال لعابها علينا؟ وعندما أطبقت فكّيها على رقابنا أما ظلت أنيابها ناشبة في لحمنا لا تتركه؟ تأملوا بعض الأسماء تجدوها أعجمية يلتوي بها اللسان كمن يلوك لحم حمار".

أصبحت لمقاهينا الستة، طيلة عهد دولة الاستعمار والحماية و في بدايات عهد دولة الاستقلال والسيادة، أدوار كثيرة في حياة مدينتنا. ففي الصباح الباكر كانت تغصّ بالمتجهين إلى حرفهم وأشغالهم، رجال من أعمار شتى يحملون قفافا من سعف أو حلفاء أو أسل بها أدوات العمل. يقتحمون المقاهي يتعتعهم النعاس فإذا ما ذاقوا رشفة من قهواتهم وتخاصموا مع النادل على السكّر، يريدونه كثيرا ويشحّ به هو صائحا شاتما الدنيا والآخرة والآباء والأجداد:"هي قهوة بسكر

يومها، الإمام مفكرا حتى إذا فهم المقصود استغرقه ضحك فضج، وراءه المصلون، بضحك أشد انزعجت منه الحمائم المعششة في السقوف وطاقات التهوئة فطارت مصفقة بأجنحتها. عندما هدأت الجلبة قال الإمام: " أتحسب الله، تنزهت صفاته عن أي تشبيه، هيدوق الخليفة أو صبّاب الفرنسيين حتى تعدّيها عليه؟ أسأله، عز وعلا، أن يغفر لك هذا الكلام الغريب ولنا أننا سمعناه منك". تلقف أجوارنا النادرة فكانوا ينبزوننا بها مرددين: " ما أقبح ما يأتون وينوون! حتى الخالق الذي سوّاهم يبيّتون مغالطته".

وليست سكرا بقهوة"، وعبّوها عبًّا، نشطوا ودبت فيهم الحياة. عندها، وعندها فقط يشرعون في رمي الجميع بتحيات الصباح موردين من الكلام الفاحش القبيح ألوانا لا ينزعج منها أحد.

تعجّ مقاهينا في الصباح الباكر أيضا بالمسافرين وقد حمل كل منهم معه كوبه، فيتخاصمون أيضا مع النادل إذ هم يريدون الأكواب طافحة بينما يظل هو يشكو من اتساعها مهددا بقوله : " في المرة القادمة آخذ ثمن قهوتين، هذه قصاع وليست كؤوسا. العَرْف[54] يخصمها من أجرتي" . يتبادل المارون بالمقاهي في هذه الفترة كلاما مقتضبا يرفع من المعنويات ويستبعد الشرور فليس خارج مدينتنا سوى الأذى والمخاطر والموبقات.

تهدأ الحركة قليلا فيتنفس النُّدُلُ الصعداءَ لاعنين هذه المهنة ومن تسبّب فيها ثم تدبّ من جديد في المقاهي من الموظفين وأصحاب المتاجر والشبان الطائشين من تلاميذ المدارس، كلّ يترشف قهوته على مهل ويضرب في أخماسه آلاف الحسابات الخاسرة.

ترد في آخر الصباح الجرائد من العاصمة والمدن المجاورة فتودع حزما حزما في المقاهي ويقبل على شرائها عدد من الناس أصبح في تصاعد مستمرّ فبأهل مدينتنا شغف كبير بالتعرف على ما يجري في العالم. يعتبرون أحداثه القريبة والبعيدة قصة متينة الحبكة لم تعرف بعد خاتمتها وإن كانوا دائما يجزمون بأنها تافهة نتنة سخيفة سخف هذا الزمان الذي ساد فيه أولاد القحاب من القاوريين والمتشبهين بهم. يحاول بعض الشبان خاصة النظر في الصفحات المخصصة للرياضة

54- ربّ العمل وهو في الغالب صاحب المقهى.

وحوادث المجتمع فيشرع القائمون عليها في زجرهم مطالبين بثمنها ثم يلينون لهم فيسمحون لهم بنظرات خاطفة جانحين إلى التجاهل.

عند الضحى تخلو المقاهي أو تكاد إلا من العاطلين والكسالى وأبناء المترفين والذوات. ترى الواحد منهم يتأمّل كأسه، وكانت الكؤوس قد أصبحت من زجاج معوّضة الفناجيل الفخارية، ويحلم أو يقلّب النظر في الجرائد ويعلّق على ما فيها ساخرا من كل شيء هازئا مستهينا به. تغصّ المقاهي بالناس بعيد الزوال ساعة من الزمن يكثر فيها شاربو الشاي، حتى أن الذي يرغب في قهوة لا يجدها. تهدأ الحركة من جديد لتشرع في الدبيب بعد العصر إلى الغروب. تصبح جميع الطاولات وجميع الكراسي مشغولة بلاعبي الورق والحجارة والمتحدثين في الأخبار العامة جدّا يستحثون الزمان بجرش الفول المشوي والحمّص المحمّى ونوى القرع وعباد الشمس والكاكاوية المملحة، فتنتشر قشورها على الأرضيات ويشرع النادل في التذمّر والنّواح والشتم. تكون مقاهينا قد امتلأت أيضا بالأغراب والمخبرين. في تلك الفترة أيضا وإلى ما بعد الغروب بقليل تفوح روائح الشاي فقاصدو المقاهي يتناولونه باللوز مهشّما أو سليما، فله، في اعتقاد أهل مدينتنا، طعم خاص ومزايا كثيرة لا يبوحون بها. مع العاشرة ليلا، وهو الوقت الذي تشرع فيه المقاهي في الاستعداد لإغلاق أبوابها، يشرع السكارى في التقاطر عليها، فليس أفتك بالخمار من قهوة صافية دون سكّر يبتلعونها على دفعات متقاربة فتتّقد فيهم الأذهان من جديد ويتذكرون نبزيات وعكسيات وإشارات وتلميحات وإيحاءات فتنشب بينهم بعض المشادات وترتفع الأصوات والأيدي وتلمع المدى لكنها قلما كانت تتطور إلى عنف عنيف. فهي من الطقوس التي تستعرض للمشهد ليس إلا. كان الشداة المبتدئون في

الإقبال على شرب الخمرة والفقراء والمنبوذون يحرصون، إذا تيسّر لهم الاشتراك في بعض القناني والغلمان والبغايا ممن كانوا يستجلبون من القرى المجاورة أو قصدوا الماخور فتشبعوا بروائحه فرسانا ومتفرجين، على التعريج على مقهى من مقاهينا قبل أن تغلق أبوابها بقليل لا لتناول القهوة وإنما ليُشهدوا الناس على أنهم قد التحقوا بصفوف الرجال أو أن لهم على "الفساد" ما ينفقون فلا بدّ للمرء، في مدينتي، قبل الاستقامة والصلاح أن يجرّب الفساد متمرّغا فيه. كانوا يحدثون كثيرا من الهرج، غير أن رجالنا المحنّكين، وقلّ منهم من لم يمرّ بهذه المرحلة، كثيرا ما كانوا يبتسمون لهم، فيفهم كل عن كل معنى الابتسام.

كان يتردد على مقاهينا، في الصباحات خاصة، رجال من بلدان وأقوام شتى وفدوا على مدينتنا مكرهين[55] أو استقروا بها طلبا للسلامة والرزق. كانوا يلبسون الثياب الإفرنجية ويضعون على رؤوسهم قبعات متنوعة الأشكال والألوان ويجلسون إلى طاولات حديدية مدوّرة ليحتسوا، على مهل، قهواتهم بعد أن يضيف بعضهم إليها دمعات معدودات من قناني صغيرة جدا يسحبونها من جيوبهم. كانوا يأتون المقاهي ليلتقي بعضهم ببعض فيتبادلون بلسانهم أحاديث مقتضبة ينهونها بالافتراق على عجل. أما في الظهيرات والأماسي فلا يظهر منهم بمقاهينا أحد. كانوا يلتقون في حانة " الكَرّي". تأذّى رجالنا من الروائح التي كانت تنبعث منهم نتنة ممزوجة بأنواع من

55- حلت بمدينتنا، بين الحربين خاصة، إلى جانب اليهود الذين تقاطروا عليها نازلين لدى ذويهم بحارتهم، طائفة من الأوربيين من إيطاليا وإسبانيا كانت للبعض منهم خلطة بالمؤرخ الحزين. كان يقول:" فيهم علماء أفاضل انتفضوا على دولهم فقامت بنفيهم أو هربوا منها ناجين بجلودهم". لم يستقر طويلا بيننا منهم إلا بضعة أنفار لم يكن لهم شأن يذكر.

العطور القوية الصّاكة، لكنهم لم يحركوا، عندما شاهدوهم لا يأبهون لشؤوننا، نحوهم ساكن العداء. كانوا ينزعجون فقط من اقتداء بعض الشبان من عديمي الروائح بهم في الملابس التي يرتدون ولكنهم سرعان ما يلعنون الشيطان ويقولون:" أرض الله واسعة واختيارهم النزول بمدينتنا دليل قاطع على أنها مدينة من المدن لا مجرّدَ قرية مثلما يفتري أجوارنا الوسخون. إنما نخشى على روائحنا المتأصلة فينا من الروائح التي تنبعث منهم إذا ما كثروا وثقلوا علينا".

بدأت هذه الروائح الجديدة في التضوّع بمدينتنا منطلقة من مقاهيها عندما ثقلت قدم دولة الاستعمار فوق أعناقنا. لم يكن الناس، وإن كان بعضهم قد بدأ يداخلهم شيء من التوجّس من استفحال الإقبال على المقاهي، قد فطنوا لما بدأ يدخل عليهم من تحوّل، فالخيوط الحقيقية ما زالت، وقتها، تعقد وتحل في الحارات، بعد التفاوض مع شيوخها، بتلك الدكاكين التي كان رجالنا يقصدونها أوّل كل ليل فلا يبقون فيها إلا مقدار ما يستغرقه طبخ الشاي على الفحم طبختين يسميهما أهل مدينتي " رأسين". ومما جعل اعتقادَ الناس بمدينتنا في صمود الدكاكين أمام الخطر الذي بدأت تنذرُ به المقاهي ينامُ هانئا على حاشية التوهّم إقدامُ يهودية نصَفٍ على فتح دكان، جعلته لبيع التبغ والشاي وحبوب القهوة والمكسرات وبضاعة أخرى خفيفة، بمدخل حارة اليهود غير بعيد عن ساحة الجامع القديم. استغرب رجالنا أن تفتح هذه المرأة دكانا للتجارة واستهجنوا أن تبقى فيه معظم اليوم منصرفة عن شؤون البيت. قيل إن رجالا منا قد انزعجوا من إشراف ذلك المحل على ساحة الجامع القديم فالمرأة، يهودية كانت أو نصرانية، امرأة تتضوّع منها، قبل كل شيء، روائح الفتنة والإغواء، فقصدوا الشيخ يوسف اليهودي وفاتحوه في

خوفهم من الشيطان الذي يتربّص بذكورنا متخفيا في ملاحة الإناث. قيل إن الشيخ يوسف قال لهم بعد كلام طويل في أن المدنَ العظيمة هي التي ينتشر فيها زحف النساء على سائر المهن والتجارات:" لا خوف عليكم لا منها ولا من الشيطان، فهي عاقر. وحكم العاقر في ديانتنا الهجران" . لم يفهم الذين خاطبوا الشيخ يوسف من كلامه سوى أن الشيطان نفسه يخشى على نفسه منها فصاروا، نكاية فيه، يحرصون، أحيانا، على قطع المسافات لاقتناء حاجاتهم من دكانها. كانوا يسمّون دكان تلك اليهودية"حانوت المدَامَّه"[56] ويكثرون من ذكره كلما شرعوا في استعراض شؤونهم اليومية. لم ينزعج أصحاب الدكاكين الأخرى من هذا الدكان فهو لا يزاحمهم من خاص تجاراتهم إلا في القليل فضلا عن أنه يدعمهم في الوقوف في وجه المقاهي وإن كانت "المدامّه" لم تشاهد يوما وهي توقد كانونا أو تطبخ قهوة أو حتى مجرّد بيضة. كان يجلس على بنكين صغيرين بدكانها بعض اليهود وبعض المسلمين لرواية النوادر والغرابات فتتعالى الضحكات مفرقعة متجاوبة في الطريق. استنكر بعض الناس أن تجلجل ضحكات امرأة في شوارعنا ثم ألفوا ذلك وارتاحوا إليه.

لكن الروائح الجديدة توافقت، ما أن انطلقت، مع اشتداد ولع الناس بروائح المشهد[57]. هذا ما كان يزعمه المؤرخ الحزين، فهو دائما

56- السيدة بالفرنسية، وأهل مدينتنا ينطقونها بتشديد الميم والضغط عليها.

57- في هامش الصفحة، يزعم المؤرخ أن " المشهد" ظاهرة جديدة وما أراها إلا قديمة راسخة في القدم، فالمرء ما يُرى منه سواء أكان حقيقة أم افتعالا. خاطبته في ذلك مرة فجعل يضللني بمفاهيم للمشهد غريبة كان يزعم أنها من مبتدعات هذا الزمان ويربطها بنشأة الذات الفردية وتفتت الجماعات والبرجوازية المترنحة وجميعها تنتمي إلى درجات في التحوّل الاجتماعي لم ندركها بعد وإن كانت قد شرعت في التسرّب إلى حياة الناس

يقول للجالسين إلى طاولته بمقهى النخلة: "يحب أهل مدينتنا الظهور والبروز حب قيس لبجيلة. (صححوا له الاسم مرات بأنها ليلى لا بجيلة فكان يقول: " لديّ في هذا شك. ما هي إلا أوهام تنشرون عليها محموم المواجد. عجبي منكم لا ينقضي، لم تنتجوا طوال التاريخ، رغم ما تدّعون من أنكم تذيبون الفولاذ في أيديكم ويذيبكم طرف كحيل ساحر في وجه مليح، شهيدا واحدا من شهداء الحب والصبابة تتمثلون به). إذا اجتمعوا وكان كلّ يشاهد كلا، كانوا أسودا ضارية. كل واحد منهم يريد أن يَرَى الآخرون ما يقدر عليه. أما إذا كانوا فرادى وليس ثمة من يشاهدهم ويحدّث عنهم فإنهم خرفان ضالّة. كلّ يحمل في ذهنه مثالا، قدر عليه أم لم يقدر، يظل العمر مجاهدا في إقناع الآخرين به". يستشهد لهم، على ذلك دائما، بحكاية جاره خليفة الفرطاس. كان هذا الشاب معدَما أو في حكم المعدمين، "يعمل بالحزام" وكان أطيب الخلق. اتفق له مرة أن سكر في إحدى الجنائن. ومع الغروب اتجه مترنّحا شامخا يجرجر لحفته إلى حيث تقبع مقاهينا. شاهده المؤرخ من بعيد فأدرك أنه قد بالغ في الشرب حتى لم يعد بقدر على التماسك وفهم مراده وخاف عليه من أن يعبث به بعض متصيّدي الفرص السانحة فأوعز لبعض الشبان أن يأخذوه، طوعا أو كرها، إلى منزله. تكاثروا عليه وساقوه إلى بيته سوقا. وعندما غُلِبَ على أمره جعل يضرب على رأسه صائحا: "آه... يا لِيعْتِي[58] ... يسكر خْلِيفه وما

اليومية. لم أقتنع. لدي في هذا أدلة قاطعة لا تتوافق مع مزاعم المؤرخ الحزين. راجعته في ذلك مرة فقال: " أما المشهد فمنه ما هو قديم وأما مفهوم الحياة الفردية فجديد. المشهد اليوم يا صاحبي ضد للحياة مانع لها. فإما أن تعيش وإما أن تتفرّج".

58- هكذا ينطقونها.

يراه حَدْ ". سكت قليلا ثم قال: " كان ذلك بعدما أرخت دولة البايات سروالها لدولة الحماية والاستعمار بكثير من العقود فلم تعد جادة في تعقب السكارى إلا من باب التظاهر والرياء وغضت الطرف عن بيع الخمر سرّا لا يجهله أحدٌ واكتفى أئمة الجامع القديم، عندما فتح حان "كارّي" أبوابه، بلعنها ولعن شاربيها وجلاسهم".

كثر قاصدو المقاهي من مدينتنا طيلة عهد دولة الاستعمار والحماية حتى أصبح لكلّ منها جمهور من الرواد خاص به. لم يعد هذا الجمهور يقتصر على الانتماء إلى الحارات. فمقهى البرطال، وهو الأشهر بهندسته الإيطالية، كان يتردد عليه شبان المدارس من أبناء الأعيان وأشباههم والموظفون وصغار التجار وأبناء اليهود والجاليات الأجنبية التي كانت مقيمة بيننا. تضوّعت بهذا المقهى، حتى أصبحت ضبابا، رائحة خليط من نشر متباين الأصول والأعراق. كان المتأصّلون في روائح مدينتنا يتفادون هذا المقهى، فهو، في نظرهم، عديم النكهة فضلا عن أنه قد يعدي. الثرثرة التي يزجي بها رواده أوقاتهم الفارغة تجعل أجسامهم بمدينتنا وأذهانهم بعوالم بعيدة. لذلك فهم يترفّعون، دائما، عن سائر الناس ويضمرون لهم كرها أزرق.

أمّا مقهى العنبة، وكانت هذه الشجرة تظلل جزءً من واجهته، فكان أكثر رواده من العاطلين عن العمل والمشرّدين والعملة الموسميين والعملة اليدويين (يطلق عليهم أهل مدينتنا تسمية" الخدّامة بالحزام والخماسة" رغم أن أحزمتهم كانت حبالا وأن جيوبهم المثقوبة لا يحصل فيها خمس أو عشر فأغلبهم كان يشتغل، متى تيسّر له ذلك، "بكرشه" مقابل قوت يومه لا أكثر). في هذا المقهى يكثر لعب الورق والشجار والهرج وعزف القروي وتحاك خيوط السرقات والاعتداءات وكافة

الموبقات والانحرافات. تضوعت من هذا المقهى روائح الحقد والمقت والضيق بالآخر والنفس. كانت تنطلق منه إلى الأسواق والشوارع، عند هبوب روائح الهيعات، جميعُ الأعمال العنيفة. جمع المؤرخ الحزين روائح هذا المقهى في رائحة واحدة سماها رائحة " شدّني مِنُّه"، فلأهل مدينتنا ولع خاص بهذه العبارة حتى أن الإناث كثيرا ما تنفلت منهن فلا يحدث ذلك إنكارا. كانوا يقصدون بها، أكثر ما يقصدون، معنى التحدّي، لذلك فهم كثيرا ما يقولون لأنفسهم ولسواهم:"القوانين والأعراف تجري على غيرنا. أما نحن فما نخالها وضعت إلا لنعفس عليها. القانون، كالدولة، إن لم تدسه داسك". لسان روّاد هذا المقهى، في الجملة، نتن جيفة ومعظم أوقاتهم يمضونها في التهارش والسباب.

أمّا مقهى المحباك فكان يتردد عليه بعض الشبان وكثير من الشيوخ والكهول للتنعم بمذاق القهوة العربي. وبينما يأتيه بعض الشبان أزواجا وعيونهم تخيّط الآفاق وتتفرّس، خفية، في جميع الوجوه، فلا يمكثون فيه إلا الوقت الذي يستغرقه احتساء قهوة يقدمها لهم المحباك الإبن بنفسه مبالغا في التبرّم ليدسّ في تأففه من الشباب العائق نتفا من الجمل لا معنى في الظاهر لها، يشرعُ الشيوخ والكهول في التحسّر على "أيام زمان" التي كانت روائحنا فيها هي روائحنا نحن فقط. كانوا يضعون فوق الشواشي مناديل بها مربعات صغيرة متعددة الألوان، فمعظمهم كان يشتغل بالحمالة والتهريب على عربات تجرها البغال والحمير ثم استبدلوها بالكميونات الصغيرة والكبيرة والجرارات، ويرشقون مشاميم الفل والياسمين والقرنفل والورد والنعناع فوق آذانهم ويلعبون الورق والحجارة ويدخنون "تونباكا" فاسدا من سقط المتاع كانوا يلفونه بحذق وتؤدة سجائر يذرّحونها، أحيانا، بقليل من

التكروري. ظلت الروائح العتيقة، وهي عند الجميع شبيهة برائحة بول الجمال مخلوطا بخفيف المسك وعرق البغال وزهر الليمون، ملازمة لهذا المقهى تكاد لا تبرحه إلا إلى فعل جلل كان يأتيه أولئك الشبان الذين يبدي المحباك الإبن ضيقا بهم فلا يطيلون المكوث فيه. يعتقد معظم رواد هذا المقهى أنهم يمثلون من البلاد خميرتها الحقيقية الراسخة فيها منذ القدم، فالكون، في نظرهم، ثابت على عمودين من المبادئ أحدهما فاسد والآخر صالح. أما الصالح فهو ما اعتادوا عليه وانتظم في خيط أعرافهم، وأما الفاسد فهو كل غريب أو مختلف عما خبروا. لهذا فهم يحبون التفوّق ويكرهون كل دخيل. فمن اعتقاداتهم مثلا أن أهل هذه المدينة، ليكونوا أهلا للانتساب إليها، مطالبون بالتفوّق في كلّ من الصلاح والفساد: تفوّق الفرد على الفرد والأسرة على الأسرة والحارة على الحارة وبلدتنا على سائر البلدات وبلادنا على جميع البلدان. أما الدخيل والمختلف عمّا كانوا قد ألفوا فهم ينسبونه إلى أجوارنا أولا، وثانيا إلى هؤلاء الأغراب المستبدين بنا ثم إلى اليهود. وهم ينزعجون مما لم يألفوا لأنه يزعزع إيمانهم بأنهم أفضل من الآخرين. لذلك كانوا، إذا شاهدوا المترددين على المقاهي الأخرى يمرون بمقهاهم، يمطون شفاههم ويمسحون على شواربهم وينظر بعضهم إلى بعض نظرات ذات معان كثيرة يلخصها بين الحين والحين واحد منهم بقوله :"هوايش. لا تصلح لا للزينة ولا للأكل". لمعظم ما يتبادلونه من كلام شفرات يفكّونها دون سواهم فيبيعون من يبيعون ويشترونه وهو غير دار. لذا كانت الروائح بهذا المقهى توهم بأصالة فينا لا حقيقة لها[59].

59- في حاشية هذه الصفحة :" عندما نزل الألمان في الحرب الثانية ببلادنا يقودهم الجنرال روميل سبقهم إلى مدينتنا أفراد منهم دعاة. زاروا مقاهينا الستة فلم يطب لهم

مقهى النخلة وحده هو الذي كانت له منزلة خاصة بمدينتنا استمدّها من الساحة الكبيرة التي كان يفتح عليها والنخلة المنتصبة في وسطها في حوض مكسوّ بالخزف الزهري. كانت هذه النخلة من عجائب مدينتنا السبع [60] فالنخل الذي ينبت في أرضنا يكاد لا يصلح

الجلوس إلا بهذا المقهى. كانوا يتكلمون لساننا بلكنات ظاهرة تبعث على الضحك. جعلوا يتقربون من رواد هذا المقهى حتى إذا اطمأنوا لهم قال واحد منهم: " أفضل من في العالم أنتم ونحن. تريدون دليلا، أكتفي بواحد لا أكثر. لغتكم مذهلة لا نظير لها في لغات العالم. فأنتم عندما تريدون إلقاء تحية الصباح تقولون: " صباح الخير أو سعد صباحك أو طاب يومك أو السلام عليكم أو نهارك فل أو نهارك عسل وسكر وغير هذا كثير، أما سواكم فليس في لسانهم سوى عبارة واحدة هي صباح الخير. فأي إعجاز في هذا الثراء! لن ينقذ العالم ممّا أصابه من جنون إلا التحام العرب والألمان" (نطق الحاء بين الخاء والهاء). ابتسم رواد هذا المقهى لهذا الداعية وقالوا له: " ننظر في الأمر. لن يكون إلا خيرا" ثم التفت بعضهم إلى بعض وقالوا: " المشكل ليس في الالتحام بل في من يكون خلف الآخر". ضحك الألماني، وقد فهم الإشارة، ضحكة مفرقعة. ذكرتُ هذه الواقعة للمؤرخ الحزين فكان يعرفها وسألته عن السرّ في اختيار أولئك الدعاة رواد مقهى المحباك دون سواه فقال: " لم يفهم الغربيون بعد أنهم لا يفهمون من حقيقتنا شيئا، أقبلوا علينا بمنطق ديكارت وفاتهم أن ديكنا دائما يطير. أما ترونهم في الهامش دائما يحاولون جرّنا إليه". سكت برهة وقال: " كان جواسيسهم يتسقطون أخبارا عن يهودنا. بدا لهم أنهم لا يعثرون عليها إلا في ذلك المقهى. غاب عنهم أن يهودنا في حمايتنا وأنه لا سبيل البتة إلى تسليمهم لمن يريد بهم شرا. أنسيت أن أهل مدينتنا قد أخفوهم في مساكنهم وجنائنهم؟ بلغني أن واحدا من جواسيس الألمان قال، مرة، في مقهى المحباك: " ما أفسد العالم سوى اليهود. لن يصلح إلا بتخليصه منهم. اليهودي إنسان مثلنا أيها الناس لكنه يعتقد أنه يفضلنا جميعا بيهوديته". نظر الذين كانوا يسمعون كلامه بعضهم إلى بعض وقال واحد منهم :" لو كنا نعرف هذا كنا، عندما كانوا بين ظهرانينا، قبضنا عليهم جميعا وسحلناهم في الشوارع. أما وقد باتوا فما أصبحوا فقد فاتت الفرصة".

60- كان المؤرخ الحزين يروّج أن بمدينتنا عجائب سبع ، وعندما أحصيناها مرات لم

ثمره إلا علفًا للماشية، وكثيرا ما كانت تعافه وتزهد فيه. لذلك كان العارفون به يحْجمُونه مرة كل بضعة أعوام ليستخلصوا منه، في فصل الصيف، عرقًا ينزّ به قلبُه ليلا[61]، يجمعونه في قلال فخارية فيشربونه في الصباح الباكر حلوا يزعمون أن له منافع لا توجد في سواه. أما إذا لفحته الشمس بحرارتها فإن لونه يجنح إلى البنّي ويصبح حامضا شديد الحموضة، تعلوه رغوة بيضاء وتنبعث منه رائحة صهكة، وعندها يجدّ الشبان في طلبه مسكرا يروح بهم في دنى أغرب في العجب من عجائب مدينتنا. قيل، وهذا، وإن كان متواترا، لم تؤكده ثقة، إن رجال العيساوية وسائر الفرق الصوفية كانوا يتناولون منه بعض الأكواب يجعلونها مداخل للعروج إلى دنى الرّبوخ التي يحلّون بها

نحصل سوى على ست. راجعناه في ذلك مرة ومرة فكان يقول:" عاودوا الحساب" ويمتنع عن تنويرنا. أما النخل فكثيرا ما كان يزعم أنه من أعجب الشجر. فهو، عنده، أكثرها شبها بالإنسان، ومنافعه، مثل منافع شجر الزيتون لا تحصى ولا تعد. والذي لا يثمر منه يحجم فيخرج منه ذلك السائل العجيب. بل إن الخبراء بحجمه كثيرا ما كانوا يقرؤون المستقبل مما يرونه فيه من علامات. فقبيل الحرب الأولى، وقد هلك فيها جمع من شبان مدينتنا ساقتهم دولة الحماية والاستعمار إلى خطوط النار ببلادهم البعيدة فمزقتهم المدافع بقذائفها، لاحظ أكثر من واحد من حجّامي النخيل أن الذكور منها كانت تنزّ سائلا أحمر في لون الدم. الظاهرة نفسها تكررت في الحرب الثانية خاصة، طوال المعارك التي دارت ببلادنا في تعقب عسكر الأحلاف لعسكر المحور. أما في فترة المقاومة فالأحمر من "اللاقمي" كان قليلا ومتقطعا. كنا نندهش من رواية المؤرخ لهذه الترهات فكان يقول:" منذ وجد الإنسان وهو يقرأ العالم. يقرؤه في ضوء الخوف والهوى فلا تستهينوا بتلك القراءات. فيها خلاصة الأوجاع التي مرت بها البشرية منذ تورّطت في الوجود".

61- يسمى عندنا كما عند غيرنا " لاقمي"، بنطق القاف جيما قاهرية، ولهم في الثناء عليه قصائد كثيرة تمتدح الحامض منه خاصة أشهرها على الإطلاق ملزومة مطلعها " سَكِرْ لبْنَات.. اللاقمي" كان يؤديها يهوديّ من أبناء مدينتنا الميامين.

على وقع الطبول والبنادر والدفوف والزُّكْرات. قيل أيضا، وهذا لم يقع عليه أيضا إجماع، إن بعض الأئمة قد أباحوا، استنادا إلى مبدأ أن الضرورات تبيح المحظورات، شرب الحامض منه وإن أسكر لقدرته العجيبة على القضاء على الديدان التي كثيرا ما كانت تتربى في أمعائنا.

أما هذه النخلة، وهي باسقة نحيلة في وسطها تقويسة ظاهرة، فإنها تعطي، دون أن يعنى بتلقيحها أحد، ثمرا يكون في بدايته أخضر داكنا مدوّرا ثم يستطيل ويتحوّل إلى صفرة سرعان ما تنتقل إلى حمرة تنزع به إلى أن يصبح رُطَبًا الواحدة منه في حجم بيضة الحجل. عندئذ تهجم عليها العصافير والطيور فتشرع حباتها في التساقط فيأتيها، بعد إلحاح في الطلب من صاحبها، "ديدا الجنّية" أو "عامر الدحداح" فهما الوحيدان اللذان يقدران على الرقيّ إليها لقطع عراجينها إذ كانت ملساء ما أن يدرك الراقي إليها تقويستها حتى تشرع في التمايل. كان المؤرخ الحزين يقول:" أضيفوا لعجائب هذه العجيبة أنها لم تقبل بأن يرقاها، من أهل مدينتنا، إلا أفضل رجلين وأنبههما، شرّ الخلق وأعداهم وأكثرهم سلما وطيبة".

أما دَيْدَا فقد ساقه فرط الذكاء والتأصّل في حقيقةِ حقيقةِ أهل مدينتنا إلى الإجرام حتى برّز فيه على الجميع وصار لا يخرج من سجن إلا ليُرمى به في آخر. وأما الدحداح فقد أخرجته نباهته الساذجة الموادعة عن جميع ما دخل في مألوف أهل المدينة من مستجدات فازورّ عنهم وأصبح لا يلوي على شيء متحصّنا بالصمت. كان المؤرخ الحزين كلما عرض لديدا والدحداح ذِكرٌ يقول:" لا تغتروا بجميع ما تسمعون. للانحراف[62] والهامش والغرق في الإحباط واليأس، وهذه بصمتي

62- في هامش هذه الصفحة " أطلعني المؤرخ الحزين في إحدى زياراتي له ببيته على

شاهدة (ويبصق على بطن إبهامه ويطبقها على أي شيء أمامه) فضائل جمة لا يجحدها إلا المتاجرون بالفضيلة من المنافقين. لو لم تبدؤوا ديدا بأذية ما كان ليبلوكم منها بأضعاف. ولو لم يلحق الدحداحَ المصابُ الذي ألحقته به بشاعة عيشكم ما كان لينبذكم بخلع صامت. كلا الرجلين يواجه البؤس الذي حلّ بحياتكم اليومية وما تنهض عليه من سخف على طريقته: أن يدرك الشرّ مداه أو تصل المقاطعة التامة والجزئية إلى غايتها.

كان يوم جني النخلة، قبل أن تصبح خبرا ناقصا لكان وصويحباتها، يوما مشهودا في المدينة. كلّ ينقله إلى كل، وكل يريد ألا يفوته الحصولُ منها على تمرات كان يشاع أنها ذات طعم خاص وبركة ومنافع كثيرة لا يصرّحون بها.

فإذا كان الدحداح هو الذي يقوم بجني النخلة فإنه يأتيها باكرا فيمدّه صاحب المقهى بأدوات العمل، حبلا ومحجمة وممضاة. يشرع الدحداح في سنّ المحجمة ويضع النادل بين يديه قهوة كان لا يلتفت إليها مطلقا، فهو يرفض جميع ما كان يعتبره جديدا دخيلا على المألوف المتأصل بمدينتنا نائيا بنفسه عمّا يتواضع عليه الناس. قيل إنه لا يشرب إلا الماء المستخرج من آبارنا ولا يأكل إلا الخبز الذي تصنعه له زوجته

مخطوطة من الحجم المتوسط عنوانها" ثنايا لم نطرق ". قال إنها غير مكتملة. تصفحتها فلم أفهم منها إلا القليل. استثقلت العنوان فضحك وجعل يذكرني بالفترة التي كنا نرتل فيها فقرات من كتاب نيتشه " هكذا تكلم زرادشت" فنندهش من رداءة إيقاعه. قلت:" كانت عبثا وسفاهة صبيان. كاد ذلك المجنون يخرجنا من الملة". قال:" متى لم تكن الملل إلا خرجات ضاعت أصولها فطوقتنا منها مجازات وهمية؟". لعنته في سري وانصرفت حانقا عليه.

والخضراوات التي تنبت بحقله واللحوم التي ينتجها هو. لم يره الناس اشترى شيئا قط ولا تردد يوما، بعد حادثة بعيدة كانت له لم يعد يذكرها أحد، على طبيب أو صيدلاني أو سوق. كان شديد التمسك بلباسنا التقليدي: شاشية حمراء وقميص من كتان دون رقبة وكدرون من صوف في الشتاء أو بلوزة قمراية مدوّرة في الصيف وبلغة من جلد يضعها دائما دون جوارب. كان يلقي على الشبان الذين بدؤوا يقبلون على الأزياء الشبابية الغربية نظرات مستنكرة. عندما كبر أولاده وأقبلوا على ما أقبل عليه سواهم من انخراط في الحياة العصرية هجرهم إلى أرض له صغيرة في أطراف المدينة وظل يمضي أيامه على النمط الطبيعي. حتى البيت الذي أقامه بنفسه وسكن فيه كان قصيرا ضيقا من الطوب والقش دون باب. كان أولاده يمازحونه بالسخرية من الحياة البدائية التي كان يتمسك بها من دون الناس فكان، حسب بعض المقربين منهم، يقول لهم: " لا خير في من أصبح لا يعيش إلاّ بالعقاقير أو بهذه المصنوعات التي تركضون وراءها من الصباح إلى المساء. أما هذه الحضارة التي لم تشاركوا في صنعها فلعنة من اللعنات. تأملوا جيلكم وجيلي وتكلموا إن كان لكم ما تقولون". ثم يسكت غير مبال بما كانوا يستفزّونه به من ضحك على المعيشة التي أقبل عليها. سمع المؤرخ الحزين هذا الكلام فقال: " منحول جملة وتفصيلا. يستحون من والدهم فيدفعون عنه ما يظنون أنه يعورهم. الذي أنا متأكد منه أن الدحداح قد أقلع عن مخاطبة الناس منذ أعوام كثيرة. أقسم على ألا يكلم أحدا إثر واقعة سخيفة وغريبة حصلت له فقلبت حياته رأسا على عقب قد أذكرها لكم يوما[63]. من سمع منكم كلمة واحدة صدرت

63- في ظهر هذه الصفحة: " أظنه يشير إلى ما تحدّث به واحد من مدينة كبيرة غير

عنه؟ أما كان يأتي النخلة صامتا وينصرف ساكتا؟ أما كان يجيب على الأسئلة التي توجّه إليه بالإشارة والإيماء؟"

يظل الدحداح يشتغل في صمت فينتبه إليه الناس فينقل بعضهم لبعض أن جني النخلة قد حان فتهرع الجموع إلى ساحتها. ترتفع الشمس قليلا فيرقى الدحداح النخلة مستعينا بالحبل. كانت، إذ كان ممتلئ الجسم، تظل تتمايل به والناس تحته يمسكون أنفاسهم، حتى إذا وصل إلى جريدها قطع منه سعفات محدثا فيها منفذا. من ذلك المنفذ يمرّ إلى رأسها ويشرع في قطع العراجين وتثبيتها في المواضع التي كانت تتدلى منها أو تجثم فيها. وعندما يأتي عليها جميعا يقرفص في موقع حصين ومنه يشرع في رمي العراجين إلى الناس تحته في اتجاهات مختلفة، فتموج الجموع متدافعة صارخة لاعنة مجاهدة في أن يفوز كل فرد منها بتمرات. تقترب منه، عند نزوله من على النخلة، عجوز، متبرّكة بالنخلة ورجالها الخفيين على العادة التي كانت "حْرَارة"[64] قد سنّتها من سنوات بعيدة، تحمل تبسيًّا به كسكسيّ بلحم الخروف فيأخذ منه بيده قبضة واحدة يرمي بها في فمه فيهجم بعض الشبان على الإناء

بعيدة عن مدينتنا كان الدحداح قد اشتغل بها بضعة أعوام من أنه قد أصيب بفتق أو هاجت عليه الزائدة الدودية أو شيء مشابه لها فنقل إلى قسم الاستعجال بمستشفاها وأن الجراح الذي عالجه قد اشتبه عليه موضع العلة فأصاب مكانا حسّاسا خلف به عاهة غير قابلة للإصلاح. ما كاد الدحداح يشفى حتى رجع إلى مدينتنا وعزف عن الحياة التي كان قد اعتاد عليها. لم أسمع هذا الكلام أو ما يتصل به لا من المؤرخ ولا من غيره من الناس وإنما بلغني ذات مرّة غابت عني تفاصيلها. لا أستبعد أن يكون حرص أهل مدينتي على السكوت عن مثل هذه الأسرار الخاصة هو الذي صرفهم عن ذكرها، ففي حياتنا التي تتراءى عريانة للجميع خفايا يتهيبون التعريج عليها".

64- تأتي الإشارة إليها لاحقا.

يتخاطفون ما فيه ويهمّ صاحب المقهى بأن يعرض عليه نصيبا من المال فيشيح عنه بوجهه وينصرف.

أما إذا كان "دَيْدا الجنيّة" هو الذي يقوم بالجني فإن الناس يعرفون أنهم مقبلون على يوم مشهود سيظلون يتندرون بوقائعه أسابيع كثيرة. فما أن ينتشر الخبر حتى يكونوا قد فزعوا إلى النخلة وتكون ساحتها وجميع الفضاءات المجاورة لها قد غصت بهم. كان ديدَا يشترط، محدثا كثيرا من الهرج، قبل الشروع في ارتقاء النخلة، على صاحب المقهى أن يقدّم له ثلاث قهوات كان يحرص على أن تكون واحدة منها كـ"قلب المسلم" وواحدة كـ"قلب الرومي" والثالثة في لون"..."والعبارة فاحشة جدا[65]. يطلب أيضا ثلاث بيضات رائبة يمتصها كالحنش. لم يستبدل ديدا لباسنا التقليدي بالثياب الإفرنجية ولكنه كان يسترها دائما في الشتاء بمعطف من قطن أكبر منه وفي الصيف بمعطف آخر من كتان مقوّى زيتيّ اللون به أزرار نحاسية كبيرة. كان قبل رقي النخلة يحرص على خلع معطفه ويسلمه، بحركة استعراضية، إلى صاحب المقهى موصيا إياه بالحفاظ عليه فتظهر للعيان بلوزته الخلقة التي كان يشدها دائما بحزام عريض من جلد به جيوب كثيرة وكثير من الحلق الحديدية. كان، كلما صعد إلى قمّة النخلة وهيّأ لنفسه بين سعفها مقعدا، يقرفص جالسا ليلفّ سيجارة أو يحشو في حنكه قليلا من "النفّة"[66] ويشرع في سرد الطُرَفِ والحكايات

65- سمع ديدا شابا مهذبا يبدي انزعاجا مما كان ينطق به من كلام فاحش قبيح فالتفت إليه وقال:" أتنزعج يا حلو العينين من تسميتي لما خلقت منه؟"

66- غبرة نباتية تستعمل نشوقا أو تدس في الحنك ومنابت الأسنان وأحيانا في أماكن مستورة أخرى.

والعجائب التي عاشها أو بلغته في السجن وخارجه مع ذكر أصحابها بأسمائهم والتعليق عليها. تشرع الروائح الخبيثة المستترة في مخابئها في التضوع والانتشار من أعلى تلك النخلة. في بعض الأحيان كان ديدا يشرع في سبّ خصومه من أهل المدينة وفضحهم دون أن يغفل عن التعريج على أجوارنا الذين يبغضوننا بألوان الشتائم والنعوت القبيحة. أما الأوربيون، عندما كانوا يمسكون برقابنا، فإنه كان يقول فيهم عبارته الوحيدة التي سارت في كلامنا مثلا" لا خير يرجى من أولاد غير المنتوفات". كان بعض الناس يشاغبونه بأسئلة محرجة فكان يتوقف عن العمل ويجيب عليها بطريقته. كانت أجوبته، آخر عهد دولة الحماية والاستعمار، تفضح بعض الصبّابة والمتعاملين معهم ومَن كان هواهم مع فرنسا وظاهرهم ضدها، وتحرج كثيرا من الأعيان والمتنفذين الجدد، فالأخبار التي كان يستقيها من السجون، بيته الثاني، كانت في معظمها ثابتة.

في نهاية العشرية الأولى من عهد دولة الاستقلال والسيادة أصبح المشاغبون يسألون ديدا، أوّل ما يسألونه، عن "حليمة" صغرى بناته اللائي لا يعرف لا هو ولا سواه ما إذا كنّ من صُلبه حقيقة، فيقول: "تخدم ربيّ يعينها. طيّحت عليها أمهاتكم وأخواتكم وبناتكم. تريدون أن أسمّيهن واحدة واحدة؟ حليمة انتقلت إلى بلد بعيد ليس فيه قحا...". كان السؤال يشير إلى الفترة التي كان ديدا يأخذ فيها بنتا له في الثالثة أو الرابعة من العمر نحيلة صفراء ضاوية فيتجوّل بها على المقاهي، عدا مقهى البرطال فهو يتجنّبه متأففا من رائحة رواده. كان يوقفها على طاولة من الطاولات ويرفع عقيرته بغناء فاحش يوقعه لها بالتصفيق وهي ترقص حتى إذا انتهت الأغنية قال لها: " هيا اكشفي

لهم عن المعبود"، فترفع البنت تنّورتها إلى مستوى الحزام وتأتي، وكانت دائما بلا سراويل، حركة دائرية رشيقة يضجّ لها الناس مصفقين وهي تبتسم وإبهامها في فمها. يخلع ديدا بعد ذلك شاشيته ويدور بها على الجالسين فيضع كلّ له فيها ما تيسر. نهاه عن ذلك، أحد المتّقدين حماسا في الذود باللسان عن أخلاقنا الحميدة، من أولئك الذين كانوا يسمّون أنفسهم "الرعيل الأول" من الداعين إلى الاستقلال والسيادة، فقال له ديدا، وكان خطيبا معترفا له بحسن توقيع الكلام وتجويد أدائه :"أنت آخر من يحقّ له أن يتكلم عن الأخلاق يا مستر فِشْ. تعرفني، وليس هذا من اليوم أو الأمس، وأعرفك. أعرف أمثالك أيضا. أمّا وقد قلت عنّي، في غيابي، أني سارق ومجرم وفأر حبس وقوّاد فإني أقول لك وجها لوجه " الدناءة نفسها لا تتشرف بأن تنتسب إليها" واعرف، إن كنت لا تعرف وأستغرب أن تكون وحدك الذي لا يعرف، أن في ظهرك وبين ساقي أمك وأختك وبنتك سردابا إلى وادي برقوق". أصبح كل موظف مسؤول بأجهزة الدولة يسمى عندنا " المستر فِش".

بدأ المنتفعون من دولة الاستقلال والسيادة، في السنوات الأولى من قيامها، يبدون انزعاجا من قبيح ما كان ديدا ينشره عن فساد طائفة من المنتفعين بخيرات هذا العهد. خاطبوا صاحب مقهى النخلة في ذلك مهددين متوعّدين وأمروه بأن يجبره على أن يكف عنهم أذاه. كان ذلك إثر سخرية مرّة تناول بها ديدا من على رأس النخلة كثيرا من المتنفذين الجدد. توقف، يومها، عن قطع العراجين وقال:" فلان تعرفونه أم لا؟ أظافره تبري صندوقا كاملا من الأقلام أم لا؟ لا يقدر على كتابة اسمه على القُلّة أم لا؟ عيّنه، منذ أشهر، ذلك الذي تعرفونه على رأس إدارة كبيرة تتحكم في أرزاقكم ومستقبل أولادكم. هذا الرجل لم يحرك ضدّ

المستعمر ساكنا. غطوا رؤوسكم بكرشة كلب واجلسوا في الشمس. تعرفون لماذا عيّنوه في هذا المنصب؟ لأنه كان من المقربين من بني " وي وي[67]" . كيف لا يكون من ذلك الرهط وهو لا يعرف الفرق بين رجله اليمنى ورجله اليسرى؟ هل عرفتم الآن إلى أين نحن ذاهبون؟ المسألة واضحة جدا" . خاطب صاحب مقهى النخلة ديدا في الأمر ونقل له انزعاج المتنفذين من كلامه فقال: " ما نشرت إلا الروائح المنبعثة منهم. بإمكانهم أن يكذبوني إن كنت مفتريا" .

في المرة الأخيرة التي قام فيها ديدا بالرقي إلى النخلة لجني ثمرها، وكان ذلك بعيد تمام العشرية الأولى من مقدم دولة الاستقلال والسيادة بقليل، جعل، ما أن وصل إلى رأس النخلة واستردّ أنفاسه المنبهرة، يغني قائلا : " الله لا ينحّيه علينا، جاء وجاب... الهمّ بكُلَّهْ" . ثم سكت وقال يخاطب الجمع الكبير المحتشد تحته : " تعرفون من أنا أم لا تعرفون؟" . صاح الناس: " سِيدِ الرْجَال... ما كِيفك حَدْ" . طنّ لهم بفمه طنّة موحِشة كان يأتي بها في منتهى القبح الرائع ، وقال ملوّحا برأسه: "قولوه لغيري... أما أنا فأعرف عنكم ما لا تعرفون عن أنفسكم. لو لم أكن فوقكم كنتم تقولون: الخسيس ابن الفاجرة المجرم السارق الفاسد فأر الحبس وابن الكلب القوّاد" . صاح الناس من تحته: " حاشاك، والله، حاشاك" . قال مناديا الناس من على رأس النخلة: " تعرفون ما أحب أن أفعل الآن أم لا تعرفون؟" . صاحوا أجمعين: " لا والله ما نعرف، فهات" . قال : " أحب أن أرمي بنفسي ليندق عنقي" . ضحك الناس وقالوا: " أرم بالعراجين ثم آت ما شئت. نقيم لك جنازة لم

67- " وي" في الفرنسية هي " نعم" ، وبنو " وي وي" هم الموافقون دائما على جميع ما يقوله الحاكم أو يتخذه من قرارات .

تُسبق". أطلق لهم القروي الذي كان يجيده مريعا وقال :" دُوِيوْ...
لتَفصَعوا بي... ما انتفاعي بهذه الجنازة إذا أنا مت؟" ثم سكتَ قليلا
وقال:"إلا إذا رددتم ورائي ما أرغب في سماعه منكم". قالوا :" قل،
هات تكلم". قال:" قولوا... يحيى... ديدا" وجعل يوقعها لهم
من على رأس النخلة والناس تحته يرددونها وهو يلوّح لهم كالزعماء
المفدين حتى بحت أصواتهم. أشار إليهم بأن يكفوا وقال:"قولوا الآن:
ديدا...يا ولد القحـ..." ترددوا فقال واحد منهم:"حاشاها... لا
نعرف عنها هذا الشيء". سكت لحظة وقال:" اللعنة على هذه الدنيا
وعلى أهلها أجمعين. قولوا الآن: ديدا... يا زعيم"، ضحكوا وقال
واحد منهم:"زعيم المجرمين"، ثم جعلوا يرددونها وهو يستعرضهم
نافخا حنكيه. أشار إليهم أن يكفوا ثم قال:" الزعامة تركتها لابن الفاعلة
التاركة (ولم يسمّ شخصا بعينة)، تعرفونه أم لا ؟". قال الناس :"لا
نعرف أحدا سواه". قال:" أقول لكم إنه، وأوصلوا له كلامي هذا إن
كان صبّابتُه لا يقدرون على نقله إليه، إنه سافل ومجرم وسفيه. إن لم
يجعل منكم نعاج مسالخ فهذا وجهي ابصقوا عليه في الصباح وفي
المساء. قولوا لي، أما وعدكم بأن يكون لكل منكم خمس مائة مليم
يوميا من الفسفاط وأنتم راقدون؟ فأين هي؟ آ... نسيت... لم يبيّن
لنا رقدتنا أعلى البطن هي أم على أحد الجنبين؟ ناموا على بطونكم
أمامه وانتظروا...". ضج المشرئبون إليه بأعناقهم بالضحك فأقعى
بين سعفتين مسندا ظهره إلى قلب النخلة وقال بنبرة عميقة:"مبنية
جملة وتفصيلا على الخديعة والغدر. عندما كنت في داري الأخرى
أبلغني أولاد الحلال أن نعيمة (يعني زوجته) أخذت عليّ صاحبا.
حمدت الله وقلت:" لن يجوع الأولاد أو يتعرّوا". استعاذ منّي بالله

الذين نقلوا لي الخبر". هتف من تحته واحد مقاطعا:"عندهم ألف حق. أهذا شيء تحمد عليه الله؟" تجاهل ديدا المقاطعة بحركة من يده التي كان يمسك بها المحجمة وقال:" عندما خرجت وجدتها، بنت الكلب، قد نبشت على قلادة كنا دفنناها في أساس الجدار تحسبا لمجاعة قادمة". أصاخ الناس في صمت فأطلق ديدا ضحكة وواصل قائلا:" الظاهر أنها، الخائنة الغدارة، قد مالت إليه. هو أصغر مني. خنقتُها فقالت:"تسلمها سلفة يحرّك بها جناحيه". طرتُ وراءه فما قبضت سوى على "بَصّة الغولة". دمدمتُها هذا الصباح. دنيا رخيصة وخوّانة. سيعطيني صاحب المقهى ثمن نصف علبة دخان وقرطاس نفّة لنعيمة وخبزتين...". قاطعه واحد من الواقفين تحته قائلا:" لا يهمّك شيء. نحن هنا. نجمع لك ما تيسر". وخلع شاشية كانت على رأسه هامّا بتدويرها على الناس فصرخ ديدا:" لا. لا تفعل. لو كنت طالب مال كان لديّ اليوم منه قنطار. إنما...إنما هذا الزمان بيني وبينه ثأر قديم " وخنقته عبرة مفاجئة. وقف الصمت على جميع الرؤوس برهة وصاح واحد من الناس هاتفا بـ:" هات العراجين. شيّحت لنا ريقنا". قال ديدا:"ابن من هذا الذي...." صاح الرجل:" ليس من صالحك أن تعرفني". قال له ديدا:" هل أنت من أولاد السوق؟". صاح الرجل:"ولدت فيه". قال ديدا:" وأبوك؟". قال الرجل:" ولد فيه و فيه مات". قال ديدا :"وأمك؟" قال الرجل:" كانت في الميم والخاء قبل أن يغلقوه". ضحك ديدا ضحكته المدوية وقال:"غلبتني. نخلة السوق ما يأكلها كان أولاد السوق. البرّاني والغدّار والغشاش والمنافق والقوّاد والحوّاف فلوس الشعب والصبّابة...على برّة". وجعل يرمي بالعراجين في جميع الاتجاهات وهو يلعن المدينة وأهلها

من اليوم الذي رُصّ فيه أول حجر في بنيانها والناس تحته يتدافعون ويتصايحون ويأخذ بعضهم برقاب بعض. وعندما نزل وجاءته، على العادة، إحدى العجائز بتبسي[68] الكسكسي بلحم الخروف والبيض والحمص والفلفل والزبيب، وهمّ بأن يصيب منه بيده شيئا يسيرا اقترب منه فتى من المرتزقة الجدد بالتسبيح بعبادة رموز الدولة ورمى على وجه الوعاء بقبضة من تراب. استنكر الناس ما أتاه الفتى وجعل ديدا يثبته بعينين من نار ثم رمى في وجهه بقوله: "واكلينكم واكلينكم ولا بدّ... أين المفرّ؟ إن لم يكن اليوم فغدا. إن لم تكن أنت فأولادك... أو أولاد أولادك". وامتدت يده إلى الشقالة فانتزع منها لحمة وقضمها بشراهة غير منزعج مما كان عليها من تراب. شاعت العبارة حتى سارت شوكة في حلوق المتنفذين الجدد وأولادهم.

نشرت ثرثرة ديدا من رأس نخلة مقهى النخلة بمدينتنا روائح كانت تحاط، في العادة، بالكتمان أو لا يُلقى بها هكذا في جميع الأسماع، فأبدى كثير من أعيان عهد دولة الاستقلال والسيادة قلقا شديدا من اليوم الذي يرقي فيه ذلك الشيطان إليها لقصّ عراجينها. كانوا يخافون من التلميح في كلامه أكثر من التّصريح. أمّا أهل مدينتنا فكانوا لا يمسكون، مما ينثره عليهم من كلام، إلا بالجزئيات، فهي، لديهم، ألصق من الكليّات بالذين ينسبونها إليهم حتى تصبح ملازمة لهم. كان إذا ارتقى النخلة وأخذ، في الموضع الذي يعدّه على رأسها للجلوس، نصيبا من الراحة مدندنا بمقاطع من أغانيه المفضلة وسأله بعض الشبان عن المكان الذي كان فيه يقول: " كنت في الدنيا الأخرى.

68- صحن من فخار ومنه البوني (نسبة إلى العهد البوني وهو المحروق في الأفران دون طلاء) والمطلي وفيه زينة لأكثرها دلالات سحرية أو مقدسة.

رمى بي فيها أولاد الكلب. اعتُدي عليّ فأخذت حقي بيدي فغضب الحاكم". يسأله الشبان عن الدنيا الأخرى كيف هي فيقول:" فسدت مثلما فسدتم. روائحها أصبحت لا تطاق. لم يعد الحبس للرجال. دعنا من هذا ، تعرفون من شاهدت فيه؟"، ويروي وقائع غريبة عمّن لاقى في السجون التي كان فيها مفيضا في عرض الجنايات والجرائم التي ارتكبوها ، ومنها يعرّج على ما بلغه من كلام عن أهل مدينتنا ورجال الدولة وبعض المتنفذين. يظل الناس تحته يبدون له من كبير التعجب ما كان يحثه على الاسترسال في نشر الفضائح.

لم يكتمل الحول بعد هذه الحادثة حتى كان ديدا مغيّبا في أحد السجون البعيدة ليأتي منه نعيه بعد أسابيع. لم يطلب رفاته أحد فدفن حيث لا يعرف أحد. امتنع إمام الجامع القديم، وكانت الدولة قد نصبته للإمامة حديثا، عن إقامة صلاة الغائب عليه. أسف عليه خلق كثير كان المؤرخ الحزين أشدهم توجّعاً عليه. كان مؤرّخنا ما جاء ذِكرٌ لديدا إلا قال:"كان يكون أنبه من أنجبت هذه المدينة وأعظمهم وأنفعهم للناس لو لم تقلب له الدنيا الغدارة ظهرها وتطلق عليه كثيرا من الروائح الخبيثة"[69]. وكان ديدا ما شاهد المؤرخ الحزين في مجلس من المجالس

69- في حاشية هذه الصفحة:" المتداول في مدينتنا أن ديدا، وهو الاسم الذي شهر به حتى لم يعد الناس يتذكرون اسمه الحقيقي، ابن غير شرعي أنجبه أمين السوق من فتاة بكماء صماء تخلى عنها والداها فنشأت في داره تشتغل " بكرشها وملبوسها". عندما كعب نهداها تسلل إلى مخدعها بزريبة ملحقة بالدار كانت تبيت فيها فما شعرت به إلا وهو فوقها. لامه واحد من أقرب الأصحاب إليه على ذلك فقد كانت تلك الفتاة قبيحة الوجه ذميمة القوام. قال له :" أتترك ريحاناتك (كانت لهذا الرجل ثلاث زوجات) إلى مثل تلك القردة؟"، فقال له:" لو رأيتنا وهي تحتي تبغم وأنفي يرعى منها روائح ما تحت الإبطين وطيّ العنق، زهدت في جميع النساء". لم يُلحق ذلك الرجل ديدا بنسبه

إلا أتاه مسرعا وأكبّ على رأسه فقبّلها بشغف كالعبادة مرات وانصرف دون أن ينبس بحرف.

في ساحة ذلك المقهى كانت تنتشر الطاولات فتتقاطر عليها طائفة كبيرة من رواده طلبا للهواء النقي بعيدا عما كان يحدثه لاعبو الورق داخله من هرج وضجيج. أصبحت هذه الساحة، في الفترة التي داوم فيها المؤرخ الحزين التردد عليها، فضاء للحوار والنقاش يقصده المعلمون وطلاب الجامعات والمثقفون من كل لون، غير أن ثقافتهم كانت، مع تعدّد روائحها واقترابها حينا من روائح مقهى المحباك وروائح مقهى العنبة حينا آخر، منابذة لرائحة ثقافة رواد مقهى البرطال، فكانوا

فعرف بولد البكوشة لكنه كان يشفق عليه حتى أدخله المدرسة مع أبنائه من زوجاته الثلاث. كان ديدا أنبه منهم جميعا فثارت ثائرة الزوجات. قالت إحداهن :" أخشى أن يتعقد ضناي إذا كان المتفوّق عليه هو اللقيط ابن البكوشة". اضطر التاجر، تحت الضغط الذي ناءت به نساؤه عليه، إلى فصل ديدا عن المدرسة. أمضى الصبي طفولته سارحا في الحارة حتى ساقته قلة الرعاية إلى صحبة مشرّد كان يعرف بالحشايشي فصار ملازما له. ذات ليلة قتل ديدا الحشايشي. قيل إن ذلك المتشرد قد سرى على ديدا فثاوره حتى قتله. قيل أيضا إن ديدا قد طمع في ما كان يخفيه الحشليشي في أطماره من مال فقبض روحه بقضيب كان يستره تحت الثياب. كانت تلك جريمته الأولى التي دفعت به إلى الإصلاحيات حتى أصبح قطبا في الإجرام. قيل إن أمين التجار، عندما شعر بقرب أجله، أرسل في طلب ديدا. وعندما مثل بين يديه طلب منه أن يسامحه وعرض عليه مالا غير قليل. قال له ديدا:" تزرع الحنظل وتريد أن تجني التفاح؟ الآن تريدني أسامحك، هيهات. ملقانا في جهنم. سأفرغ فيها لك. لن ترى فيها منّي إلا ما لم تره في الدنيا يا شيبة النار". وخرج وهو يسب ويشتم. كان ديدا فوق الأخلاق كافرا بجميع النواميس والأعراف والقوانين، وكان المؤرخ الحزين هو الشخص الوحيد الذي يكنّ له تقديرا عجيبا. سألت مؤرخنا عن السر في إكبار ديدا له فقال:" لم أصدر فيه حكما واحدا من الأحكام التي يرميه بها سائر الناس. ثم إني معجب بمواهبه الفذة. له في إجرامه ركن نيّر. بلغني أنه قد حمى كثيرا من أبناء هذه المدينة من انحرافات السجون".

يتعمدون اجتنابه متظاهرين بالتأذي ممّا فيه يشمّون. معظم الروائح بهذا المقهى لا تستقر فيه ففضاؤه المكشوف ييسّر لها الانتقال إلى سماء المدينة فتتضوّع فيها خفيفة لا تنشب في شيء. قال المؤرخ الحزين عندما كان خبيرا بتمييز الروائح المتشابهة بعضها عن بعض: " الرائحة التي فغمت بمقهى النخلة متضوعة من رواده هي التي حلم بترسيخها فينا رجال ونساء أنجبتهم هذه البلاد دون أن يبقى لهم بها ذكر. ما رأيت أجحد لفضل أفاضلنا من أبناء هذا البلد، ما نبغ منهم واحد إلا مزقوه ثم سلطوا عليه سيف النسيان. اهتدى أولئك الفضلاء، وكم كانوا قلة قليلة، لهذه الرائحة من زياتيننا ونخيلنا وبرتقالنا وقموحنا فأرادوها لا شرقية ولا غربية تؤنس على الدوام، لكن العواصف التي هبت علينا شردتها عنا بعيدا. عليكم، إذا رغبتم في معرفتها، بالتمر والزيت. دسوا في أحناككم تمرتين وملعقة واحدة من الزيت وكسرة صغيرة من خبز. أطبقوا أفواهكم دون أن تحركوا ألسنتكم. حاولوا أن تفكروا ساعة في أي معضلة من المعضلات ثم شموا أفواهكم وحاسبوني". نشر الذين سمعوا هذا الكلام أن المؤرخ قد أصابه في المخ أذى مهلوس فأصبح يهذي بما لا يفهمه إلا هو.

اختص مقهى القبة، قبل أن يُعرَف بمقهى المحطة، بالأغراب والذين هم على سفر، فقريبا منه كانت سيارات الأجرة الصغيرة والحافلات تتوقف لإنزال المسافرين وأخذهم والبحث عنهم. تضوّعت منه رائحة حادة كانت تنبعث من الشحوم وزيوت السيارات والبنزين والأدخنة ملطخة بروائح الأغراب النّغلة فكان معظمها غير متأصل في روائح مدينتنا. لم يكن أهل المدينة يصبرون على تحمل الروائح المتعرّجة في أرجاء هذا المقهى فهي وافدة من عالم يضمر لنا كثيرا من العداء، عالم

ليس فيه، حسب ما يقولون ويعيدون، سوى أخبار الأفاريات المشبوهة. جلب له صاحبه آلات حديثة لطبخ القهوة فظل على حاله لا يقصده إلا المارون لا تبقى منهم به إلا خيالات من روائح باهتة لا قدرة لها على أن تنشب في شيء.

أما المقهيان الآخران فقد كانا على الهامش مكانة وروائح. فهما يمتلئان يوم السوق الأسبوعية بالوافدين علينا من القرى المجاورة والأرياف وأكثرهم رجال قذرو الثياب تنبعث منهم روائح العرق والأوساخ خبيثة نتنة تحرق العيون وتنفذ إلى الخياشيم فتحدث فيها تآكلا وتستقر حامضة كاوية في الحلوق. غير أن هذه الروائح سرعان ما كانت تنقشع راحلة مع أصحابها. يتردد على هذين المقهيين في سائر أيام الأسبوع الشبان والأطفال والتلاميذ الهاربون من المدارس وبعض الرجال من الولعين جدا بالإيقاع بالغلمان وتصّيد الصبية، فلهم، حسبهم، نكهة لا توجد في الإناث. قال المؤرخ الحزين: " استبد بي العطش مرة فدخلتُ إلى أحد هذين المقهيين ألتمس شربة ماء. طوقتني وِقحَةً العيون حتى كدت أتعثر. هرب عني العطش فجعلت أتراجع والعيون ترميني بنظرات ثاقبة وفاجرة متّقدة حتى كنت أشعر بلفحها على وجهي وساقيّ وباختراقها الثياب إلى جسدي. ما كدت أصل الباب حتى هممت بالانفلات هاربا، لكن يدا عتيدة أمسكتني. كان أبي لا أدري أيّ أرض انشقت عنه. صفعني مرة حتى كدت أسقط فأمسكني ورفعني عاليا وقال:" ما الذي جاء بك إلى هذا المكان يا ولد.... "، أراد أن يشتم أمي فشتم نفسه بلفظة نابية. صفعني مرة ثانية فأفلتت، أو أظنه سمح لي بالإفلات. طرت إلى دارنا. ظللت إلى الغروب مهموما أنتظر منه شرا مستطيرا، وعندما أقبل علينا نسي المسألة فلم يجر لها ذكرا.

لما كانت الروائح التي تعرّجت بمقاهينا طوال العقود الأولى التي عقبت نشأتها، شديدة الشبه، في معظمها، بالمعتّق من روائحنا جعل التنابذ، وبعضه موروث ممّا كانت تتنافس فيه الحارات، بين رواد هذه المقاهي يزداد مع اشتداد الأيام تعسّرا. فإذا ضاقت خواطر رواد مقهى العنبة، وكثيرا ما كانت تضيق بهم في آخر دولة الحماية والاستعمار وبدايات دولة الاستقلال والسيادة عندما تفاقمت البطالة وتكالبت عليهم العكسيات والنّبزيات والإحباطات، وادلهمّت أمامهم الآفاق، هاجوا في مقهاهم وماجوا وانطلقوا إلى مقهى البرطال فاقتحموه ليفسدوا على الجالسين فيه راحتهم. كانوا يسمونهم " أولاد النانات" ينطقونها بتفخيم كبير للنونين أو " اليَن يَن" يشفعون ليّ اللسان بها بحركات مخنثة. يجلسون إلى الطاولات الفارغة والمشغولة ويصفقون ويصفرون ويضربون بالمدى والملاعق على الخشب والأكواب مستحثين النادل وصبيته رافعين الأصوات بالشتيمة والكلام القبيح. يظلون في لغط وصراخ وزئير وتشاتم وسعال وبصاق حتى إذا شفوا ما بأنفسهم من غلّ كانوا لا يدركون أسبابه انصرفوا. يردُ بعد أيام ردّ الفعل بصفة غير مباشرة لكن مدبّرة من قِبَل المتنفذين وأَعيان اليهود خاصة قبْلَ أن يشرعوا في ترتيب شؤونهم للرحيل إلى " أرض الميعاد". فبعد كلّ هجمة من هذا النوع يطوّق البوليس والجندرمة، طوال عهد الحماية والاستعمار، ثم رجال الأمن والشرطة، في عهد الاستقلال والسيادة[70]، مقهى العنبة للتثبت في الهويات. كان شبان مدينتنا لا يعترفون، قبل

70- في الهامش: " يزعم رواد هذا المقهى أن لا فرق، في المجال الأمني، بين العهدين، عهد الحماية والاستعمار وعهد دولة الاستقلال والسيادة، فالجهاز هو الجهاز لم يتغيّر فيه سوى أعوان التنفيذ.

الاستقلال وبعده، ببطاقة التعريف، فهم يستنكفون منها. وإذا ألجأتهم الظروف إلى استخراجها وكانوا في مدينتنا أو قصدوا مدنا وبلدانا مجاورة أو قريبة فإنهم قلما كانوا يأخذونها معهم. أما إذا طولبوا بها أو أجبروا على الاستظهار بها فإنهم يأتون ذلك كارهين شأن الذي يُجبر على فعل مهين. كان كل منهم يقول رافعا رأسه نافخا أوداجه: "مَن في هذه المدينة لا يعرف من أنا؟" كان رجال الأمن يأخذون إلى المراكز مَن عثروا عليه منهم ومن غيرهم للترويع والتهديد ليس إلا، فأهل مدينتي كانوا في الجملة مسالمين، ثم إنهم، عندما يكونون فرادى، كثيرا ما ينهارون ويذلون، غير أن المصائب التي كانت تنزل على رؤوسهم هي التي كانت تجرّهم إلى ما لا يحبّون. كانت الروائح التي أصبحت تنبعث منهم ومن سواهم خبيثة نتنة تجعل جلودهم ضيقة جدا عليهم فهم دائما فيها محتقنون.

في بداية عهد دولة الاستقلال والسيادة شرعت الحكومة في بناء الدولة وتشييد الأمّة. كان المنوال الغربي راسخا في أذهان معظم الذين وجدوا أنفسهم في مواقع القرار والتنفيذ. ثم إن الاختيارات الكبرى كانت قد أرسيت قواعدها منذ أزمان. لكن الصّعاب كانت جمّة فكثرت العثرات. همس بعض "النبّارة"[71] لبعض المسؤولين أن البدء لا استغناء فيه عن دولة تبسط هيمنة كليّة على جميع الناس وتسوقهم طواعية أو كرها إلى ما تراه هي صالحا بهم. لكن الزحام على احتلال المواقع كان قد استشرى، وإذا كلّ يحرّك بيادقه ويسعى للفوز

71- جمع نبّار وهو الذي يتفرّج على لاعبي الورق فيتدخل بالنصيحة يسديها همسا لبعض اللاعبين دون أن يلحقه من الخسارة شيء. المعنى مشتق من لغة المقامرين ولها في مدينتنا سوق دائما حامية.

من الغنيمة بنصيب. ولما كان أهل مدينتنا لا يعرفون من الدول إلا أنيابا زرقاء لم يلحقهم، في العهد "الوطني"، من التنمية سوى التجاهل والتسويف والتمني أو منشآت موسمية النشاط لا تحدث تشغيلا ثابتا. بدأ الغضب على دولة الاستقلال والسيادة يتمكن من النفوس وبدأ أربابها يلتمسون السبل لكسر شوكة ذلك الغضب حتى لا يتحوّل إلى هدير زاعق أو جُراف لا يدع ولا يذر.

عيّنت وزارة الداخلية على مدينتنا ضابطا صارما ليحكم ضبطها. قيل إن بعض المتنفذين الجدد قد سعوا في تعيينه خوفا من أن يعاود أهلها الجنون بالهيعات. شرع ذلك الضابط في التضييق على المتحللين من القوانين والأعراف ممعنا في تصيّد العتاة منهم. تعقّب بائعي الخمر خلسة، بعد غلق حانة " الكرّي" وصادر مخزونهم. داهم مقرات القمار والبغاء السري، بعد غلق الماخور، وأوجع القائمبن عليها وروّادها ضربا مبرّحا. كان يقول:" اعتقالهم يزيد السجون اكتظاظا أمّا إيجاع الأجساد فهو العقاب الذي يردّهم إلى الطريق المستقيم". بدأ يلاحق الغشّ واللصوص وضيّق على الشبان في السهر والتسكع. لم يبلغه من غضب أهل المدينة عليه شيء فانتخى وانتشى وأصبح يمشي في شوارعنا متبخترا. زيّن له الحرص على إحكام القبضة على ما يختلج في الضمائر أن يدسّ في جميع المقاهي مخبرين يأتونه بما يتحدث به الناس، لكن أهل مدينتي سرعان ما اهتدوا لهم. كانت أنوفهم، في تلك الفترة، قادرة على التمييز بين الروائح. جعل بعض الخبثاء يكثرون أمامهم من الثناء على الضابط حتى إذا بدأ يلجّ في مراقبة الأسعار ومقاومة الاحتكار والغش أصبح الثناء عليه تهليلا.

يقول أهل مدينتي:"اغترّ الضابط بنجاحه في السيطرة على المدينة

وانتشى بلجوء بعض الناس إليه لفض بعض الخلافات العائلية. قصدته، في قمة زهوه بنفسه، مطلّقة مليحة منتصرة به في حق لها جحده مطلقُها. ترددت عليه مرات حتى قرأت في حفاوته بها لينا. دبّ الشيطان الرجيم بينهما، لكن الضابط كان حذرا فاقترح عليها لقاء في طي الكتمان والتستر خارج المدينة. تظاهرت بالتردد والتفكير ثم عرضت عليه أن يوافيها في بيتها متنكرا. تردد فقالت له: "أنا التي ينبغي لها أن تخاف على نفسها لا أنت". وذرفت دمعات هوى لها صاغرا.

ما كاد الضابط يتسلل متنكرا إلى منزلها ليلا ويهم بدخول الغرفة التي قصدتها حتى مزقت الرداء الخفيف الذي كانت تستتر به وهجمت عليه مفتعلة مقاومة فيها زمجرة مكتومة. برز من غرفة أخرى أربعة رجال ملثمون يحملون أسلحة. همّ الضابط باستخراج سلاحه فطوّقه واحد منهم من خلف بينما كانت المرأة تمسك بيديه. دفع الرجال به إلى داخل الغرفة بعد أن جرّدوه من المسدس الذي كان يخفيه. قالوا له: "يموت كل شيء هنا إذا استقلت أو انتقلت إلى مدينة أخرى في بحر أسبوع من هذه الليلة". أدرك أنه وقع لكنه أفلح في أن يقول: "أو ماذا؟". قال له أحد الملثمين: "الأفضل لك ألا تعرف". أخذ عليه الرجال الملثمون اعترافا خطيا بأنه قد ضبط وهو يقتحم على المطلقة غرفتها لاغتصابها. أخذوا مسدسه رهينة. أعلموه أنه إذا نفّذ ما يطلبونه منه عثر على المسدس والاعتراف في مكان نعتوه له. ظل الضابط يومين يوقد العيون حول الدار ويستحث أعوانه في الإتيان له بخبرها فلم يصل إلا إلى أنها فارغة من سنوات على ملك رجل بالمهجر. لم ينقض الأسبوع إلا وهو يحصل على نقلة إلى مدينة بعيدة جدا". كان المؤرخ ينصت إلى هذه الحكاية فتلمع عيناه الدقيقتان ويقول: "ما أقدركم على الانسياق

مع الخرافات السخيفة التي ينسجها لكم الضاحكون عليكم يملؤون بها خواء أيامكم. حتى الروايات الصفراء لم يقدروا على صوغها لكم. لو متّ أمامكم الآن لصنع بعضهم لموتي خرافة عجيبة تصدّقون بها. ما نقل ذلك الضابط إلى مدينة بعيدة إلا لأنه وقف على مهربات خطيرة كان يقوم بها بعض الذين تعدّونهم أصلح الناس. حمله فرط الفرح بالصيد الذي ظفر به على توجيه وثائق الإثبات إلى جهات متنفذة عليا دون التقيّد بالتسلسل الإداري. كان ينتظر كثيرا من الشكر فجاءه كثير من التوبيخ. تفوّه بكلام لم يفهم على وجهه أو نقل عنه محرّفا. تحركت دواليب النهّابة الرسميين فجاءت نقلته مفاجئة للجميع. أما فكرتم يوما في الأسف الذي أبداه عليه كثير من الناس في مدينتنا؟"

من اليوم الذي انتقل فيه هذا الضابط إلى مدينة بعيدة ارتخت قبضة الأمن على مدينتنا. اكتفى الذين جاؤوا بعده بجعل أعوانهم يظهَرُون، من حين لآخر، في الأماكن العامة. حلّ محل البوليس الواضح في مدينتنا بوليس آخر غاية في التستر والخفاء يُحصِي على الناس الحركات والسكنات ويصبّها في آذان رهيفة جدّا في مدن مجاورة. أصبحت تضطلع بالتدخل فرق تأتي مطموسة القسمات في عربات موحشة. كان تدخلها يستهدف بعضا من الصّاغة دون بعض في سوق الذهب. أزهرت من الواقعة التي حصلت لذلك الضابط الحازم روائح الوشاية في مدينتنا وتضوّعت خبيثة نتنة تتستّر متقيّفة في كثير من العطور المغشوشة حتى إذا سفرت كشفت عن وجه تحدثُ بشاعتُه دمارا في الأفئدة وخرابا في الأنوف.

قال غير المؤرخ الحزين من روّاد مقهى النخلة: " جاءنا العالم الحديث غازيا فبعثر أوراقنا وأفسد روائحنا. لم نكن مستعدين له. تهاوت،

تحت ضرباته، بنياتنا المتوازنة في القدم واحدة تلو الأخرى. الحل الذي اهتدى إليه زعماء الإصلاح وتعهّدته دولة الاستقلال والسيادة بالترويج والإشادة مبشرة بأن نأخذ من أعدائنا أسباب القوة ونحافظ على إسلامنا وهويتنا لم يعد حلاّ. أفسده المهووسون بالسلطة بسوء التطبيق". كان المؤرخ الحزين، قبل أن يستبد به الحزن وبعد موت ديدا بقليل، يمتنع عن ذكر الحلول التي يراها ناجعة لإصلاح الحال. كان يقول: "ليس هذا من شأني. يعنيني أوّلا وبالذات أن أدلّ على المسالك الخاطئة إيهاما بالتي تحول دون طرقها تخوّفات تصيب الرّكبَ بالشلل وتفتّ في العزائم".

جلس إلى طاولته يوما جمع من شبان الجامعات متواطئين على استفزازه فجعلوا يرمونه بالعدمية والجعجعة الفارغة ويعيّرونه بحبّه لوداد وطعنه في كل فعل وينبزونه بالإمعان في تجريح من يستحق ولا يستحق، وهو يبتسم ويتملص حتى إذا فطن لما يريدون الوصول إليه بدا له أن يجاريهم فقال متظاهرا بالجدّ: "كل تلفيق مآله التمزق مهما طال به الأمد. والعالمان القديم والمعاصر لا يلتقيان إلا في شيء واحد. يلتقيان في النزول بتصوّرنا لما وراء السماوات إلى الأرض. أما هم، وأشار بيده إلى الغرب، فقد تناولوا تصوّرهم له بالنقد ووقفوا في منتصف الطريق. أحلوا محله "الواقع" فحكّموه، دون أن يعرفوا ما هو، في كل شيء. كلّ يعلق على شماعة "الواقع" أوهامه ويشرع في الإزراء والتشنيع بأوهام الآخرين. وأما نحن فقد نزلنا بتصوّرنا له لنجعل حياتنا اليومية على مقاس ما فهم فقهاء السلاطين من تعاليمه وحملونا على تسليم الأمر إليهم. ألا ترون أن الواحد منكم إذا حلت به مصيبة حمد الله عليها وقال: "دفع الله ما كان أعظم". من الذي أدراه بذلك؟ لن تقوم لكم قائمة ما دمتم تكذبون على أنفسكم بالكذب على

ربكم وتحمّلونه مسؤولية البؤس الذي أنتم فيه. أمّا فقهاؤكم وأولياؤكم الصالحون وتحكيمكم الأموات في شؤون الأحياء فسفاهة في سفاهة. متى كانت عقولهم أصفى من عقولكم؟" شرد به يومها الكلام فتطاول على المقدسات وسبّ الواقع وسخر من الحكومة ولعن رجالها فغضب عليه الذين كانوا حوله، كل من الموقع الذي هو فيه، واحمرت وجوههم وارتفعت أصواتهم. اغتنم تلك الهرجة بعضُ المحرَّضين على المؤرخ الحزين من قبل بعض المتنفذين الذين أصبحت صدورهم تضيق به فارتموا عليه وجعلوا يلكمونه حتى أدموا وجهه ومزقوا قميصه. لم يخلصه من أذى أكبر كان محدقا به سوى مرور جنازة جعلت المعتدين يكفّون عنه تهيبا لانتهاك حرمتها.

لم ينصرف المؤرخ يومها شاتما، على عادته، المدينة وأهلها والذين غضبوا من كلامه فآذوه. ظلّ واقفا مع الواقفين في خشوع وصمت حتى إذا ابتعدت الجنازة جعل يقول:"ساءكم يا مساكين أني وضعت إصبعي على موضع الوجع. آلمكم كلامي ولم يؤلمكم الخندق الهائل الذي غطّسكم الحكام فيه. شمّوا النتونة وافهموا إن كنتم ما زلتم قادرين على الشمّ والفهم. تعتقدون أني سعيد بما أقوله فيكم؟ ما أشدّ غباءكم! ترغبون في الدنيا والآخرة وما أراكم إلا قد خسرتم الدارين والقادم أشنع. تريدون صفو الحساب؟ خذوه مرة واحدة واحشوه حيث لا تشتهون. كتبكم الصفراء سلبتكم الدنيا نقدا ومنحتكم الآخرة نسيئة. أمّا ما أخذتموه وتأخذونه من الغرب فيسلبكم الحاضر والمستقبل. تذكروا كلامي هذا. إذا لم تجدوا أنفسكم رقيقا كاسدا في أسواق النخاسة العالمية والمحلية فبولوا جميعا على قبري". انقطع به النفس فطلب كوب ماء وأشعل سيجارة فجعل يدخن بشراهة وهو

يسعل ويدَلْوِح برأسه مترنما بـ" ألا موت يباع فأشتريه"، ثم استغرقته نوبة من الضحك دمعت لها عيناه.

عندما هبّت السياسة علينا، في الهزيع الأخير من عهد دولة الحماية والاستعمار خاصة، بالخبيث من رياحها السّموم دخل من نتنها على روائح مقاهينا تحوير كبير سرعان ما رسخ فيها وصار ينبعث منها في نفحات تكيّفت بها حياتنا اليومية طوال العقود التي استغرقتها. كانت، حسب المؤرخ الحزين، سياسة "المزق المرقّعة" و" المصالح الشخصية" و" العصبيات المرضية" و"تصفية الحسابات" و"عشاء البصر" و"الانبهار بالآخر" فكانت روائحها خليطا من روائح لا تطاق كثيرا ما كان يشبّهها بجيفة معلقة في شمس كاوية بمجرى هواء خفيف.[72] لكنها، رغم هذا التشخيص الذي لا يخلو، في الحقيقة،

72- في الحاشية :"كان عذره في مقتها، عند الخلّص من أصحابه وكم كانوا قليلين، أنه قد اكتوى بها يافعا وكثرت بوجدانه منها الجراح. كان يفهم منها غير ما يفهم خصومه والأنصار فنبذه المشتغلون بها جميعا. ولما كان لا يسكت عن نقدهم ناصبوه العداء وحرّضوا عليه بعض السفهاء فأغروهم بإيذائه. ذكره وزير نابه من وزراء دولة الاستقلال والسيادة كانت له به معرفة دقيقة في مرحلة الشباب فقال في مجلس خاص:" عرفته، أوّل ما عرفته، في اجتماع سرّي كنا نعدّ فيه العدة لمقاومة المستعمر فقال:" ما جاؤوا إلا طامعين في الكسب. قاطعوهم. إذا اقتنع الناس بالامتناع عن التعامل معهم غادروا بلادنا لا يلوون على شيء". فهمنا أنه كان متأثرا بغاندي فضحكنا من سذاجته. في مرحلة البحث عن منوال من المناويل لتكوين الدولة الوطنية خرج علينا بفكرة " القدرات الذاتية" و" حرية المبادرة" في كنف القانون. عرفنا أن السذاجة لم تبرحه. كان دائما على حاشية من الواقع. قلت له مرّة:" أفهمني أي شيء تريد؟" فقال:" أنا لا أريد شيئا. أدين بالحرية وتؤسسون للقهر، وأؤمن بالمساواة وتصنعون التفاوت، أدعو إلى السلم وتؤمنون بالعنف وتمارسونه. معرفتي بمصلحتي لا أعتقد أنكم تعرفونها أفضل مني وتصرّون على حملي على ما تعتقدون أنه أكثر موافقة لي".

من تجنّ، أفلحت في حمل الناس على الاعتقاد في أن الاستقلال آت طال الأمد أم قصر. سرى في الجميع تيّار خفيّ بعث منهم رائحة كانت تظهر وتختفي لم يكن لهم بها عهد. يأخذهم لظهورها انشراح كبير حتى أن الواحد منهم يكون سائرا فيجد نفسه مدفوعا إلى الانقضاض على أقرب شخص إليه ليضمّه ويطبع على جبهته قبلة. كانت مثل هذه الأفعال تقابل، في العادة، بالاستنكار والاستغراب متى لم يدفع بها التأويل نحو خبيث النوايا متى كان المضمون صبيا أو شابا، لكنها، مع هبوب تلك الرائحة، لم تعد تبعث على تعجّب أو تدعو إلى تأويل. أما إذا اختفت فإن الوجوه تتبرّم والخواطر تتكدّر فترى الجميع على أعصابهم يبحث كل منهم عن أي سبب للاشتعال. بين ظهور الرائحة وانقطاعها يعود أهل مدينتنا إلى ما عهدوا من حياتهم مطعّما بكثير من المستحدثات التي يكرهون ويحبون على مضض فينفخ كل صدره متظاهرا بأنه دائما في الحال التي لا أحسنَ. تبرز الخلافات من جديد حتى كأنّ كل واحد لا يعتدّ إلا بنفسه ولا يشغله سوى الإزراء بسواه وكبته.

كان مقهى البرطال أول المتأثرين بهذه الرياح. اقتحمه شبان من أبناء اليهود رفقة شبان من حارة العمشان فأصبحوا يعلّقون على جدار داخلي فيه صورا لمفكري الشيوعية وقادتها الميدانيين وبعض

قلت له: "أيمكنك أن تترجم مفاهيمك الفاضلة هذه إلى قرارات؟" هزّ كتفيه وقال: "أوّلا لست مطالبا بهذا، وثانيا ملخصها عبارة واحدة: دولة حَكَمٌ تمنع الأذى وتقاوم العنف دون أن تسود بممارسته أو تمسّ بالحريات". تركته في هيامه بمدينته الفاضلة متمنيا له منها شفاء عاجلا". حدثني بهذا الوزير نفسه بعد عقود كثيرة من وقوعها. كان ذلك الوزير قد أسن لكن ذاكرته ظلت متقدة.

من "شهدائها" العالميين. علّقوا أيضا مقاطع من البيان الشيوعي ومن كتابات لينين وتروتسكي وروزا لوكسنبورغ. تضوّعت بهذا المقهى روائح الإديولوجيا والبرجوازية والبروليتاريا ودكتاتوريتها الخيّرة وصراع الطبقات والحتمية التاريخية وفاحت بشذى الوعي الثوري والمنحرف والإصلاحي والمتخاذل حتى أصبح الكلام قذائف تنفث في انفجارها أبخرة تكتم الأنفاس. يسّر أولئك الشبان لصاحب المقهى شراء مذياع كبير جدا وغرامافون في مثل حجمه. أصبح المقهى تنبعث منه صادحة الأغاني الأوربية ونشرات الأخبار من إذاعة موسكو فإذا امتلأ بها وتعرّجت في أرجائه تحوّلت إلى رائحة شبّهها بعض الناس برائحة الكرّاث عندما يصيبه الخمج. تنفذ هذه الرائحة من الخياشيم إلى الحلوق فتكويها وإلى الأذهان فتجعلها ميّالة إلى الصفرة. كان معظم الشبان من روّاد هذا المقهى يقولون:"نمحو الماضي جملة وتفصيلا. نلغيه، ما أن يأتي الاستقلال، إلغاءً. لا منجى ولا مستقبل إلا في ظل دولة العمال بالفكر والساعد بقيادة عشاق العمل من صفوة الثوريين على النطاق العالمي"، لكنهم كانوا، إذا دعاهم بعض الشّداة من المراهقين إلى التحرك، يخفضون رؤوسهم ويقولون "الشروط الموضوعية لقيام الثورة لم تتوفّر بعد. أصحابنا الملهمون العارفون بخفايا حركة التاريخ والمسكون بدفّتها لا ينصحوننا بالتحرّك الآن"، فهم ينتظرون علاماتها بإشارة تدل عليها من الإشارات.

اغتاظ رواد مقهى العنبة وكانت جميع الأحزاب قد زهدت فيهم فشعروا بالوضاعة والتفاهة والمهانة والاحتقار والغبن واعتصرهم الكمد أياما وأسابيع حتى أجبروا صاحب مقهاهم على أن يأتيه براديو صغير فرحوا به ورفعوا صوته إلى الحد الأقصى لينبعث منه أيّ صوت

من أيّ إذاعة من الإذاعات. كان الراديو كثيرا ما يصاب بالبحّة فكانوا يظلون متشبثين بالضجيج الذي ينبعث منه صخبا يصمّ الآذان لا يحدث فيهم سوى توتّر يورث ثقيل الكوابيس. أصبحت تنبعث من هذا المقهى رائحة بخرة تمازجها أخرى زخمة غامّة جيفة جملة وتفصيلا فيهبّ القائم على الموقد إليها بكانون يلقي على جمره حفنة أو حفنتين من مسحوق الخزامى، لكن دخانها سرعان ما كان يتّجه نحو الباب ممعنا في الهرب. روّاد مقهى العنبة معظم أحلامهم تصبّ في التشوّق إلى زمن يتحسّن فيه خطّه فيضمن لهم لقمة العيش والشغل المريح ويبعد عنهم ما يتخبطون فيه من بؤس. كان الواحد منهم يقول لأقرب جالس منه: "إذا جاء الاستقلال قلنا للفقر باي باي"، فيقول له ذلك الجليس: "تعتقد أنه يصبر على فراقنا؟"

أصبح مقهى النخلة معقلا للحزب الوطني فتوشحت جدرانه برسوم يدوية كثيرة لأبطال تاريخيين من العهد العربي الإسلامي كخالد بن الوليد وصلاح الدين الأيوبي والقرصان خير الدين ولمن حاول الصمود في وجه الاستعمار أو قاومه كخير الدين التونسي وعبد القادر الجزائري. تضوعت فيه روائح زفرة تتريّع كالسّراب مثقلة بأمجاد غابرة وعزة مندثرة وهموم كالحة ثقيلة وممانعة منهزمة. انبعثت من مذياع كبير به كالصندوق، في بعض الأحيان، أغان حماسية وطنية إلى جانب أغاني الحب والهيام المملوءة بالآهات المسيلة للدموع وخطب نارية تنطلق من إذاعة " أمجاد يا عرب أمجاد" . اتجهت تأوهات الشوق وآهات الصبابة والوجد إلى البحث، غافة ثقيلة، عن روائح بقايا للعادل المستبد الذي يجمع الجموع من المحيط إلى الخليج ويحشد الجيوش ويعيد التاريخ إلى الخط المستقيم فقد طال به الانحراف عنه. يقول بعض المتعلمين،

أحيانا، لبعض: " أين لنا بحزم أبي بكر وعدل عمر وشجاعة علي ودهاء معاوية؟"، فلا تلتفت إليهم، من باب الفضول والاستغراب، إلا أعناق قليلة. اقترح أحد النابهين من رواد هذا المقهى على صاحبه أن يجعل في النخلة بوقا يصله بالمذياع حتى ينعم الناس بسماع الغناء وتتنوّر عقولهم بالأخبار. وافق صاحب المقهى على المقترح بعد كثير من التردّد. لكن ديدا كان في أحد الأحباس البعيدة. أرسل إلى الدحداح وطلب منه رشق البوق في قلب النخلة بين السعف. امتنع الدحداح عن ذلك بحركة من رأسه وانصرف لا يلوي على شيء. أتى صاحب المقترح بسلّم من ذلك النوع الذي يستعمل لدينا في جني الزيتون وشدّ إليه سلّما آخر وأمسك كثير من الناس بالسلّمين حتى إذا استطاع أحد الصبيان أن يتسلّقه إلى منتصف جذع النخلة أثبت البوق في المكان الذي وصل إليه. أصبحت أخبار العالم وأغاني العشق والهيام والخطب النارية المنافحة عن هويتنا العربية الإسلامية " تُشَرْقِعُ " في سماء المدينة ناشرة فيها روائح لم يستطبها الناس. قالوا إنها كالكأس الواحدة تشوّه رائحة الفهم ولا تسكر، لا خير فيها. لم يكن صاحب المقهى مقتنعا بانضمام محله إلى هذا الحزب، فكان يمسك، في بعض الأحيان بأنفه متأذّيا، ولكنه لم يقدر على مخالفة الأعيان الذي رغّبوه في أن تكون رجله في الركاب.

أصاب أصحاب المقاهي الأخرى وروادَها كمدٌ ممّا سبقهم إليه صاحب مقهى النخلة فحرص معظمهم على أن يرشقوا في أرفع مكان من مقاهيهم أبواقا مشدودة إلى الراديوهات رافعين من حجم أصواتها إلى أقصى الحدود فأصبحت مدينتنا، والحمد لله فهو دائما يحيطنا برعايته، مركز العالم تنتشر فيها أخباره وثقافاته وتتصدّع بها الآذان.

لكن الروائح التي كانت تنشرها في سمائنا كانت، في معظمها، غريبة عنّا تصيب الأذهان، بخليط من الخبائث فتلوّثها بنتونة من نوع خاص وإذا بروّادها يعطسون ويسعلون ويبصقون وتحتقن منهم الوجوه وهم يجاهدون للعثور على نفحة من هواء غير دخيل. غضب من ذلك بعض الأتقياء فاستنكروا هذه البدعة بضعة أشهر ثم رشقوا في مآذن جميع الجوامع أبواقا أصبح المؤذنون ينادون منها للصلوات والقراء يرتلون آيات من القرآن وينشرون بعض المواعظ. سمّى بعض الخبثاء تلك السنة من تاريخنا "سنة التبَعْوِيق[73]" فخطف التسمية أجوارُنا الذين يمقتوننا وأطلقوا على أهل مدينتنا تسمية "المبَعْوِقُون"، لكن التسمية لم تلصق بنا ذلك أن قراهم الواطئة الوسخة قد لحقها ما لحقنا ممّا يصاب به المتعلّق بذيل التاريخ من خبيث الروائح.

ورد على أهل مدينتنا من هذه التحوّلات ما لم يعودوا معه قادرين على التميز بين روائح الحلال والحرام والصواب والخطأ والقديم والجديد والنافع والضار والمألوف والغريب. اختلط عليهم كل شيء بكل شيء. أصبحت أحلامهم كوابيس لا توقع في ضمائرهم سوى خيالات مشوّهة ممسوخة من متناقض ما أصبحوا فيه يعيشون.

في تلك السنة امتنع الدحداح عن الرقيّ إلى نخلة مقهى النخلة عندما حان وقت جنيها. أرسل إليه صاحب المقهى من يدعوه إلى ذلك فأشاح بوجهه وأشار بيده إلى البوق المعلّق في وسطها. وجّه إليه بعض الناس وأوصاهم بأن يتلطفوا في مخاطبته فتحجّر على الامتناع حتى تناهى الأمر إلى عجوز شمطاء يخشى الجميع شرّها ويتجنّبونه بجميع الطرق لكثرة ما يُشاع من أنها "سحّارة" مؤذية وأن سحرها، والعياذ

73- اشتقاق غريب من بعّق وهو التصويت شديدا.

بالله، نافذ حوّاك. كانت تلك العجوز التي لا يعرفها الناس إلا باسم "حْرَارَة" سمراء قصيرة ممتلئة واسعة الفم بارزة الوجنتين دقيقة الأنف كثة الحاجبين زجّاء وقحة النظرات ترسل من عينيها الشهلاوين ضوء ساطعا يجمّد الدمّ في العروق. كانت دمامتها لا تطاق وكانت عند جني تمر النخلة تكتري حشدا من الصبيان ليجمعوا لها أكثر ما يمكن من حباتها. قيل إنها كانت تطمر ما يأتونها به منه في نفق مظلم بدارها عليه طلاسم نسختها من الساعة الشمسية بالجامع القديم على جلود الفئران وجماجم البوم والهداهد وتشرع في ترصدّ القمر لتنشر تمرها أقساطا على ضوئه وفق حسابات دقيقة كانت تتقيّد بها بعد تبخيرها بأدخنة ألوان من حشائش غريبة كانت تجمعها في فصل الربيع. عندما تفرغ من ذلك كله تشرع في جوب المدينة طولا وعرضا لحلّ المعقود وعقد المحلول بين الإناث والذكور خاصة. سمعت هذه العجوز، وكانت قد أسنّت، بأن الدحداح يمتنع عن "قصّ" عراجين النخلة فأتته في العشة التي كان يقيم بها فلم تزل به حتى ثنته عن قراره. تناقل أهل المدينة، بين شك وتصديق، قصصا كثيرة ومتنوّعة عن تقيّفات لبستها الساحرة حرارة كانت في معظمها مقتبسة، بعد إدخال كثير من المسخ على وقائعها، من "ألف ليلة وليلة" وما يشبهها من المؤلفات[74] التي كانوا

74- في هامش هذه الصفحة " استغرب بعض من شبان المدارس والجامعات أن تجد مثل هذه الخرافات السخيفة من يصدّق بها في هذا العصر فكشر في وجوههم آخرون زاعمين أن أبواب المعجزات لم توصد وأن العقل قاصر عن الإحاطة بما في الكون، فالجن والسحرة قد ورد ذكرهما في القرآن ومنهم مؤمن وكافر، واستشهدوا بكثير من الوقائع استمدوها من كتب المناقب والكرامات وأخبار الأولياء الصالحين وسير الأقدمين والأنبياء المرسلين. كان ذلك بمحضر المؤرخ الحزين. كان ساكتا يسمع وكأنه لا يسمع فجعل واحد منهم يخاطبه قائلا ونظره لا يبرح وجهه يتصيّد فيه وقع الكلام عليه : " هلاّ

يقرؤونها في مراهقتهم ببعض الدكاكين بحاراتهم. لكن هذه القصص تلتقي جميعا في أنه ما كاد الخيط الأسود يذوب في الخيط الأبيض حتى كان الدحداح قدّام مقهى النخلة يستعدّ لارتقائها. لاحظ الناس أنه كان مكدّرا متغيّر السحنة غير متناسق الحركات حتى أن رجله قد زلت به أكثر من مرّة في الصعود وفي النزول. عندما فرغ الدحداح من عمله تقدّمت منه حرارة بتبسي مملوء كسكسيا بلحم الخروف وقالت: "من النخلة ورجالها". نظر إليها مليّا هاما بالانصراف وامتدّت يدُه إلى التبسي فأخذ منه حفنة رمى بها في فمه وانصرف. كبّر الحاضرون وهللوا وهجم الشبان منهم على التبسي كل يريد أن ينال منه نصيبا. كان ذلك قد دخل في عاداتنا.

لم تلبث الأصوات المنبعثة من الأبواق الموصولة بالراديوات أن أصبحت جزءا من مكوّنات حياة الناس اليومية داخلة في التعوّد حتى ألفوها فلم يفطنوا إلى فقدانها إلا عندما سكتت وانقطعت بمجيء التلفاز. اقتناه، أول مَن اقتناه، صاحب مقهى البُرْطال وقام بتركيبه

نظرت إلى السماء ليلا وفكرت في الكواكب وما وراءها من مجرّات؟ أتزعم بعد هذا أن ما نعرفه عن كوكبنا كاف بالجزم بأننا نعرفه؟". ظل المؤرخ صامتا برهة ثم قال وهو يجرش رأسه بأظافر كانت يومها مقلمة نظيفة: "كل مجهول مخيف. الموروث المعشش في أذهانكم كان أجدادكم، عندما كانت الأذهان مشوّشة بالخرافات، يعقدون به صلحا مع ما منه يخافون. هل رأى واحد منكم واحدا من الجن يوما؟ هل انتفع ساحر واحد بالسحر الذي يتعاطيه؟ قد، وأقسم مثلما تقسمون، خرجتم إلى الحياة العصرية بعقول تسكنها الخرافة ويبسط الوهم عليها ظلالا كثيفة." هبّ الحاضرون في وجهه منكرين فجعل يضحك ويضحك إلى أن دمعت عيناه وقال: "أنتم لا تصدقون إلا بما تحبّون أن تصدقوا به. لو فكرتم قليلا كنتم تجدون لجميع الأساطير والمجازات وقائع مادية ضاعت أصولها فأنتم تعبدون ما لا تعرفون أنكم قد صنعتم".

فريق من الفنيين استقدمه من إحدى المدن البعيدة. كان يوم تشغيله يوما مشهودا بمدينتنا. فما أن سمع الناس بأن "صندوق السينما"، سيء الذكر،[75] قد حل بذلك المقهى حتى غصت بهم أرجاؤه وفاض بالباقين خارجه على عرض الشارع وجانبيه. وعندما بدأ التشغيل ارتسمت الدهشة على جميع الوجوه. قال أحد الواقفين قريبا من باب المقهى وهو يتأمل، عند نشرة الأخبار، ما يرى على شاشة الصندوق ويسوّي شاشيته على رأسه ساترا شعرا طويلا أهوش أغبر: " إنه يرانا. ألا ترون أنه يخاطبنا؟ نظراته تتجه إلينا. تأملوا جيدا، إنه يبتسم لنا". صاح به الآخرون أن يصمت حتى يفهموا ما يقول. انتشر الخبر بأن

75- في الحاشية :"بمدينتنا قاعة واحدة للسينما يتردّد عليها قليل من الناس. يرجع السبب في ذلك إلى أنها عرضت، بعد افتتاحها ببضعة أسابيع، فيلما هنديا رومانسيا ذاع صيته فشاهده الكثيرون مرات عديدة. كانت نهايته الفاجعة قد أثرت في الجميع حتى أن بعض الكهول والشيوخ قد بكوا من شدّة الانفعال. فرح صاحب القاعة بذلك الإقبال العظيم على ذلك الفيلم فاجتهد في العثور على شريط آخر يؤدي فيه أبطال الشريط الأول حكاية أخرى هزلية. ما كاد العرض يبدأ حتى وقف واحد من المتفرجين وصاح: " ما هذا؟ تسخرون منا أم ماذا؟ أما كان هذا الممثل قد مات؟ أما شاهدناه وهو يموت فحزننا عليه حتى بكيناه؟" ماجت القاعة وانتشر الهرج فخرّق المتفرجون بعض الكراسي ومزقوا الشاشة وهجموا على غرفة البث فخرّبوا آلاتها وخرجوا مسرورين وهم يقولون: " الذي سيضحك على عقولنا لم تلده أمه بعد، يموت بالأمس فنبكيه ويعود اليوم ليضحكنا؟" أصبح أهل المدينة، من تلك الواقعة، يرمون المترددين على تلك القاعة بالغفلة والسذاجة. أصبح يقصدها الشبان والأطفال ومتصيدو الصبيان فيظلون فيها ساعات طويلة يأكلون الفول المشوي ونوى عباد الشمس والقرع والكاكوية ويشربون المسكرات نبيذا من سقط المتاع و"لاقمي" حامضا ويكثرون من اللغط والتشويش مجبرين، أحيانا، مشغل آلة العرض على إعادة بعض المشاهد العنيفة أو الموغلة في التعرّي يشفعونها بالتعليق والتصفير والصراخ وافتعال الإثارة والتفنن في عزف " القرويات".

الذين يظهرون على شاشة التلفاز يشاهدوننا مثلما نشاهدهم. لم تفلح تفاسير بعض العارفين بالهندسة الضوئية من طلاب الجامعات في تفنيد الإشاعة فعندما اشترى بعض الموسرين جهاز تلفاز وقام بتركيبه واستدعت زوجته قريباتها وجاراتها للتفرج على هذه الآلة العجب دخلن ملتحفات يسترن الوجوه لا تبان من الواحدة منهن سوى عين واحدة خوفا من أن يتكشّف عليهن الرجال الذين يلعبون فيه. انقطعت حبال الوصل بين راديوهات المقاهي وأبواقها فالصوت والصورة أكثر علوقا بالوجدانات.

أصرّ المحباك الإبن على الامتناع عن تعليق بوق على مقهاه ورفض أن يجهزه بتلفاز. روّج بعض المتزلفين للمتنفذين بإظهار الانزعاج منه والنقمة عليه أنه قال، ملمّحا لرئيس الدولة: " لا أريد أن أرى وجهَ مَن أكرهُ في مقهاي. ما لا أريده أنا لا يريده زبائني"، وجعلوا يذكّرون بأنه كان، في فترة المقاومة، يرفع صوته عاليا بأنه يرفض رفضا قاطعا أن ينتمي مقهاه لأيّ حزب من الأحزاب السياسية. كان، طوال تلك الفترة المضطربة، يقول: " متى كانت بنا حاجة إلى الأحزاب؟ ما نحن إلا أكلة خبز، نحمد عليه الله. ترانا، من الصباح إلى المساء، نهرول وراءه في العرق فما ندرك منه إلا اليابس والفاسد". لكن الذين يعرفون الخبايا كانوا يعلمون أن المحباك الإبن ينتمي، في الحقيقة، إلى حزب "التستور" شاغلا فيه موقع الإعداد المادّي للقيام بالأعمال السّرّية وأنه كان يتستّر على ذلك ممعنا في التمويه والتضليل.

كان ذلك الحزب قد بسط يده، ما إن شرع في النشاط، على جلّ المقاهي بمدينتنا حتى كاد يجعل منها مقرات للدعاية له. لم يخرج عنه سوى مقهى البرطال فقد ظل في حوزة الشيوعيين والمستغربين. أما

مقهى المحباك فإن صاحبه كان، في الظاهر ومن قبل أن يقوم عليه،، يشيع أنه من أنصار حزب "الخبزيست[76]". لكن الذي كان لا يعرفه إلا عدد قليل جدا من الناس فنفوذٌ كبيرٌ للمحباك الابن على المدينة وأحوازها. بعض من هذا النفوذ استمده من علاقات والده القديمة بفتيان الحارات. كانت معظم العمليات الخطيرة التي يكلّف بتنفيذها، وأكثرها يتعلّق بتصفية البيوعة وترهيب بعض الأثرياء حتى يتبرّعوا بالعطايا، ينتدب لها أفرادا من المجرمين والسّرقة و"بائعي رؤوسهم" فكان يمدّ لهم، في الخفاء، يد المساعدة ويضمن لهم التخفي والتكفّل بالعائلات. كان هذا المقهى، حسب رواده، ذا روائح مموّهة لفرط ما كان صاحبه يتقيّد به من محكم التقيّة والتضليل حتى أن بعض الملتحقين بحزب "التستور" عند اشتداد عوده كانوا يشيعون ارتيابا في صاحبه مستندين في التوجس منه إلى علاقات له مشبوهة ببعض المتعاملين مع المستعمر. كان بعضهم يقول لبعض: "ما شاهدناه يوما في اجتماع ولا سمعنا أنه شارك في لقاء من اللقاءات". نقل هذا الكلام للمحباك الإبن فابتسم وقال: "ومن أنا حتى أفهم في السياسة أو أشتغل بها؟ إنما يفهم خباياها أناس من قبيل سالم الونش". لم يتضح إلا لاحقا أن "سالم الونش" هو الاسم الحركي الذي تكنّى به وظلت دولة الحماية والاستعمار دهرا تمعن في ملاحقته باذلة لمن يدلّ عليه مكافأة سنيّة. قيل إن المحباك الإبن كان يلازم طوال النهار مقهاه حتى إذا قدم الليل تحوّل، ببركات الساحرة "حرارة" إلى "سالم الونش". كانت هذه العجوز قد ترعرعت معه في بيت والده. عثر عليها، ذات فجر، ملفوفة في قماطات بالية على عتبة مقهاه فارتاع من دمامتها وألحقها بعياله.

76- نسبة إلى " الخبز" والمصطلح يعني الذين يهتمون بتدبير المعاش دون اهتمام بالسياسة.

يطعن في هذا كثيرون مستندين إلى أن فارق السن كبير بين المحباك الإبن والساحرة "حرارة".

سألنا المؤرخ الحزين عن روائح المقاهي في تلك الفترة فقال: "عندما يولد سكان هذه المدينة تسبقهم رؤوسهم كسائر المخلوقات غير أنهم يظلون، دونهم جميعا، يمشون على الرؤوس. من كان يتوقع مثلا أن مقهى البرطال يمدّ فيه "الكوكوات" أرجلهم؟ صاحبه إمام في الجامع البراني ابن إمام، لولا أن شهوة الكسب لا دين لها ولا مبدأ. من كان يتصوّر أن الأحزاب جميعا تزهد في مقهى العنبة رغم أن رواده من أنصاف العمال والعاطلين. جيش كامل جاهز للهجوم؟ كان الفكر لدينا بلا ساعد وكان الساعد بلا فكر. بل نحن لا نفكر أصلا. وحتى عندما جاء الدستور فإنه لم يزد على تسخير السواعد العاملة وغير العاملة لما كان يرمي به لها من قرارات تصبّ، عند التأمل...". قاطعه أحد المشاكسين قائلا: "وأنت أين كنت يا حضرة المؤرخ؟" تجاهل المؤرخ سؤاله فقال آخر: "كان غارقا في بحور بعيدة... بحور وداد". لم ينطق المؤرخ بحرف. أطلق تنهيدة كاوية ولملم نفسه للانصراف يحاذر، على عادته، أن يصطدم بذات عجلات.

عندما أصبحت مقاهينا الستة المنكفئة على نفسها خلف الجامع القديم مصبّا لجميع الأخبار ومنطلقا لها فقدت الدكاكين بالحارات قدراتها على صنع الأحداث ونشر ما ينبغي أن ينشر عنها. لم يعد الشبان المبتدئون في الإقبال على شرب الخمرة أو الفقراء المعدمون يثيرون الهرج قرب الدكاكين التي يجتمع بها أعيان كل حارة لترشف الشاي والتّداول في شؤونها الخاصة وشؤون المدينة والناس، فيخرج لهم بعضهم ويسوقونهم إلى بيوتهم سوقا لطيفا. لم يعد تداول الأخبار

في نطاق الحارات يرضي أولئك الشبان من الفقراء وغيرهم، فأشهر من ذلك أن تسمع بهم المدينة كلها. أمّا ما يحدث ليلا بالأزقة والدكاكين المغلقة والجنائن والخرابات وبمقبرة المدينة ، قبل أن يتمّ نقلها إلى وادي برقوق، وببعض الأضرحة المنزوية فكان كله يصبّ في المقاهي من ساعات الفجر الأولى. أصبح ما يحدث ببيوتنا وأزقتنا وحاراتنا تأتينا أخباره من مقاهينا.

استقرت هذه المقاهي في المركز من خضم الحوادث الكبيرة والصغيرة التي عرفتها مدينتها منذ شرعت في الانتقاض على دولة الحماية والاستعمار وسلخت معظم عمر دولة الاستقلال والسيادة. كانت تلك الفترة عهدا ذهبيا في إطلاق ألوان من الروائح الثقيلة على حياتنا اليومية حتى تضمّخت بها فأصبحت تتضوّع منها.

أما العارفون بخبايا مدينتنا فيتفقون، وهم قلما يتفقون على شيء، في أن فترة ما بين الحربين كانت شديدة الموافقة لجميع الروائح حتى تشق لنفسها طريقا بين الروائح الغازية وتسبقها إلى الهضاب والمرتفعات المحيطة وتعمّ منها عليها. ففي هذه الفترة ظهر جيل شاب فيه نباهة ومخاطرة ومضاء. جيل تعلم في مدرسة الفنكوآراب على أيد معلمين معظمهم من خارج مدينتنا وفدوا عليها مجبرين نظرا إلى السمعة المتوحشة التي انتشرت لها. استطاع بعض من هؤلاء المعلمين أن يحوّلوا التنابذ والتعادي بين الحارات إلى تنافس في طلب العلم والمعرفة. قال بعض المعمّرين حافرا في ذاكرته: "كلّ حارة كانت تنتدب لمرافقة الصبية المترددين على المدرسة رجالا أشداء يحمونهم مما يمكن أن يلحقهم من أذى يبيّته لهم عتاة من الحارات الأخرى. حتى اليهود كانوا يكترون لحماية صبيتهم من روّاد المدرسة شبّانا جبابرة من المسلمين. في

قاعات الدرس كان صبية كل حارة يجلسون في ركن واحد. انتبه إلى ذلك معلم إيطالي فأقدم على ترتيب التلاميذ في المقاعد حسب حروف الهجاء. امتنع بعض الصبية عن الجلوس بجوار غير أبناء حاراتهم ورفعوا أصواتهم بالبكاء. أصرّ المعلم على تنفيذ ما كان قد أقدم عليه. قصده بعض الأولياء لمراجعته في قراره فاقتدى به معلمون آخرون. ثم أقبل على أذهان التلاميذ فنسف فيها أفكارا كانت معششعة فيها. كان تأثير ذلك المعلم في أولئك التلاميذ قويا. زرع فيهم ولاء للوطن جعله فوق الولاء للحارات. لم يكن الوطن الوطن يعني لدى معظم أهل المدينة شيئا". انتقل أولئك المعلمون إلى اصطحاب بعض التلاميذ المتقدمين في السن إلى المقاهي التي كانوا يجلسون بها فاستغرب الناس ذلك ثم انزعجوا منه. انزعجت من ذلك دولة الحماية والاستعمار فانزعج لانزعاجها خدمُ البايات من الأعيان وجعلوا يشهرون بهذه البدع التي لن يأتي منها إلا بلاء عظيم. نقلت الإدارة أولئك المعلمين إلى مدن أخرى. لم يبقوا بمدينتنا سوى ثلاثة أعوام لكن تأثيرهم في الجيل الذي تعلّم عليهم كان حاسما في تغيير أشياء كثيرة. كان المؤرخ الحزين، وكان قد تربّى على هؤلاء المعلمين، يفرط، أحيانا، في الثناء عليهم. كان يسميهم واحدا واحدا ويقول:"ألفوا بين أناس كانوا يدينون بالتنابذ ونشروا أفكارا من عصر التنوير وعقدوا المعرفة بالعمل وغرسوا في الناشئة معنى آخر للوجود مختلف عن تمضية العمر في تجميع الحسنات. كانوا يدينون بالإنسانية".

كان من تأثير أولئك المعلمين أن النقاشات في مقهيي النخلة والبرطال خاصة أصبحت لا تتمحور في الثنائية "نحن و هم" لتشمل قضايا عامة تهم البشرية قاطبة في ملحمتها التاريخية ضدّ الجهل والفقر

والطغيان والظلم. قيل إن من رواد مقهى العنبة نفسه من أصبح يلتحق بهذه المجالس للاستماع مندهشا إلى ما يقال فيها وإن كان يكاد لا يفهم شيئا. حاولت بعض الأحزاب أن تبسط يدها على هذه الحركة الفكرية فتصدّى أشدّ الشبان تأثرا بأولئك المعلمين. كان بعضهم قد حافظ على صلة بهم فرفعوا أصواتهم منادين بأن العمل الثقافي فوق التنظيمات الحزبية. لم تستمرّ هذه الحركة إلا بضعة أشهر فقد أوقفها نزول الألمان ومرورهم بمدينتنا. أقدم كثير من الناس على الترحيب بالمحور شماتة في الفرنسيين المهزومين. تجرّد المؤرخ الحزين للطعن في هذه الشماتة فشرع المختلفون معه في النيل منه. اشتدت الخصومة في نصرة الألمان وعدم نصرتهم. طفت على السطح الخلافات القديمة وركبتها روائح أخرى مشتقة، في جلّها، من الهوية العربية والإسلام والنصرانية واليهودية. طغت الأهواء والميول على التفكير المتنوّر. تعطل كل شيء.

ما كاد الألمان ينسحبون حتى حلّ عهد من تصفية الحسابات القديمة. لكن الذي خفّف من شدّة الثارات أن مدينتنا لم يلحقها من قصف الأحلاف شيء. نشرت بعض الألسنة أن الذي جنّبها ويلات القنابل المتهاطلة من السماء بالليل والنهار إنما يرجع إلى إقامة اليهود فيها. لكن يهودنا كانوا قد شرعوا، من قبل أن تضع الحرب أوزارها، في تدبير أمرهم للرحيل. وجد الناس، عندما فطنوا لما كانوا يدبّرونه في الخفاء، عليهم وجدا كبيرا. اشتعلت مدينتنا بالمظاهرات.

كانت تلك المظاهرات ما تكاد تنطلق ويقبل الشبان من مقهى العنبة خاصة ومقهى المحباك ومقهى النخلة على التخريب والنهب ويفزع لهم في ذلك الكهول وتشرع المحلات التجارية في الاستعداد لإغلاق أبوابها، حتى تتحوّل طاولات المقاهي وكراسيها إلى متاريس وحواجز

في الشوارع والطرقات والأزقة الجانبية فإذا أقبل البوليس والجندرمة مدعومين بالعساكر وتوقفت آلياتهم عند تلك الحواجز لإزالتها نشبت معارك ضارية كان رجالنا يخوضونها من على السطوح. في هذه الأثناء احترق مقهى العنبة ولحق مقهى المحباك تهديم كاد يأتي عليه. قال المؤرخ الحزين:" إذا فسدت الحياة اليومية وادلهمّت الآفاق وحلّ اليأس بالنفوس هانت الأرواح على أصحابها. تبقى الظهور محنية ما دام في الدنيا أو الآخرة بصيص من أمل. الشعوب والجموع والجماعات ليست مجموع أفرادها. الذكاء الذي فيها، وهو ما يصطلح عليه بالحس الشعبي، ليس أدنى الفطنة وليس أرقاها. إنه طاقة فعّالة موطنها من الإنسان ما وراء العقل والحس". كان يورد، في تدعيم ما يهدر به، أمثلة عديدة يذكر فيها أفرادا معروفين عند العام والخاص وبالمسالة ودماثة الأخلاق وتجنّب السياسة وأحزابها، خربهم الرصاص عندما ركبهم، فجأة جنون الهيعات، فألقوا فيها بأنفسهم لا يشعرون بشيء. كان يقول :"أقسم حيث شئتم بما شئتم، أنهم كانوا أناسا عاديين يحيون حياة عادية. لكنهم عندما وجدوا أنفسهم في وضع غير عادي ولفحتهم روائح الجموع ركبتهم شياطينها، اندفعوا في ما لو كان مجرد خاطر يخطر لأنكروا أن يخطر على أذهانهم إنكارا واستغربوه".

تعرّجت بمقاهينا الستة، في هذه الفترة، روائح البارود والهيعات والدعاية والخلاف والخصام والتخاذل والفضائح والغدر وانتشرت بها فمازجتها روائح المخبرين والصبابة والأغراب واقتحمتها روائح النوكى والطمّاعة والمجانين وعلتها أو ركعت لها روائحنا القديمة[77]

77- عدا روائح النساء، فليس لهن في هذه الفضاءات الخاصة بالذكور مكان ولا جرؤن على اقتحامه يوما. لكن روائحهن الأصل لجميع الروائح المتأصلة فينا كانت شديدة الحضور بالغياب،

فتكوّن من ذلك كله خليط كان يجتمع كخفيف الضباب متعرّجا على أيامنا بالبطولة المجانية النادرة وشهوة المشهد الخلاب والمبتذل والقتل العشوائي والانتقام والتشفي والعبث بحياة خوّانة غدّارة لعوب. روى واحد من أصحاب المؤرخ الحزين عنه أنه قال متحدثا عن هذا العهد: "أطرف ما كان فيه تنوّعٌ خلاق في المقاومة والجريمة والتعاون والتكاتف كما في تزجية الفراغ والثرثرة. لم يكن الناس، من شدّة الثقة بالنفس، يستوحشون من شيء أو ينكرونه أو يتخوّفون منه. كان ذلك قبل أن يلحق مخيلة الناس التصدّع الذي لا ينجبر، قبل أن تشرع دولة الاستقلال والسيادة في إطلاق أبخرتها النتنة ترويضا للوحش المنفلت".

ما كادت دولة الاستعمار والحماية ترفع أذيالها مشمرة للهرب حتى أقبل أصحاب المقاهي على تعهدها بالاستصلاح والتوسعة والتزويق. توشحت جدران مقهى المحباك بصور زعماء النضال الوطنيين محليين وأشقاء. لكن جاء من همس للناس بأن صاحبه كان، في الحقيقة، مواليا للطائفة الخاسرة من طوائف النضال ضد المستعمر. قيل إنه كان ممتعضا من الاكتفاء بالاستقلال "الداخلي"، رافضا لتسوية الحسابات بالاغتيال حتى نُقل عنه أنه هدّد بإشعال البلاد حرائق لا تستثني أحدا. وعندما جعل بعض الذين كانوا مقربين منه يروّجون أنه لم "يسلّم من

فما من صغيرة أو كبيرة إلا تبلغهن تفاصيلها قبل أن تستقر، أحيانا، في أسماع الرجال، وكثيرا ما تصدر ردود الأفعال عنهن ينقلها الأطفال إلى من هم أكبر منهم سنا. كانت المرأة من نسائنا، عندما تبلغها أخبار الهيعات والمشادّات والمعارك، كثيرا ما تشتعل في وجه صبي أو صبية من صبيتها أو من صبية الجيران قائلة: " أدرك أخاك أو أباك أو عمك. سلمه هذا السكين. قل له أضرب بالحجر. لا ترجع قبل شفاء الغليل"، وتظل وراء الباب الموارب تتابع الأخبار تستقيها من المارة.

السلاح الذي سرّبته من الشرق زوارق صيادي السمك إلا القليل" بدأ الطامعون من الغنيمة في الفتات يفترون عليه ملمّحين إلى أن إحدى يديه كانت ممدودة للمستعمر، فهو في النهار المحباك الإبن وفي الليل سالم الونش. هل يمكن أن يعمى المستعمر عن الصلة بين الاسمين؟ ظل مقهاه على حاله ثم شرع في التراجع. أصبحت حصر الأسل المفروشة فيه على الدكانات بالية ملطخة بكثير من البقع السوداء إذ كثيرا ما كان حرفاؤه يتعمدون وضع سجائرهم عليها عند لعب الورق. تلطخت أيضا بتلك البقع السوداء الطاولات الخشبية القليلة التي كان يقيمها في الفضاءات الضيقة بمقهاه أو على حاشية من الرصيف أمامه. بدأ الزمن ينال من زبائنه أنفسهم فصار يضع لهم قرب كل طاولة وفي زوايا كل دكانة أوعية فخارية مملوءة رملا أبيض ناعما للبصاق كلما دهم بعضهم سعال. أصبحت للمقهى رائحة غافة ثقيلة شبيهة بروائح المحلات المتروكة المغلقة يكاد لا يصبر عليها إلا الذين كانوا قد شهدوا الهيعات أو شاركوا فيها فوجدوا أنفسهم خارج دائرة المناضلين. كانوا يتجنبون الحديث عن تلك العهود ويلعنون زمنا صيّر الجبناء الرعاديد أبطالا والأراذل أخيارا والمآبين أعيانا ومتنفذين. كان المحباك الإبن نفسه قد بدأت تأخذ منه الأيام. أصبح يفتح مقهاه في ساعة مبكرة ويبقى فيه لا يبرحه إلى حوالي منتصف النهار ولكنه لم يعد يتعهد جزواته النحاسية بالعناية أو التجديد. كان يمضي الوقت جاثما بمقعد له قريبا من جهاز الراديو ينصت دون انتباه إلى نشرات الأخبار الأجنبية فتنبعث منه ومن مقهاه روائح الصدق البالي والكمد الطويل والأسف، تكاد تدمع لها العيون.

قيل إن رئيس الدولة، عندما أصبح يعيش في الماضي أكثر من

الحاضر، تذكّر المحباك الإبن في إحدى زياراته الكثيرة إلى الجهة التي بها مدينتنا فسأل عنه وطلبه. هبّ إليه المهرولون في ركاب السلطة والمتعلّقون بأذيالها يزفّون إليه الخبر السعيد، فقال لهم :"لم يعد بيني وبينه شيء فما الداعي لأن أذهب إليه؟" . لكنهم أصرّوا على أخذه إليه ففي ذلك فرصة من فرص مقابلة رأس الدولة ومنقذ الأمة وقائدها قد تكون منفذا لبعض المغانم. ما كاد المحباك الإبن يمثل بين يدي الرئيس حتى صاح به:" إيه يا ولد المحباك أو... يا سالم الونش" . وأطلق ضحكته التي يخرجها من أقصى الحلق. "عملتها ووقفت ضدّي. راهنت على غيري. بان لك، اليوم، الحق من الباطل أم لم يبن؟" . قال المحباك:" أول فصْل، سيدي الرئيس، ما انقلبت عليك ولا راهنت على غيرك أو خرجت على سياسة الحزب. كنتُ، لا أكثر ولا أقل، ضد أن يصوّب الإخوة في الكفاح سلاحهم بعضهم إلى بعض. وثاني فصْل جاءك بالباطل من جاءك به فصدقت قبل التثبت" . تغيّر وجه الرئيس فهمهم لعنات باللسان الفرنسي مبهمة وقال مخاطبا الواقفين حوله شافعا كلامه بإحدى حركاته المسرحية: "تليين مثل هذه الرؤوس الكاسحة كان معجزة من المعجزات"، ثم رشق عينيه في المحباك الإبن وقال: "تحتاج إلى شيء خاص تصلح به أحوالك؟" . لم يغب عن المحباك الإبن ما في الكلام من مقصد للإذلال فقال: " أمّا لي فلا، وأمّا..." . بان الغضب في وجه الرئيس فهمّ بالتحرّك للوقوف فهرع إليه المقربون من الساعين بين يديه ودفع آخرون المحباك الإبن برفق إلى خارج القاعة ثم انفضّوا عنه فألفى نفسه وحيدا فجعل يحث الخطى عبر مماشي الحديقة نحو بوابة القصر الرئيسية.

فاحت دفرة نتنة بمدينتنا رائحة مقابلة رئيس الدولة للمحباك الإبن.

حرّكها، في الحقيقة بشدة حتى عجّت وانتشرت، المهرولون في ركاب السلطة مستعظمين أن يغضب علينا سيادته بسبب كلام أخرق جَبَهَهُ به، بمشهد من عَبَدته، رجل أحمق فاتته جميع الأرتال وأتلف التكروري جميع خلاياه الذهنية فلم يجد للتأقلم مع الزمان الجديد سبيلا. كانوا يسعون إلى كظم نقمتهم على المحباك الإبن بتكوين وفد من وجوه المدينة يقدمون باسم سكانها أجمعين قِفَافًا من الاعتذار للزعيم المفدّى التماسا لرضاه. كلبت على هذه الأمنيةَ طائفة من كبار الأعيان الجدد ممن انتفع بخيرات الاستقلال والسيادة فصار سعيهم وراءها خبَبًا. وعندما أصبح الوفدُ جاهزا وتمّ الاتفاق على الهدايا التي سترفع إلى سيادة الرئيس ورُفعت الرغبة إليه فاستبعدها بإشارة من يده، صار المحباك الإبن يُذكرُ فيُلعن حتى اقترح بعضهم أن تنشر المدينة أنها تتبرأ منه. تضوّعت رائحة الهرولة في قوافل الزعماء ثم عصفت حتى انتشرت وأصبحت عامة تثير غبارا كثيفا يكدّر الأبصار ويعمي البصائر.

في تلك الأثناء نزلت بمقهى المحباك فرقة من فرق المراقبة الصحية. كان أعوانها، خلافا للمعتاد في التعامل مع قدماء المناضلين، متعجرفين. أرهقوه بالأسئلة الساخرة والملاحظات وهددوه بإغلاق المحلّ متى لم يبادر إلى صيانته. قال لهم: "إذا كان المقصود أن أغلق المقهى فقولوها واضحة. أما اللف والدوران فعيب. ليس من شيمنا. كان الواحد منكم مكشوف الدبر، تشدّ له أمه القميص إلى ظهره بمسّاك، وكنّا نلعب بالموت لعباً في سبيل الوطن". سمع بعض الناس بمضايقة المراقبة الصحية للمحباك الإبن فأتوه مستلطفين، لكنه صرفهم قائلا: "لهوَثونا وقضي الأمر، غاصت اللقمة في حلوق الذين كانوا خانسين تحت الجرار بالمخازن المظلمة". ومن يومها لازم بيته لا يبرحه

فأصبح أكبر أولاده قائما على المقهى يسعى جاهدا للنهوض به. كفّ أصحاب المحباك الإبن عن التردد على مقهاه وانقطع منه عبق قهوة الجزوة المفوّحة بدمعة من مقطر الزهر حتى لم يعد يذكرها أحد. كانت الدولة قد ملأت بالإدارة يدها وأرسلتها مقبوضة لتهشيم الأنوف التي ظلت تتطلع إلى نفحة من عطر.

علّق صاحب مقهى النخلة على جدار واحد صورا لبعض الزعماء الوطنيين وبعض الرؤساء من المشرق العربي. تريّعت فيه رائحة للسياسية لم تكن يوما ساطعة. أكثر روّاده لم يكونوا منتمين إلى أي حزب من الأحزاب. أصبح يتردد عليه شبان المدارس مهووسين بأن يرقوا بالتعليم إلى مراتب اجتماعية أرفع. اندس بينهم بعض الناقمين على التعليم العصري ملوّحين برايات العروبة والهوية والإسلام. كانوا يتحسّرون على التعليم الزيتوني منتشين بشميم أمجاد غابرة مصنوعة ويشتمون هذا الزمان المتفسّخ العفن.

أما مقهى العنبة فلم تعلّق به صور ولكن صاحبه غيّر اسمه فكتب على واجهته باللون الأحمر "مقهى المستقبل". لم تسر التسمية إلا لدى بعض الأغراب، فظل رواده يطلقون عليه اسمه القديم يصحّفونه أحيانا فيجعلونه "الكذبة" تورية للتشنيع بالاسم الجديد الذي صار يتوشّح به. أصبح يتردد عليه بعض النقابيين وجمع من الشباب اليساري المؤمن بالديمقراطية يحلّها محلّ دكتاتورية البروليتاريا مبشرا بالدولة الاشتراكية الراعية للجميع. كثر فيهم المندسون من أصناف المخبرين والمنضوين سرّا في صفوف الحزب الحاكم. تضوّعت منه، زمنا، روائح المعجون المهرّب الذي طال به الخزن حتى لم يعد يصلح للاستهلاك.

غيّر مقهى البرطال اسمه أيضا فكتب صاحبه على واجهته البارزة

"مقهى السلام". صرف مالا كثيرا في تحسينه. وعندما فتحه من جديد أقام فيه حفلا وزّع فيه المشروبات مجانا. التصق شابان خبيثان، أثناء الحفل، بكنتوار[78] المحل وكان من خشب معجون، وأخرج كل منهما قضيبه فدسه في تجويفات النقوش وبالا دون أن يشعر بهما أحد. ساح البول على الأرضية وفاحت نتونته خبيثة فتأفف من ذلك من تأفف ولعن من لعن. اكتسب المقهى اسم "مقهى البوّالة" فظل ملازما له بضعة أشهر. لكن التسمية، لحكمة في عبقرية لغتنا، لم تعلق به. سقطت الكلمة النابية فأصبح لفظ المقهى خاصا به دون المقاهي الأخرى. حتى لفظة "السلام"، وكانت منقوشة على صندوق من زجاج به ضوء رفّاف مرشوق في أعلى واجهته رماه أحد الأشقياء من صبياننا المشاكسين بحجر فتهشمت فلم يعد يتذكرها أحد. ازدهرت أعمال صاحب هذا المقهى بالمكانة التي اكتسبها لدى وجهاء المدينة عندما أصبح مقصدهم المفضّل. هيأ لهم فيه مقصورات جانبية كانوا ينبسطون فيها بعيدا عن أعين الفضوليين وروائحهم الخبيثة. تضوّعت من تلك المقصورات روائح "أفاريات"[79] غريبة عن مدينتنا عندما شرع أثرياؤها في هجر روائح الذهب والفضة والزياتين والعقارات ليندفعوا نحو البنوك والشركات يستثمرون فيها أموالهم.

أصبح أحد المقهيين الآخرين يسمى "الرّلي"[80]، بينما صار الآخر يسمّى "مقهى الأحباب". وأنشئت مقاه أخرى صغيرة داخل الحارات

78- الحاجز القصير الذي يفصل الركن الذي تصنع به القهوة في آلاتها عن الفضاء الخاص بجلوس الحرفاء.

79- مشتقة من لفظة فرنسية، تعني، في لغتنا، جميع التدابير للحصول على الكسب والمال.

80- محطة الرحيل، فرنسية.

وفي الأحياء الهامشية وخارج المدينة، تابعة، في معظمها، لمقهى "رضاب الهضاب" المطروح من الحساب فهي كاللواحق به. أطلق عليها أصحابها أسماء تسرف في التفاؤل ووضع لها أهل المدينة أسماء أخرى تسرف في التشاؤم سرعان ما علقت بها. كانت هذه المقاهي الجديدة محلات خاصة جدا للاتجار في ما لا يسمّى وترويجه حتى قد تضوّعت منها روائح لم يقدر الكثيرون على تبيّنها أو وصفها فأطلقوا عليها جميعا عبارة "الفَوَاسِي[81]". وعندما نبّههم أحد شبان المدارس، من الولعين بالنظر في المعاجم القديمة، إلى بذاءة اللفظة مستشهدا بالمثل السائر " أفحش من فاسية"، استغربوا ضحكا حتى خرجت ألسنتهم وتدلت، وقالوا: "سبحان الله، جعل لساننا أصلا لجميع الألسن. ما نظنه إلا اللسان الذي سيتخاطب به أهل الجنة. هل في عربية اليوم أكثر عروبة من لساننا؟"

لكن هذه الروائح التي تعرّجت في مدينتنا على امتداد العقود الأولى التي أمسك فيها رجال من أبناء الوطن بمقاليد السلطة قد دخلت عليها روائح أخرى وامتزجت بها محدثة خليطا متنافرا فاسدا وعقيما في جملته. فمنها روائح غربية كانت تهبّ علينا عاصفة، في بعض الأحيان، محدثة باندساسها في الأنوف تصدّعا في الأذهان ووجعا في الرؤوس هو إلى الشقيقة أقرب. تتعكّر عندئذ الأمزجة حتى ترى بعض الناس يقول لبعض: "دخل في يومنا ما كنا نكره في أمسنا حتى صار جميع ما نستوحش منه مألوفا. طوّقتها هذه الروائح اللعينة ونفذت إلينا من مسامّ الجلود حتى صار الواحد منا إذا تشمّم نفسه أنكرها وذهبت

81- ضرب من الخنافس محددة الذنب تفسو إذا مشت. ذكر بعض اللغويين أنك إذا بصقت عليها ماتت وأنها تكثر حيث تنتشر الجعلان.

به الظنون إلى أن شخصا آخر لا يعرفه قد حلّ فيه". ومنها روائح شرقية كانت، بين الحين والحين ترد علينا، متلفّعة بكثير من الغبار فتحدث في الأنوف رشحا غريبا حتى ترى الناس يعطسون ويعطسون ويسعلون ويبصقون مشتكين من وهن شديد في الرّكب لترتفع، تقوية للهمم الخامدة، أسعار وصفات المشعوذين وأثمان البيض والفلفل الأسود والثوم والبصل والكراث والإكليل والزعتر والعسل من عظيم ما يشتدّ عليها من طلب. تخبث عندئذ الروائح في الأفواه حتى ترى الناس يقول بعضهم لبعض بعد أن يُشيحَ الواحد منهم بوجهه عن مخاطبه حتى لا يؤذيه بنتنها: "لم تعد للحكمة الوافدة علينا من أمسنا علاقة بحاضرنا. كيف استطاع أجدادنا أن يصبروا على مثل هذا النكد الذي لا يجعل الأصوات إلا عويلا أو شهيقا أو تأوّها أو أنينا أو زفيرا أو حشرجات؟" ومنها روائح أخرى لا شرقية ولا غربية كانت تهم بالمزاحمة فتردّها خاسئة مدحورة الرائحتان الغربية والشرقية. تنكمش على نفسها في بعض الوهاد فتهتدي إليها بعض الأنوف اليافعة فينتعش أصحابها وترتفع أصواتهم بالتهليل فتنخلع، في الدوائر الحاكمة والمتنفذة، قلوب وترتجف أفئدة لتنطلق وراءها فيالق الملاحقة تتعقّبها شاتمة رافعة الصوت بشعارات مضمخة بروائح المعاصرة والتمدّن والهوية والإسلام[82] ناشرة، في وجهها، كثيرا من الأبخرة الكثيفة. ومنها روائح

82- في الهامش" نظم شاب من طلبة الجامعة، في هذه الفترة من عهد دولة الاستقلال والسيادة، اجتماعا سرّيا لطائفة من رفاقه بأحد أرياف المدينة سمّوه " مؤتمرا" خارج الرتبة. كان لوالد هذا الطالب جنان من شجر الزيتون به بيت ريفي تحدق به طابية من الزّرب والهندي. توافد رفاق الشاب على مدينتنا فرادى. كانوا ينزلون بمحطة النقل قريبا من مقهى "الرّلي" فيقودهم ذلك الشاب أو يرشدهم، في نطاق التكتم والتمويه، إلى مكان الاجتماع. استقل بعض منهم دراجات هوائية وبعض آخر سيارات أجرة من

أخرى مزيج من كل شيء طيب طيبا صناعيا مغشوشا ونتن نتونة طبيعية وقحة متعجرفة تغرق فيها حياة الناس اليومية فإذا كل يضع على جبهته عصابة يشدها عليها شدّا قويا تسكينا للوجع وإسكاتا للحيرة.

سأل أحد شبان المدارس المؤرخ الحزين في آخر أيامه معابثا عن هذه الروائح جميعا ما بالها، في بلادنا، دائما نتنة فقال له: "إذا ضعفت الدولة أو لم تكن موجودة أصلا احتكم المجتمع إلى الأخلاق. هذه هي القاعدة التي أكّدها التاريخ. لكن التاريخ مزوّر جدّا كثير الضجرات، فهو يحبّ العبث يتلهّى به عن الروتين. دولة البايات مثلا دولة ضعيفة بإجماع، لكنها لا تعترف لا بالقوانين ولا بالأخلاق فهي دائما تنتهكها وتعتدي عليها. علاقتها بالرعية علاقة جباية لا غير. أما دولة الحماية والاستعمار فلها قوانين وليس لها أخلاق، غير أن قوانينها تجري في بلادها على مواطنيها من دوننا. وأما دولة السيادة والاستقلال التي هي ليست بدولة أخلاق أو دولة قوانين فتريد أن تحكمنا بالأخلاق والقوانين

ذلك النوع الذي يستعمل في النقل الريفي. كان من بين المؤتمرين فتيات اقترح منظم المؤتمر أن يأتين متنكرات في لباس الذكور. انتبه أحد الصبّابة إلى واحدة منهن ساوره فيها شك من هيئة عجيزتها والطريقة التي كانت تحرّك بها أردافها عند السير. ذهب في ظنه أنها من اللاتي كثيرا ما كان شبابنا المكبوت يولم بهن في الجنائن والأرياف القريبة فزيّنت له نفسه أنه إذا تعقبها وفاجأها وأصحابها في موقف حرج وصرخ "واأخلاقاه" أصاب منها نصيبا. جعل يتتبّعها ومرافقيها من بعيد حتى أثبت المكان الذي اتجهوا إليه. تسلل محترسا إلى ناحية المنزل الريفي حتى إذا أدركه تسلق جدرانه الطينية إلى سطح غرفة تشرف على صحنه. استلقى على بطنه وزحف لاستراق النظر إلى ما يجري فيه. كانت تتناهى إليه أصوات لم يتبينها فتملكه العجب من أن يأتي شبان هذا الزمان متعهم جماعات. ما كاد الظل ينكسر على صحن الدار حتى خرج الطلاب والطالبات للجلوس على حصر من الأسل فرشت فيه. ارتاع من عددهم ومن الكلام الذي سمعه منهم. أيقن أن الحظ قد ساقه إلى التكشف على سرّ وراءه مغانم لا تعدّ. جعل يثبت

معا". قال أحد الشبان:"دوّختنا بكلامك حتى لم نفهم شيئا". قال المؤرخ :"تريد مثالا ييسّر عليك الفهم. قبيل الحرب الثانية بقليل سجنت دولة الحماية والاستعمار جارتنا منّانة في حبس جديد أقامته بمدينة قريبة

في ذهنه بعضا مما كان يسمع ويسجل في ذاكرته ما كان يرى ثم انسحب رويدا رويدا وجرى إلى المكان الذي كان قد أخفى فيه دراجته الهوائية عاقدا العزم على إيصال الخبر قبل انفضاض ذلك الاجتماع الخطير. لكن أصاب إطار إحدى عجلتي الدرّاجة عطب. جعل يقودها بعسر فما أدرك المدينة إلا وروحه تشرف على الخروج. جرى إلى مقر الحزب الحاكم وشرع في صبّ الخبر للقائمين عليه وهو يلهث وجسمه يتفصّد عرقا. كان يقول:" أدركوا الدولة قبل أن تخرج من أيدينا أو تخرب" ثم يدخل في الجزئيات والدقائق والتفاصيل. جعل القوّامون على مقرّ الحزب الحاكم يقاطعونه بالاستفسار وهو يحثهم على إدراك الدولة. سألوه عمّا إذا كان المؤرخ الحزين من بينهم. قال الصبّاب:" لم أره لكن الكلام الذي سمعته كلامه".ضاع في الأخذ والردّ وقت كثير حتى إذا انتقلت سيارات برجال الحزب الحاكم إلى المكان الذي دلهم عليه الصبّاب لم يعثروا في المنزل الريفي إلا على حارسه. استنطقوه فأخبرهم أن ابن صاحب الجنان قد استدعى أصدقاء له لتناول " خبزنا الدياري" واللبن والكسكسي بلحم الخروف. اقتاد رجال الحزب الحارس إلى إحدى الغرف وأذاقوه من حرّ أيديهم وأرجلهم ما جعله يبوح لهم بالحقيقة. لكنه لم يكن يعرف إلا القليل فكان تحت اللكم والركل يجنح إلى الاختلاق والارتجال حتى يئس منه المستنطقون. انتشر بين الناس أن عصابة من " الثوار" قد حلت بمدينتنا لتدك أركان الدولة. زعم كثيرون أنهم شاهدوهم يتكلمون بلغات غريبة ويحملون أسلحة وأنهم ينتظرون مقدم الظلام للهجوم على المنازل وانتزاع الأطفال والنساء رهائن. انتشر في الحارات والشوارع وفي مداخل المدينة شبان الحزب الحاكم ورجاله يحملون عصيا ويضعون في أفواههم صفارات للتصدي لهؤلاء الغزاة. أما رجال الحزب الحاكم فقد قبضوا على والد الطالب واقتادوه إلى مركز الشرطة للتحقيق معه. قيل إن الرجل، وكانت له في مقاومة الفرنسيين أيام لا يجحدها أحد ذاق فيها طعم السجن والتعذيب، قال للمحققين إن صلته بولده قد انقطعت من اليوم الذي أصبح فيه يتعيّب الحكومة ويسخر من رجالها ويتهكم على الدين. اختلف أهل المدينة في اختلاق أسماء كثيرة للتنظيم الثوري الذي ينتمي إليه ذلك الطالب ونسبوا إليها جميعا وقائع

ردّا على تشهير بعض الأحرار من أبنائها على سياستها ببلادنا. كانت منّانة قد اعتدت على جارة كانت على علاقة بفرنسيّ من الجندرمة. كان لها، عندما حبست، رضيع متعلق بثديها. بعد بضعة أشهر جاءتها

أسطورية تخبطوا في تقريبها من الأذهان تخبطا عجيبا. بعد بضعة أشهر سمع الناس أن الطالب ابن مدينتنا قد قبضت عليه إحدى الفرق الساهرة على سلامة التراب وأمن الدولة وشاهدوا والده وهو يتردد، محنيّ الظهر، على المسؤولين والمتنفذين القدامى والجدد مستجديا أن يراعوا ما كان قدّمه للوطن من خدمات حتى تكون الأحكام على نجله خفيفة. لكن الدولة عملت بالقول المأثور عندنا " اضرب القطوسة حتى تتربّى العروسة" فكانت الأحكام على أولئك الطلاب مرعبة. لم يطالبوا، مثلما اتضح من المحاكمة التي عقدت لهم على مقاس أهواء الحكومة، سوى بشيء من الحرية في التعبير فرمي بهم في السجون لأعوام طويلة بعد أن كُفّروا وألصقت بهم جميع النعوت التي تجعل منهم أعداء للوطن خطيرين.

راج بين الناس أن الحكومة كانت تعرف عن التنظيم الذي كوّنه أولئك الشبان كل شيء فهي قد دسّت فيه مخبرين كانوا يطلعونها على كل صغيرة وكبيرة. كان مروّجو هذا الكلام يؤيدونه بأن الصباب الذي تكشف صدفة على الاجتماع قد تمّ الاستغناء عن خدماته فأصبح منبوذا من الجميع . أما أهل مدينتي فقد تحسروا، من ناحية، على شباب أولئك الطلاب وعدّوهم، من ناحية ثانية، من المغرّر بهم فالأفكار التي نسبتها إليهم حكومة الاستقلال والسيادة عبر أجهزتها الإعلامية ترميهم، علاوة عن الكفر والإلحاد، بمعاداة العروبة والوطن والتفسخ الأخلاقي والدعوة إلى عيش حيواني لا يرى حرجا في أن يقع الأب على ابنته والشاب على أمه والأخ على أخته. اضطرب المؤرخ الحزين بضعة أشهر قبل المحاكمة وبعدها فقصد أعيان المدينة ومن كان لهم بلاء ظاهر في مقاومة الاستعمار فكانوا كلما فاتحهم في شأن أولئك الشبان يشيحون بوجوههم. وعندما شرع في جمع التوقيعات على رسالة كان ينوي إيصالها إلى رئيس الدولة وقيل له إن سيادة الرئيس قد فاجأ كاتبا أجنبيا من المعجبين به خاطبه فيهم بقوله:" حررت البلاد وفتحت المدارس وشرعت في بناء دولة حديثة. كان جزائي أن بعضا من أبنائي قد سعوا إلى اغتيالي!“، جعل من مجلسه بمقهى النخلة منبرا للدفاع عن أولئك الشبان والردّ على ما كانت تروّجه الحكومة عنهم. اكتسب بعض الأنصار ثم أعيته في انتزاع التعاطف

سجّانة جزائرية الأصل وزفت لها خبر تسريحها. كانت تنتظر أن تفرح منّانة بالتسريح، وإذا بها تشرع في اللطم والنديب والنواح. اندهشت السجّانة. بلغ الأمر إلى مديرة السجن فجاءت منانة مندهشة من أن ترتاع سجينة من التسريح. قالت منانة: "أرجوكم، أستشفعكم بالرسول وجاهه، لا تسرّحوني. في الحبس وجدتُ الجنة التي أسمع بها: فراش ودفء وحمام ولتر من الحليب لرضيعي وأطعمة لا تخطر لي على بال. هل سيتوفر لي، إذا ما سرّحت، هذا أو شيء منه؟" ضحكت مديرة السجن وقالت: "أتعاطف معك ولكن القانون هو القانون". بلغني أن دولة الحماية والاستعمار لم تعد تجري قوانينها على السجناء والسجينات من أهل بلادنا، أصبحت تحشرهم حشر البهائم في أجنحة خاصة بهم". ظل الشاب ينظر إلى المؤرخ الحزين فقال له: "فهمت المعنى أم تريد أن أشرحه لك؟ رئيسكم المفدّى وزعيمكم الفذ كان دائما يقول ما أصبح خلفه المنافق يردده: " الصدق في القول والإخلاص في العمل..." خبّرني وأنت النبيه الذكي. أقيم أخلاقية هذه أم قوانين؟ لا أتمنى لك اليوم أن تدخل سجنا من سجوننا، لن تخرج منه إلا دون أنف أو منخر متى لم تخسر فيه أشياء أخرى تعز عليك كثيرا".

معهم تهمتا" الشيوعية" و" العمالة للأجنبي". كان مجادلوه يقولون له:" الشيوعي كافر بالله. ومن يكفر بالخالق الذي صوّره لا يستحق أن نلتفت إليه. عدم قتلنا له منّة عليه. والشيوعي عميل للأجنبي، وجزاء العمالة القتل. ليحمدوا الله على أنه قد أبقاهم أحياء علهم، يوما، يتوبون". أظهر له، في تلك الفترة، أنصار الحزب الحاكم كثيرا من الشماتة به. قال لي في تلك الأيام بكثير من المرارة:" لو حكّم الناس عقولهم بمقدار عشر واحد مما يسترسلون به مع أهوائهم صلحت البشرية". كانت هذه الحادثة قاصمة لظهر الوعي السياسي بمدينتنا، أصبح معظم سكانها يجدّون في إعمال عقولهم خدمة لأهوائهم القريبة والبعيدة.

قال الشاب: "ما زلت بعيدا عن الفهم. لم أعثر على علاقة بين منّانة والأخلاق". قال المؤرخ وهو يهمّ بالنهوض منصرفا: "مازلنا يا ذكي في عهد البهائم. عندما تخرجون منه يكون لنا كلام في الحرية والقوانين والأخلاق والديمقراطية وما إليها من المصطلحات التي تملؤون بها أحناككم".

خلال هذه العقود الأولى من عهد دولة الاستقلال والسيادة بدأت تدخل على القهوة نفسها صنوف من التحوّلات شبيهة في معظمها بتلك التي تغلغلت في الأذهان نافذة إليها من الخياشيم. كانت الدولة الجديدة الجائمة على الاستقلال والسيادة قد عزمت على الإمساك برقاب الناس وقودهم إلى الجنة بالسلاسل فألزمت وزارةُ التجارة أصحابَ المقاهي بتسعيرة للقهوة متدنّية. أصبح الذهب السائل منها ماءً أصهبَ أو أشقر. ثم بدأ البُنّ المستورد يصبح رديئا، من نوعية دون التي كانت رائجة في عهد دولة الاستعمار والحماية. قيل إن مورّدي البنّ الأجانب قد فرّطوا في شركاتهم لمورّدين محلّيين من المتنفذين الجدد وأصحاب الثروات المستحدثة فجدّوا في التماسه حيث يرخص سعره. وعندما أنشئ ديوان حكومي للتجارة تدنت النوعية إلى أقصى الحدود. بدأت الدولة الجديدة تهزها الأزمات المالية الناجمة عن نوازل التدافع على احتلال المواقع وشراء الذمم وسوء التصرّف وقلة الكفاءة وخبث النوايا وانقلاب المسؤولين بعضهم على بعض للاستمرار في الكراسي أو إزاحتهم عنها، فشرعت الحكومة في الضغط، حينا، على المواد المدعومة تأتي بها من سقط المتاع، من النوع الذي تعافه البهائم نفسها، أو تصنيفها، حينا آخر، في خانة الكماليات فترتفع أثمانها ارتفاعا جنونيا أو تختفي من الأسواق والمتاجر عدا ما كان يفد مهرّبا

مصونا في حراسة مضمونة. بدأ التجار وأصحاب الأموال، حسب بعض العارفين بالسياسة خارج ما كان يغرّد به وحده المؤرخ الحزين، يضجرون من تضييق الدولة عليهم فصرّوا على أموالهم وشغّلوا إذاعة "قالوا" فأصبحت تتضوع من الأفواه رائحة كريهة جدا كانت مزيجا مرعبا من العطر المغشوش والنتونة الجائعة والجشع الشرس ارتاعت منها الحكومة فأرخت الحزام لأرباب المال وغضت الطرف عن المهربين واستمرت تلهب بسياطها ظهر عامة الناس تدفع بهم إلى استرواح جنات لا تخطر على بال أحد.

قرّر واحد من كبار الوزراء الذين تعاقبوا على قيادة البلاد، وكان مشهورا بشقشقة الأحناك لأنه كان في كل أسبوع يلقي خطبة يعتبرها عصماء رغم ما فيها من برودة وثرثرة وسماجة وسذاجة وسخف، غلثَ القهوة بالحمص، فهو من إنتاج بلادنا. كان القرار يلزم مروّجي القهوة بأن يكون ثلثها حمصا وثلثاها قهوة، وإذا بصنعتها يجعلونها نصفين أحدهما شعيرا، ثم جعلوا الثلثين شعيرا محروقا والثلث الآخر قهوة غاية في الرداءة. أصبح طعم القهوة لا يطاق، ما أن يحتسيها المرء حتى تشتعل في بطنه حرائق وتنطلق منه، من أعلى ومن أسفل، غازات ذات روائح لا قدرة لأيّ كان على حبسها أو تحمّلها، تكوي الأنوف وتحدث الغثيان وتضرب على الرؤوس بالمطارق. فسد الشاي بنوعيه الأخضر والأحمر فأصبحت له رائحة روث البغال وطعم الكرّاث.

بدأ أصحاب المقاهي يبحثون عمّن يفرّطون لهم فيها. لكن الكساد كان قد حلّ وعمّ. كانت الدولة قد دخلت في أزمات متتابعة حتى أشرفت على الإفلاس. اغتنمت دول شقيقة كثيرة الفرصة فعرضت نصائحها ووعدت بالتمويل لكنها دسّت في نصائحها شروطا تمسّ بحرية

الفكر والمعتقد و"مجلّة الأحوال الشخصية" والتعليم والمنظمات الوطنية وأنماط التنمية.هرعت الحكومة إلى مصادر التمويل العالمي وصناديقه مستجدية فإذا بها تطالب بالتخفيض من نفقات الدولة والحدّ من دعم المواد المدعّمة وتحرير القطاع الخاص وإرخاء الحزام للأسعار. امتثل أصحاب القرار فأرسلوا للخواص الحبل على الغارب. قال أحد الخبثاء في مقهى البرطال مشيرا إلى مقصوراته الخاصة التي أصبح يلتقي فيها الأثرياء والمتنفذون على حاشية من التأذي بمرأى الرعاع والهمل والهمج: "الآن، أصبح النهب بالمكشوف".

جاء المال، مضمّخا برائحة الإذلال والمهانة، ديونا تتراكم على الديون. انتشر بين الناس وفاح أن البلدية وضعت، عملا بنظرية كاينز[83] الاقتصادية، تصميما "مستقبليا" لمركز المدينة الجديد وراء الجامع القديم وأن القروض أصبحت في متناول كل من له راتب ثابت أو عقار أو ملكية قابلة للرهن. غضب الذين لا شغل أو راتب لهم أو ما يستحق أن يرهن. كانوا يقولون رافعين أصواتهم بالشتيمة لروائح هذا الزمان المقيت:"ربُّها في آخر الأمر واحد. كان البايات ينهبوننا في العام الواحد مرات فكنا، دائما، على حافة المجاعة مخيمين، وكانت دولة الحماية والاستعمار لا تلتفت إلينا فهي لا تعثر، لدينا، على ما يصلح للنهب. سرّحتنا في الفيافي القاحلة كالوحوش. أما دولة الاستقلال والسيادة فقد أصبحت تنهبنا في اليوم الواحد مرات كثيرة،

83- نشر هذا الاسم طالب حظي بمنحة دراسية في أمريكا فرجع إلى مدينتنا مدرولا يلهج بمحاسن العالم الجديد. شرح للمتحلقين عليه بمقهى النخلة نظرية هذا العالم الكبير فضحكوا وقال واحد منهم: " لا بدّ أنه لصّ من اللصوص الذين كانوا مع علي بابا في مغارته". صحّف الذين كانوا حول ذلك الطالب اسم هذا العالم فجعلوه " كنزا" ثم صاروا، إذا جرى على لسانهم ذكر أهل العالم الجديد، يقالون:" عالم الكنوز السحرية والطلاسم"

لا ترسل علينا، في المقابل، سوى الضراط. الله ييسّر رجوعك إلينا يا المؤرخ الحزين، كنت تدعونا، من بداية الاستقلال، إلى الضغط على الحكومة بالاحتجاج حتى تنتقل من الدولة الجابية إلى الدولة المدنية. كان هذا، في نظرك، أخف الأضرار. وعندما جاء العهد الجديد قلت لنا:" خوفي عليكم أن تخسروا قليل ما كانت تتزين بها الدولة البائدة من تزويقات المدنية لتعود بكم رأسا إلى الدولة الناهبة. لن تخرجوا، عندها من الهفهوف الذي وحلتم فيه إلا بالعصيان وكثير من الدماء"، ويتنهدون بحرقة.

حفر أصحاب المال على كنوزهم المدّخرة وأظهروها فبدأت روائحها الغافّة ترتع في المدينة طولا وعرضا. شرعت البلدية في هدم حوانيت الحدّادين وباعة الفطائر العتيقة والمتاجر الضيقة، بعد أن انتزعتها من أصحابها بأثمان بخسة متعللة بقانون الانتزاع "للصالح العام" وأقامت مكانها دكاكين على أمثلة هندسية مستوردة ذات واجهات زجاجية، فتسابق الأثرياء الجدد إلى شرائها بنصف القيمة وبأقل من النصف مع الإمهال في التسديد سنوات عديدة. علّق أحد المغفلين على ما صنعته البلدية بمدينتنا فقال:"نحن مع هذه الدولة كمن يطلب عسلا في أعشاش الدبابير. لم تلحقنا منها إلا اللسعات المؤذية". سارت اللفظة، لحكمة فيها، فأصبح المسؤولون يسمون في بلادنا " دبابير".

انحسرت في الأثناء روائح السياسة منكمشة على نفسها في بعض الأركان المظلمة منذ أعلنت دولة الاستقلال والسيادة أن عهد مقاومة المستعمر قد انتهى ليحلّ محلّه عهد مقاومة الفقر والتخلف. جعل أرباب الدولة يرددون في جميع المناسبات أن البلاد قد كسبت معركة الاستقلال لتشرع في خوض معركة أشرس هي معركة النهوض

والتقدم. قالوا إن هذه المعركة الجديدة لا ينفع فيها سوى سلاح واحد هو العمل والعمل والعمل. لكن فرص العمل كانت قليلة وكان أربابها يشحّون في الرواتب والأجور. تعرّجت بمدينتنا روائح العرق: عرق الذين يعملون وعرق الذين يقفون في طوابير طويلة على حاشية من مقاهينا الستة وقد كوتهم أشعة الشمس ويبّست حلوقهم. انبعثت منهم جميعا روائح زفرة تنفذ من الأنوف إلى العيون فتحرقها وترسل في المآقي دمعا مدرارا.

تضوّعت هذه الروائح منتنة على امتداد عهد دولة الاستقلال والسيادة حتى مدّت عليها فركبتها دون أن تمتزج بها روائح أخرى جاءت مع العهد الجديد. أقبلت هذه الروائح الجديدة محمولة على بسط تنضح عطرا من رياح الأمل، غير أن روائح أخرى خبيثة سرعان ما هاجمتها فغمّت عليها ضاربة عليها حصارا خانقا إلى أن أجلتها تماما عن ديارنا. فإلى ما كان ينبعث من عرق العمّال من روائح الاستغلال وعرق الواقفين في الشمس ينتظرون تشغيلا هبّت رياح أخرى بروائح أخرى منبعثة من حاملي شهادات غير قابلة للتصريف. أصبحت الأرواح في الحلوق. لكن الأذهان قد أصبحت خالية من الروائح التي كانت إذا تسرّبت عبر الأنوف والخياشيم إلى الدماغ حرّكت الألسنة و السواعد. كان التعليم قد فسد والمكتبات العامة والخاصة قد أقفرت والصحف والإذاعات والتلفازات قد أمعنت في نشر النوادر والأخبار الغريبة والساذجة والسخيفة. كانت الإيديولوجيات المبشرة بانعتاق الإنسان حتى يمسك بمصيره بيديه قد أفرغتها يد الحدثان المناورة من أيّ محتوى فأصبحت عديمة الروائح، لم تبق فيها نفحة واحدة من أمل. قال أحد النبهاء بمقهى النخلة يخاطب رفاقا له: "الإيديولوجية الوحيدة

التي بقيت تتحرك ملهبة كثيرا من المواجد هي الإيديولوجية الإسلامية، غير أنها إلى المتحجر من إيمان العجائز أقرب منها إلى الإيديولوجية، أعني لا فكر لها ولا عقل ولا إيمان بالمستقبل فهي تنكر المعرفة وتتضمّخ برائحة القبور. ما زالت تحلم بالخليفة والإمام وبالدولة الجابية التي ترفع الإتاوة على الرؤوس".

بدأت، بعد مقدم دولة العهد الجديد بعقد، تظهر فوق سطوح المنازل قصاع عملاقة قيل إنها كانت تلتقط قنوات البث من جميع أصقاع الدنيا. رشقت معظم المقاهي قصاعا من هذا النوع فوق سطوحها وعدّلتها على قنواتها المفضلة. اشتدت وطأة العالم الخارجي على أهل مدينتنا. أصبح روّاد المقاهي في الصباحات والعشايا خاصة يفيضون في الحديث عمّا بتلك القنوات من أفلام جريئة أو إباحية ويتبادلون المعلومات حول كيفية الوصول إليها. تناقل الناس ضاحكين متندرين أن البُرْشُني الهرْبَة، في ما أخبر عن نفسه وأهل مدينتنا كثيرا ما يخبرون عن أنفسهم بما يخدش الحياء ويكشف عمّا حقّه الكتمان والستر عملا، من ناحية أولى بالقول المأثور "لا حياء في الدين" فلهم به ولع خاص، وتباهيا، من ناحية ثانية، بالبطولة والتفوّق في جميع المجالات، قد هيّجته، في إحدى الليالي، بعض الأفلام الإباحية فجعل يحرّك زوجته حتى استيقظت. طلب منها أن يجربا وضعا أعجبه. وعندما شرحه لها قالت، بين نوم ويقظة:" الآن وقد شبنا؟ ما عرفت أني ضيّعت معك عمري إلا عندما استرقت النظر إلى لعب أولئك الغزلان في التلفزة". قال البرشني الهربة:"حمي، والله، صدغاي حتى مادت بي الدنيا فكدت أرميها بالطلاق ثلاثا، ثم تماسكت وقلت:"أتجرئين على خيانتي في هذه السن يا عجوز؟ ومع من؟ مع فروخ القورِّة يا بنت الكلب".

لكن أهل مدينتي، في ما يقولون ويعيدون، لا يلعبون بالشرف أو يقبلون مساومة فيه، تُزهَقُ، حسبهم، دون المساس به الأرواح. فإذا صادف، وكثيرا ما يصادف، أن سمحوا لأنفسهم بما يحرّمونه على أولادهم وبناتهم فلأنهم يعدّون إيثار النفس بما ينفع ممّا تجهلُ دون أن يضرّ أو يفسد من أمارات الحزم الذي خصوا به. كمّموا كثيرا من القنوات الفاسدة، أو هكذا اعتقدوا، فانفتحت، في معظم دورنا، الأبواب واسعة لقنوات الوعظ والإرشاد والنهي عن المنكر والزهد في الدنيا وتفقيه الجهلة بمحاسن ديننا الحنيف والتغني لهم بأمجادنا الغابرة وأخلاقنا الفاضلة. ساعد على ذلك الجهل باللغات الأجنبية وحرص أرباب الأسر على أن يتزيّن أطفالهم بمحاسن الأخلاق وانتشار قنوات وافدة تنبعث منها رائحة مخاتلة منافقة تعبق بنتونة البترو دولار.

نقل بعض الناس لبعض أنهم يعثرون في بعض القنوات على إعلام مختلف عمّا تنشره وسائل إعلامنا المكتوبة والمسموعة والمسموعة المرئية. همس بعضهم لبعض أن بها من الجرأة على كشف الحقائق والوصول إلى مصادر الأخبار ما يدعو إلى كثير من الاستغراب. قالوا إن ما يجري بالبلاد والعالم، حسب بعض القنوات، يختلف شديدا عمّا تذكره قنواتنا وتندّروا، شامتين مندهشين، بما بدأ ينتشر عمّا تتخبط فيه الحكومة من ألوان الفساد وترتكبه العائلة الحاكمة من قبيح الحماقات ويأتيه الوزراء ورجال الأعمال من نهب وفسق كانا مكتومين أو لا يذكران إلا همسا في بعض الأوساط الخاصة جدا. أصبحت الفضائح الحقيقية والمختلقة على كل لسان. بدأ الوهن يأخذ من الرموز التي أفرزتها مرحلتا المقاومة وتكوين الدولة الوطنية أو تضوّعت بأريج الكفاءة والتألق فخبا أريجها شيئا فشيئا تحت وقع

إشاعات عن تورطها في الفساد أو في دعم أنموذج اجتماعي كافر لا يصلح لنا. لم يكن بالإمكان لأيّ كان أن يلاحق الإشاعة. أما إذا تعمدت أجهزة الدولة تلميحا إلى بعض منها لتفنيدها فإنها كانت تزيدها تأكيدا أو تلحقها بالحقائق التي لا يتطرق إليها شك. ثم إن بعض القنوات، مدعومة بمال تتضوّع منه رائحة خبيثة، قد أمعنت في غسل أدمغة المراهقين والمراهقات غسلا ممنهجا. جاءت برموز أخر قدامى ممن يعتبرون أيمّة وفقهاء نفضت عنهم غبار القرون أو من الماضي القريب والحاضر ممّن يُعدّون أشقاء أو إخوانا فتوّجتهم مثلا عليا تلهج بذكرهم من الصباح إلى المساء وتسبّح بآلائهم. حرّك الخبراء الساهرون على تلك القنوات بما كانوا ينظمونه فيها من حوارات روائح معتقة وجعلوا يرشون بها ألطف المشاعر وأرهفها حتى كفّروا الجميع: الغرب الصليبي والحكومات المتعاملة معه والنظام الاجتماعي والأخلاقي والاقتصادي والثقافي ملوّحين، في كل مرة، بأمجاد غابرة من ماض نقي ابتدأ به، حسبهم، الدور العربي الإسلامي في التاريخ. بدأت مقولة "الإسلام المجاهد" في الارتفاع. انساق المراهقون خاصة وراء هذا الشعار فقد كان جذابا ساحرا حتى أن منهم من صار يعلّق مكان صور رموز الغرب من المشهورين وأيقوناته صورا لرجال لا يسمع بهم أحد لهم لحى طويلة مصبوغة، أحيانا، بالحناء وشعور مرسلة مهوشة بأيديهم مصاحف وكلاشنكوفات ومراهقين وشبان على جباههم عصابات نقشت عليها عبارة "لا إله إلا الله" وفي خصورهم أحزمة ناسفة. هبّت على مدينتنا روائح لم تألفها أنوف الكبار فأصبحت مسدودة بكثير من المخاط اللاصق. شرع المراهقون الذين بدؤوا يتضمّخون بهذه الروائح الوافدة من أقاصي التاريخ في هجر المقاهي. أصبحوا يقولون: "هي

غريبة عن حضارتنا لم يعرفها الصحابة والتابعون". انتقلوا إلى المساجد يلتقون فيها حتى إذا اشتدت الحكومة في التضييق عليهم وأمعنت في ترصدهم، أصبحوا يأتونها لأداء الصلاة وينسحبون سريعا إلى أماكن أخرى يتكتمون عليها. قيل إنهم كانوا يتلقّون فيها دروسا خاصة ترد عليهم في فيديوهات من وراء البحار والصحاري. بدأت من هؤلاء المراهقين تتضوّع رائحة جديدة شبيهة برائحة قديم الكبريت.

انتقلت، مع هذا العهد الذي بشّر بالسعادة للجميع وظل ينشدها دون أن يهتدي إليها، ملكيةُ المقاهي الستة التي كانت منكفئة على نفسها في ملتقى الطرقات والشوارع والأنهج والأزقة خلف الجامع القديم إلى أرباب جدد سرعان ما سوّوا بها الأرض ليقيموا مكانها عمارات جعلوا طوابقها الأرضية مخصصة للنشاط التجاري. كانت، في معظمها، صناديق فوق صناديق على أمثلة هندسية واحدة شديدة البذاءة مؤذية للحس والذوق. هدّم مقهى العنبة، بعد اقتلاع الشجرة التي كانت تظلل جزء من واجهته، ومقهى النخلة، بعد اجتثاث نخلته[84]. قوّض

84- في حاشية المخطوطة: " عندما حصل مقهى النخلة في حوزة رجل كان يتجر في الحديد ومواد البناء وأشياء أخرى، وعزم على قلع نخلته، حذره بعض العارفين بأهل مدينتنا من ذلك. قالوا له: " بلادنا سخونة وما ندري أي أذى يمكن أن يلحقك". نبهوه أيضا إلى ردة فعل الناس فهي، لديهم، في حكم المقدسات. ضحك الرجل وقال: " لم يعد فيهم من يقدر على رفع سبابة واحدة للاحتجاج أو الرفض أو المخالفة أو الإمساك عن التأمين. أما القدرات التي تزعمون أنها لها فتخريف عجائز". جاء، مع انبلاج الفجر، بآلات عملاقة، فما كانت ساعة من زمن حتى كانت النخلة أشلاء وقطعا مجزأة في صناديق رحلت بها جرارات إلى حيث لا يعرف أحد. لم يفطن الناس إلى أن النخلة لم تعد بمكانها إلا مع الزوال، فتأسف عليها من تأسف واكتفى الآخرون برفع الأكتاف. سمعت إحدى النساء المسنات بحارة الغربية باجتثاث النخلة فخرجت إلى الطريق وجلست فيه رافعة صوت النياحة عليها. هبت لها جارات قليلات فانضممن إلى مجلسها مسعدات". انفرط مجلس النواح ورفع بعد ساعة من زمن.

مقهى المحباك ومقهى الأقواس الذي كان قد تحول إلى مقهى "البرطال" ثم "المستقبل" بعد أن اكتسب، مدّة وجيزة، تسمية مقهى " البوّالة". فتحت في الطوابق الأرضية التي كانت تشغلها هذه المقاهي محلاّت ضيقة لبيع القهوة والشاي والمرطبات. لم ترسم على واجهات تلك المحلات سوى عبارة "مقهى ومرطبات" كانت، في معظمها، مشفوعة بتسميات أعجمية، فرنسية حينا وإيطالية حينا وإسبانية من أمريكا اللاتينية وإنجليزية حينا آخر. لم يتندّر الناس، مثلما كانوا يفعلون، بتلك التسميات الغريبة بعد تحريفها بما يُكسبها دلالات قبيحة مضحكة فقد أصبحوا، من ثقل الهمّ الذي أناخ عليهم، لا يقدرون على الابتسام. جدّ أرباب هذه المحلات في توفير "القهوة الصافية" تمييزا لها عن المخلوطة بالحمص الذي سرعان ما كاد يصبح شعيرا خالصا محروقا. لكن جعلوا لها أسعارا مشطة تساوي سعر القهوة الشعيرية عشر مرات أو أكثر. أصبح الداخل إلى هذه المحلات إذا رغب في تناول قهوة "عادية"، وهي الشعيرية، يُلزَمُ بأن يتناول معها قطعة من المرطبات أو قارورة صغيرة من الماء المعدني. وإذا رغب في شرب "قهوة صافية" أعفي من الماء والمرطبات. أما إذا رغب في تناول كوب من الشاي فإنه يلزم أيضا بأن يكون بـ"البندق"[85] متى كان شايا أخضر وبـ"اللوز" متى كان أحمر. وإذا قال إن الطبيب يحجر عليه تناول المكسرات ألزم بأن يكون مع الشاي مرطبات أو ماءً معدنيا. ظهرت إلى جانب القهوة والشاي والمرطبات والماء المعدني عصائر متنوعة طازجة حسب الإعلان عنها وصناعية كيمياوية في حقيقتها، وهذه لم تدخل في البيع المشروط الذي سرعان ما انتشر حتى لم يعد ينكره أحد فأسعارها كانت دائما

85- حبّ الصنوبر

كاوية النتونة. أصبحت هذه المحلات تبيع البيتزا والسندويتشات وأقراصا من الخبز المشوي في أفران غازية وكهربائية محشوة بالجبن المغشوش وفاسد الدجاج ومتعفّن ثمار البحر وذميم اللحوم والشحوم الحيوانية وخامج الخضار، ولكل منها أسماء خاصة أعجمية وأسعار ملتهبة. أصبحت الروائح المنبعثة من هذه المحلات لا يستقصيها وصف. لكنها كانت إذا مازج بعضها بعضا وتضوعت وانفتحت لها أفواه شرهة تنبت فيها أنياب طويلة حادة تغطيها ملاغم موحشة فوق صدور ضيقة وكروش هائلة ومؤخرات ضخمة متهدّلة تبيّن الناس فيها رائحة شبيهة بروائح سوق الذهب، عندما استفحل فيه الغش والقبور المنبوشة في نازلة نقل المقبرة العتيقة إلى وادي برقوق[86]، مذرّحة بريحة الفورمول والأمونياك أو الفيجل الخامخ.

أقبل أصحاب هذه المقاهي على تشغيل الإناث فوجوههن الصبوحة وقدودهن الملاح أقدر على جلب الزبائن من وجوه ذكورنا المقلّبة فضلا عن أنهن يرضين بالقليل ولا يكاشحن في التوقيت أو يتذمّرن من سرعة نسق العمل. كان فيهن كثير من حاملات الشهادات العليا ممن لا حول لهن ولا قوّة في الظفر بوظيفة أو شغل يتناسب مع ما لهن من مؤهلات. كانت أجورهن زهيدة فكن يشترين الملابس من الفريب[87] ويضمّخن أجسادهن بعطور مغشوشة بخسة الأثمان كانت ترد مهربة إلى بلدنا محفوفة بكثير من البركات. تمتزج حرارة العكسيات الداخلية بوهج الأفران المدسوسة في الزوايا فتنطلق من أجساد العاملات بهذه المقاهي وثيابهن روائح ذات خبث غريب.

86- سبق ذكرها في " روائح المدينة".

87- ملابس مستعملة ترد على بلادنا من وراء البحار.

قوبل تشغيل الإناث في هذه الفضاءات- التي لازمتها منذ نشأت وطوال ما لا يقل عن عقدين من الزمن سمعة سيّئة- بكثير من الاستهجان، غير أن حضورهن في هذه المحلات وغيرها سرعان ما اعتاده الناس. لم يستغله للدعوة إلى أخلاقنا القديمة الفاضلة وإسلامنا المحبوب وأمجادنا البائدة سوى بعض الملتحين الذين كانوا يرتدون قمصانا طويلة بيضاء سرعان ما تصبح وسخة من كثرة ما يعلق بها من قذى وغبار ويضعون فوق رؤوسهم أغطية بيضاء بدلا من شواشينا الزاهية بحمرتها الجذابة ويلبسون لحى ألوانا وأشكالا مرسلة ومهوّشة ويزجّون باستنكار هذه البدعة في جميع السياقات كأن يقولوا "إن البطالة قد تسبّب فيها تشغيل الإناث" و"إن التفسخ الأخلاقي قد جاءنا من خروج الإناث وتعليمهن" و" إن انتشار العنوسة قد نتج عن تفريط الإناث في العفة والاستقامة" و" كيف تشتغل النساء والرجال في البطالة؟ ألم يقل الله، جلّ جلاله، الرجال قوامون على النساء"؟ لكن التحوّلات العميقة التي ضربت في الصميم الاجتماعي أرسلت علينا روائح مدوّخة لا تورث إلا كثيرا من الهذيان. فبعد أن كان الناس يستغربون ما لم يألفوا رافعين أصواتهم بالإنكار والاستهجان والتذمر والاستيحاش صادحين بأن الدنيا تشرف على نهايتها، أصبحوا كلما فاجأهم مظهر جديد غريب البذاءة، يرفعون أكتافهم ويمشون تائهين في شؤون يومية لم يعد لها المعنى الذي كانوا يحرصون على التمسك به.

كان المترددون على هذه المحلات والمارّون قريبا منها سرعان ما تختنق في صدورهم الأنفاس وتكتوي منهم العيون وتندى الجباه وترشح الأنوف فيأخذهم شهيق وسعال وعطاس. كانت تزعجهم، أكثر

ما تزعجهم، رائحة البصل المحروق والثوم المقلي والشحوم المشوية كلما سرحت أدخنتها متعرّجة في أبواب هذه المحلات فيحمدون الله على أن أصحابها لم يجعلوها واسعة حتى يتيسر فيها الجلوس. كانوا يتأذّون كثيرا من روائح الشحوم وهي تعجّ عليهم من تلك المحلات فيأخذهم صداع ملازم تحمرّ منه العيون. أصابت كثيرا من الناس، من الشباب خاصة والصبية، أوجاع في المعدة والكبد ولازمهم فتور وقوي في رؤوسهم الزفيف والذهول. أصبحت أدمغتهم فارغة إلا من الهلواس. تراهم، أكثر ما تراهم، فرادى وأنفارا وقوفا بهذه المقاهي مستندين إلى طاولاتها الصغيرة العالية وقد فرش كل منهم قصاصة بها سعر ما شرب أو أكل ممسكا بقلم بأصابع مرتعشة وهو يخط به عليها أرقاما يضرب بعضها في بعض ويجمعها ويطرحها ويقسمها حتى إذا فرغ من ذلك كله ارتفعت أصابعه إلى جبهته تفركها وتنهّد بحرقة وقال لنفسه أو لأقرب كائن إليه: "حسابي دائما في الأحمر. يجب أن أعيش عمرين أو ثلاثة حتى أخلص من الديون التي لبستني". امتلأت بهم المصحة الضيقة بالمدينة فصرفتهم إلى مستشفيات المدن القريبة ليعودوا منها قائلين: "خرّبت الأدواء الغريبة المستعصية أجسامنا. وصف لنا الأطباء مسكنات لم تعد تقدر على أن تسكن وجعا". قال أحد أطبائنا، وكان يعمل بأحد المستشفيات القريبة: "العلل التي أصبحت تدهم الناس لم يسبق أن عرفنا لها مثيلا. معظم أعراضها لم تذكره المصنفات الطبية، فكيف نعالج داء لا يدلنا الأجانب من العلماء على حقيقته أو من أين جاء أو تتوفر أدوية له؟"

لكن الذابّين بأجر بخس عن فلسفة العهد الجديد ظلوا يقولون ويعيدون: "لا اشتراكية غير اشتراكية رأس المال الخاص ولا حرية إلا

حريته ولا إنسانية إلا الإنسانية التي جاءنا بها. افتحوا أنوفكم جيّدا وشموا. التفاوت الطبقي والحيف الاجتماعي أن تجد حفنة من الناس ما لا يجده أكثرهم. انظروا كيف انتفت الطبقية، فعلا وحقيقة وواقعا لا شقشقة أحناك أو تمسيدا بالزبدة على مواطن الوجع ! كلّ أصبح، في هذا العهد السعيد، يجد ضالته. من رغب في قهوة عادية وجدها، ومن رغب فيها صافية وجدها. لكلّ إذن حسب رغبته". يظل الذين يوجّه إليهم هذا الخطاب ذاهلين حتى إذا فطنوا إلى أنه قد سكت أشاحوا عنه بوجوههم. كان كلّ منهم قد انصرف إلى همّه يعضّ عليه خلسة حتى لا يفطن له الآخرون، فالكظم على الغيظ والصبر على الأذى كانا آخر ما بقي أهل مدينتي به يتمسكون، بعد أن أدركوا أنه لم يعد لجميع المعارك التي خسروا مع السلطة الغاشمة والزمن المناوئ أيّ معنى عندما أصبحت الروائح المتفسخة الخبيثة تهبّ عليهم من جميع أنحاء العالم دون أن يقف في وجهها حاجز واحد يحتمون به. فسدت حياتهم اليومية وتحجّرت عقولهم وفترت هممُهم وشُلّت عزائمهم فلم يعد يستثير استغرابهم أو تعجّبهم شيءٌ تتقد له عيونهم وترمح أرنبات أنوفهم وترتعد ترقواتهم وتضبح أفواههم بالشتيمة وتتحرك منهم السواعد والأرجل والرؤوس. صاروا، كالمخدّرين، ألعوبة الرياح، تعصف عليهم، من الداخل ومن الخارج، بما شاءت من قبيح الروائح فلا ينزّ لهم عرق غاضب مستنكر. تعطلت بوصلاتهم ومزقتهم يد الحدثان وحملت بعضهم على أن يضيق ببعض ويكرهه ويمقته وسجدوا لكل غريب ناعق وخيّمت عليهم روائح منتنة فهم يتنفّسونها صعداء من الصباح إلى المساء متقززين حتى إذا تلَكْوَدَت[88] ألسنتهم وشاحت

88- اختلطت عليه مخارج الحروف فالتمسها فلم يصبها وركب بعضها فوق بعض.

أرياقهم لم تنبعث منهم سوى همهمات مجمجمة ذات نكهة خبيثة تبعث على الغثيان. هانوا وطال بهم الهوان حتى أشرف كل شيء فيهم على الممات. لكنهم كانوا دائما يتذكرون المؤرخ الحزين فيقدح، بين الحين والحين، في صميم عيونهم بصيص من نور. يهمّ طيفٌ من الابتسام بالارتسام على شفاههم فيغرق في تكشيرة متوجعة وكثير من الشهيق والزفير. كان بعض الأوباش من قروش المتنفذين قد مكّنوا إحدى الشركات العالمية من الجوس في سبختنا متلفعة بالتنقيب فيها عن النفط.

الفهـــــرس

من إصدارات عيون المعاصرة

آمنة الرميلي الوسلاتي
الباقي...
تقديم : عبد الفتاح إبراهم •
حكاية جيل كامل بما فيه من متناقضات وما حمله من أفكار و آمال و انتظارات من وطن لم يقدم لهم سوى الخيبات، شخصيات متنافرة ، مختلفة ، تلتقي و تفترق ، تتقاسم الأمل و الألم و البحث عن غد أفضل ، بين الماضي و الحاضر ترى هل من باقي للمستقبل

الهادي التيمومي
ملحُ قرطاج
تقديم : توفيق بكّار
«لو استحضرت المخاض العسير والظروف الصعبة التي حفّت بكتابة هذا الأثر الأدبيّ، لكتبتُ رواية على رواية، وربّما أكثر طولا وتشويقا، ولوضعتُ بين أيديكم حديثا غريبا، السّند فيه والحواشي أهمّ من المتن ...»

عبد الحميد الراعي
في انتظار الساعة الصفر
«... ساعة الصفر، بداية قرن جديد، نقطة فاصلة بين زمنين رجل سلطة يغوص في عالم الدبلوماسيين يعرّي همومهم ومخاوفهم كاشفا انتظاراتهم وخيباتهم وأسرار عالم مليئ بالإثارة والتقلبات...»

رياض مسعسس
حمّـام زنـوبيـا
تقديم : توفيق بكار
«... سوريا أرض تُستباح، تغتصب ويزج بأبنائها في جحيم السجون، يعذبون ويقتلون، مأساة شعب طامح للحريّة والانعتاق من الدكتاتوريّة...»

الشاذلي مبارك
الحرقــة
تقديم : جمال الخليفي
«... شباب بائسون خيّروا «الحرقة» هربا من واقع مُر قسى عليهم وأشبعهم خيبات وانكسارات، حلموا بزوجة وسيارة فلم يجنوا غير الموت...»

منصف الوهايبي
عشيقة آدم
تقديم : صلاح الدين بوجاه
«... رواية فايسبوكيّة لعلاقة افتراضيّة، رجل وامرأة لم يلتقيا، يختفيان خلف صورتين مجهولتي الملامح ليتعرّ أحدهما أمام الآخر ويفجر ما في أعماقه وعقله الباطن...»

حسين الواد
سعادته... السيد الوزير
تقديم : شكري المبخوت
«... معلّم يجد نفسه بين ليلة وضحاها وزيرا ينفّذ مهمة بيع الوطن، يتاجر به ويفصّل القوانين وفق رغبات السرّاق والقوّادة...»

نور الدين العلوي
تفاصيل صغيرة
تقديم : أحمد الودرني
«... رحلة شاب يغوص في تفاصيل مجتمعه يعرّي علاقاته المشبوهة وهشاشة مؤسسات تتاجر بجوع أبنائها...»

حسين الواد
روائــح المدينــة
تقديم : صلاح الدين الشريف
«... يحملنا الكاتب الى مدينته لنتعرّف عليها من خلال روائحها، يتجوّل بنا في ثنايا تاريخها وعبر أزقّتها كاشفا لنا كلّ أسرارها...»

محمّد دمّق
أحلام النـرجـس
تقديم : خليل قويعة
«... ذكريات حب جميل يطير بك بعيدا فتخال نفسك قد وجدت السعادة إلا أنها تحط بك في شقة صغيرة معلقة بالطابق الخامس يجترّ ساكنها مرارة هجر من أحب، تهجم عليه الذكريات تدمر سكينته، تشوه يومه، أينما ذهب، بوجه نرجس التي أحبّ...»

يحيى امقاسم
ســاق الغــراب
تقديم : فيصل درّاج
«... عالم عجائبي لأرض تَمتدّ عبر الصحراء وخلف الجبال، تنبثق من رحم الموت حياة ترسم بداية الطريق للوجود الإنسانيّ كلّه...»

حليمة الغميري الباجي
ريـحـة بـوتفـاحة
تقديم : نجوى الرياحي القسنطيني
«... في باجة بين الضحكات والشويّات تتحوّل الوعدة إلى حفلة، تفرغن فيها النّساء والصبايا كبتهنّ وهمومهنّ بعيدا عن عالم الرّجال، تفوح رائحة القهوة العربي ممزوجة برائحة الحكايا، يتجرعن مرارة الفقد وفرحة اللقاء...»

حنّة مينة
الباطـــر
تقـديـم : الرشيد الغزي

«...بين الغابة والبحر انعزل عن المجتمع لكنّه لم يتوقّف يوما عن الحلم والتفكير، «باطر» مشدود لنسغ الحياة، لا يهرب من المواجهة ولا يتوق للنسيان، اندفع عائدا إلى مدينته ليقف أمام ماضيه عاري الصدر تاركا خلفه خوفه وحبّه لشكيبة ...»

أبو بكر العيّادي
الرجل العاري
تقـديـم : البشير الوسلاتي

«... رجل تقذفه الغربة يمينا وشمــالا بين ذكرى زوجة هجرها وأخرى دفعته بعيدا عنها، يجوب شـوارع باريس بحثا عن مستقر، يعرّي نفسه ويواجه ماضيه وحاضره عله بذلك يجد طريق الخلاص من ذكرياته وخطاياه ...»

صلاح الدين بوجاه
لــون الــروح
تقـديـم : العادل خضر

«...بين المنتجع مكان المراقبة والقلعة مكان المعاقبة تدور أحداث رحلة بحث مرهق عن «لون الروح»، عن حقيقة الوجوه المتخفيّة خلف الأقنعة، مدينة في حالة استنفار تنتظر هجوما إرهابيا سيقلق راحة السائحين وينكّد عيشة أهلهم وحكامهم ...»

عبد الجبار العش
محـاكمة كـلـب
تقـديـم : محمد القاضي

«...«عروب الفالت» لم يعرف من الدنيا غير سوادها، فقر، يتم واغتصاب، مثقل بإنسانيّة كاره لوجوده، راغب في أن يموت ميتة الكلاب لا البشر، عاش مهمشا، ضائعا، وله الحق أن يكرم بالموت فلا رغبة له في الحياة...»

كمال الرياحي
المشرط

يقتلع ابن خلدون قدميه من قاعدة الرصاص،يدخن سيجارة ويروي ذكرى رحيله لبلد «المخاخ» طائر نتن يمتص العقول ويعاشر النساء تاركا في أرحامهن لعنتة

عروسية النالوتي
مراتيـــج
«... صور غائمة، ألم يطرق الرأس ومرارة في الحق، كلّ ماحول المختار مبعثر، هو لا يعي أي حدود بين الوهم والحقيقة، لكنه يدرك أن شيئا ما يناديه يدفعه للاعتراف بهزيمته أمام حب «دوجة»...»

مصطفى الفيلالي
مالعـــة
تقـديـم : توفيق بكار

«.... قرية عالقة بسفح جبل، منعزلة عن العالم، راضية بواقع أحكم سياجه حولها، صامتــه لا تشي بماخلف جدرانها، حياة بسيطـــة اختزلت في وجــوه ستة رجال هم خلاصــة روح «مانعــة» وعقلها والشاهد على سنوات جهادها ونضالها من أجل البقاء...»

البشير خريّف
برق الليل
تقـديـم : فوزي الزمرلي

«...عبد أسود مثقل بحبّ حسناء، يجوب الشوارع، هائ.ا، يطوّحه وزر مستحيل، يحلم بها وينتظرها، يرسم صورتها في خياله، يتمنى التحرر من عبوديته، من استعمار بلده ومن حبها، يهرب من واقعه إلى حلمه ومن بعدها إلى الانتظار...»

حسن نصر
دار الباشــا
تقـديـم : محمد القاضي

«...يقود الزمن «مرتضى» ليواجه ماضيه، يبحث عن طفولة مقهورة لم ينجح في التخلص منها تتالى الذكريات على وقع أقدامه داخل دار الباشا ليجد نفسه سجينا في ركن تحت الأنقاض يحلم بالرحيل إلى مدنية الضياء ...»

محمود المسعدي
الســـدّ
تقـديـم : توفيق بكار

«...بين إرادة الإنسان ومشيئة الربّ يقـوم الســدّ وينهد والغلبـــة للأقــدار. «صبهاء» و«غيلان» ضدّان لا يجتمعان، كأنهما الماء والنار أو الموت والحياة، يختزلان صراعــا أبديًا بين عظمــة الطبيعة وقوّة الإنسان، قصّة هدم وبنــاء، قوّة عزم وصلابة إرادة ...»

البشير خريف
الدقلة في عراجينها
تقـديـم : الطيّب صالح

«...حكايات من أعماق الوطن، عن الحبّ والتعلّق بالأرض، مزيج من الأفراح والأحزان وسنوات عمر تتهاوى كعراجين النخلة، أسرار وأحلام وحكايات حبلى بصور متنوعة تتراوح بين الجدّ والهزل، بين الحزن والفرح ...»



المغاربية لطباعة وإشهار الكتاب

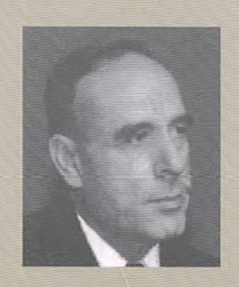
22، نهج المقاولين – المنطقة الصناعية الشرقية – أريانة – تونس
الهاتف : 683 837 70 216+ – الفاكس : 975 838 70 216+

بدأ التجار وأصحاب الأموال، حسب بعض العارفين بالسياسة خارج ما كان يغرّد به وحده المؤرخ الحزين، يضجرون من تضييق الدولة عليهم فصرّوا على أموالهم وشغّلوا إذاعة «قالوا» فأصبحت تتضوع من الأفواه رائحة كريهة جدا كانت مزيجا مرعبا من العطر المغشوش والنتونة الجائعة والجشع الشرس ارتاعت منها الحكومة فأرخت الحزام لأرباب المال وغضت الطرف عن المهربين واستمرت تلهب بسياطها ظهر عامة الناس تدفع بهم إلى استرواح جنات لا تخطر على بال أحد.

حسين الواد

أستاذ جامعي باحث، من مواليد 1948 بالمكنين. له في الأدب العربي القديم والحديث والمناهج الحديثة مؤلفات عدّة، نذكر منها دراسة للمعرّي في رسالة الغفران، وللمتنبي والتجربة الجماليّة عند العرب، ولبشّار ودوران الأشياء على أسمائها، ولأبي تمّام واللغة والشعر وغيرها. له في الفن السردي «روائح المدينة» (2010) و«سعادته السّيد الوزير» التي رشحت للقائمة القصيرة البوكر العالمية» (2013).

يرى الباحث حسين الواد أنّ الوقائع الفنية تؤثر أحيانا، وهي غير صادقة، أكثر من تأثير الوقائع الحقيقية الصادقة، وأنّ السّر، كلّ السّر، في ذلك إنّما هو في الانتقال من عالم الأفعال الفانية الى عالم الأقوال الدائمة.



الثمن : 12,000 د.ت.
ISBN: 978-9938-01-082-4

